المملكة العربية السعودية
الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة
الدراسات العليا
شعبة العقيدة

توحيد الالوهية

أساس الاسلام

رسالة مقدمة لنيل درجة
العالمية « الماجستير »

اعداد الطالب :
حامد بن عبدالقادر الاحمدي

باشراف فضيلة الشيخ :
عبدالله بن محمد الغنيمان

استاذ مشارك ورئيس قسم الدراسات
العليا بالجامعة الاسلامية

عام ١٤٠٤/١٤٠٥هـ

((المقدمـــــــــه))

الحمـد لله رب العالـمين الرحمن الرحـيم مالك يوم الدين اياك نعبـد واياك نستعين واشهد ان لا الـه الا اللـه وحـده. لا شريك له ،القائـل فى كـتابـه الكـريم : ((والهـكـم الــه واحـد لا الـه الا هو الرحمـن الرحـيم)) (١) خلق المكلـفين لعبادته وامرهم بتوحـيده وطاعـته فقـال تعـالى : ((وما خلقت الجـن والانـس الا ليعـبدون)) (٢)

واشهـد ان محمـدا عـبد الله ورسـوله وخيرتـه من خلقه ، وخاتـم انبيائـه ورسـله الـذى بـلغ رسالة ربـه ودعا الناس الى توحـيد الله واخـلاص العبـادة لـه صـلى اللـه عـليه وسـلم وعلى آلـه واصحابه الطـيبين الطاهريـن الذين رفعوا رايـة التوحـيد من بعـده ونشروا الاسلام فى الارض فدخلـت شعوب وأمـم فى رحمـة الأسـلام وعدلـه وتوحيـده .

اما بعـد :

فان لكـل شـىء ثابـت اسـاس يعتمد عـليه ، ولكل قوى ميزة يكمـن فيها سـر قوتـه ، وان صـرح الاسلام الشامخ انما يقوم ويعتمد على توحيـد الخالـق تبارك وتعالـى .

لـذا فان علم التوحـيد اشرف العلوم وافضلها على الأطـلاق ، وذلـك لأنه يتحدث عن ذات الله تبارك وتعالى وعما يستحقه على عباده .

فهو اما اخبار عن ذات الله تبارك وتعالى من حيث افعاله وربوبيته للعالـم

---

(١) سـورة البقـرة اية : ١٦٣

(٢) سورة الذاريات اية : ٥٦

او من حيث اسمائه وصفاته و ما يجب اعتقاده فى هذا الباب : وهذا القسم هو المعبر عنه بتوحيد المعرفة والاثبات .

واما ان يتحدث عن حقه تبارك وتعالى على عباده ، و عما يجب ان يكون عليه العبد فى ادائه لهذا الحق : وهذا القسم هو المعبر عنه : بتوحيد القصد والطلب ، او بتوحيد الألوهية وهذا النوع هو موضوع رسالتى هذه .

اهمية توحيد الألوهية :

ان توحيد الله بالعبادة هو اصل الدين ، واساس شرائع الاسلام ، وهو من الدين بمثابة الروح من الجسم ، والقلب من الجسد ، فلا يكون العبد مسلما و مؤمنا حقا الا بمعرفته معرفة تظهر آثارها على اقواله وافعاله وجميع تصرفاته ، فلا قيمة لايمان بغير عمل ولا وزن لعمل لا يكون خالصا لله وموافقا لهدى رسوله صلى الله عليه وسلم وقد اخبر تبارك وتعالى فى محكم كتابه ان عبادته وحده هى الغاية لخلق الانسان وايجاده على وجه البسيطة فقال تعالى : ((وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون)) (١)

وقال جل ذكره : ((يا ايها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون)) (٢) وقد اكد رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا المعنى فى حديث معاذ بقوله : (حق الله على العباد ان يعبدوه ولا يشركوا به شيئا) (٣) .. متفق عليه ..

وتوحيد الألوهية : هو رابطة الرسالات السماوية ، و مبدأ دعوة كل

---

(١) سورة الذاريات اية : ٥٦
(٢) سورة البقرة اية : ٢١
(٣) انظر الفتح (١٣/ ٣٤٧)

رسول الى قومه كما قال تعالى : ((ولقد بعثنا فى كل امة رسولا انعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت)) (١) فكان كل رسول يبدؤ دعوته لقومه بقوله: (يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره) (٢) فمن اجل هذا النوع من انواع .. التوحيد ارسلت الرسل وانزلت الكتب وحصل الجدال والجهاد وأبيدت الأمم .

هذا وان المتأمل ليجد ان الصراع من اجل تقرير هذا النوع من انواع التوحيد وتثبيته فى اذهان الامة والزامها به ، لا ينتهى بتقريره فى عهد النبى وزمن الرسول ، بل سرعان ما يتفلت الناس من دائرة هذا التوحيد وعن صراطه المستقيم الى متاهات وضلالات عميقة .. ممتطين فى خروجهم التقاليد المدمرة ، والأهواء الجانحة ، والعواطف الغير متزنة ، والنوايا الساذجة فلا تزال تخب بهم تلك المطايا المشئومة على اهلها حتى تسلمهم الى مسارات الجاهلية الأولى .

الامر الذى يؤكد ان الصراع بين المصلحين وغيرهم من اجل اقرار هذا النوع من انواع التوحيد : ؛ سوف يبقى على مر العصور وتتابع الازمان.

سبب اختيارى لهذا الموضوع :

أولا : احمد الله تبارك وتعالى الذى هدانى لهذا ، واذا اراد الله بالعبد امرا هيأ له اسبابه ، وان من اسباب اختيارى لهذا الموضوع هو اننى ولدت وعشت فى اسرة توارثت حب التوحيد وكراهية الشرك ، وكان ذلك الحب وتلك الكراهية فطرة وتقليدا مباركا اكثر من كونهما عن علم ومعرفة

وفى اثناء دراستى الى هذه المرحلة قد نما وزكى عندى ذلك الشعور فازددت

---

(١) سورة النحل اية : ٣٦ .

(٢) سورة الاعراف اية : ٧٢ .

بالعلم بالتوحيد معرفة ومحبة ، ولضده بغضا وكراهية فأحببت ان اسجل هذا الشعور فى هذه الفصول وتحت هذا العنوان .

ثانيا : ان المتأمل فى احوال كثير من المسلمين اليوم ليحس بالاسى مما يرى من جهلهم بتوحيد العبادة وبالمعنى الحق (لشهادة ان لا اله الا الله) وقد تساهل اكثر الدعاة فى هذا الجانب وانشغلوا بامور تأتى بعده بمراتب

فهذان السببان هما ابرز ما شدنى الى اختيار هذا الموضوع ، ورغبنى الى الكتابة فيه فالحمد لله على توفيقه .

خطة البحث :

هذا وتشتمل خطة البحث على تمهيد ، وثمانية فصول ، وخاتمة

التمهيد : وفيه اربعة مباحث :

الأول : فى المدلول اللغوى والشرعى لكلمة التوحيد .

الثانى : فى انواع التوحيد الذى دعت اليه الرسل .

الثالث : فى المعنى الحق لكلمة (الأله) وبيان خطأ من قال انه الخالق القادر والرد عليه من وجهين .

الرابع : فى معنى الأساس ، والمفهوم العام للاسلام ، ومطابقة العنوان لجزئياته .

الفصل الأول : فى التعرف على كلمة : (لا اله الا الله) والكلام فى ذلك يشمل ما يلى :

اولا : معنى كلمة : لا اله الا الله .

ثانيا : اعرابها وزيادة بيان لمعناها

ثالثا : فضل كلمة : (لا اله الا الله)

اما خاتمة الرسالة :

فقد اشرت فيها اشارات خفيفة ، ولمحات موجزة لبعض ما اشتملت عليه فصول الرسالة وبحوثها .

وصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

((تمهيـــــد))

ويشتمل على المباحث التالية :-

الأولـــ: في المدلول اللغوى والشرعى لكلمة التوحيد .

الثانـــي : في انواع التوحيد الذى دعت اليه الرسل .

الثالـــث: في المعنى الحق لكلمة (الالـــه) وبيان خطأ من قال انـه الخـالق القادر .

الرابـــع : في معنى الأساس ، و المفهوم العام للأسلام ، و مطابقة عـنوان الرسالة لجزئياتـه .

* * *

((المبحث الأول))

في المدلول اللغوي و الشرعي لكلمة التوحيد

أ ـ المدلول اللغوي :

كلمة التوحيد مصدر للفعل الثلاثي المزيد بتضعيف عينه وهي تعني : الوحدة ، والانفراد ، والتفرد ، يقال رأيته وحده وجلس وحده اي منفردا ، وفلان لا واحد له وواحد دهره اي لا نظير له .

والله الواحد الأحد : المنفرد بالذات والصفات في عدم الشكل والنظير ، واحد الله تعالى ووحده اي نسبه الى الوحدة والانفراد ، فهو سبحانه منفرد في ذاته وصفاته (1) .

ب ـ المدلول الشرعي :

و توحيد الله تعالى في الشرع : اعتقاد انه آله واحد لا شريك له وافراده عز و جل بالعبادة ، و التوجه اليه وحده بطلب المنافع ودفع المضار ونفي الكفء و الشكل عن ذاته تعالى وصفاته فهو المتصف بصفات الكمال الذاتية ، ونفي الشريك له في الربوبية ، واعتقاد انه وحده الخالق الرازق القادر المحي المميت المعز المذل النافع الضار المتصرف في هذا الكون بمن فيه و ما فيه .

---

(1) انظر مادة (وحد) الصحاح (٢/٥٤٧) والقاموس (١/٣٤٣) والمفردات في غريب القرآن للأصفهاني ص ٥١٤ .

قال تعالى فى نفى الكفء و المثل : ((قل هو الله احد الله الصمـــــد
لم يلـد ولم يولـد ولم يكن له كفوا احـد)) [١] وقـال : ((هل تعلم لـــه
سميا)) [٢] وقال فى نفى الشريك لـه فى الربوبية : ((قل مـــن رب
السموات و الأرض قـل اللـه)) [٣] . وقـال : ((اللـه الذى خلق السموات
والأرض و ما بينهـا فى ستة ايام ثـــم استوى على العرش ما لكم مـــن
دونه من ولى ولا شفيع افلا تتذكرون)) [٤] وقال : ((الله الذى خلقكم
ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم)) [٥] .. الآية .. وقال فى نفى الشريـــك
فى العبادة : ((والهكم الـه واحد لا الـه الا هـو الرحمن الرحيم)) [٦]
وقال : ((يا ايها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم
تتقـون)) [٧] وقال : ((فاعلم انه لا الـه الا الله)) [٨] وقال جـــل
ذكـره : ((قـل ان صلاتى ونسكى و محياى و مماتى لله رب العالمين
لا شريك لـه وبذلك امرت وانا أول المسلمين)) [٩] .

---

(١) سـورة الأخـلاص
(٢) سـورة مريم آيـة : ٦٥ .
(٣) سـورة الرعد آيـة : ١٦
(٤) سـورة السجدة آيـة : ٣
(٥) سـورة الـروم آيـة : ٤٠
(٦) سـورة البقرة آيـة : ١٦٣ .
(٧) سـورة البقرة آيـة : ٢١ .
(٨) سـورة محمد آيـة : ١٩ .
(٩) سورة الأنعام الآيات ١٦٢ ، ١٦٣ .

((المبحث الثاني))

في انواع التوحيد الذى دعت اليه الرسل

=

لقد ثبت بالتتبع والأستقراء ان التوحيد الذى نزلت به الكتب و دعت اليه الرسل ينحصر في نوعين : لا يكمل توحيد العبد وايمانه الا باستكمالهما جميعا .. على ما جاء في كتاب الله ووفق ما ورد عن رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ،و ما فهمه السلف الصالح من نصوص الكتاب والسنة .

النوع الأول :

هو ما يعبر عنه بتوحيد المعرفة والأثبات ،و هو ما يتعلق بذات الرب سبحانه و تعالى و اسمائه وصفاته وافعاله ، وهذا ينقسم الى قسمين :-

القسم الأول : توحيد الأسماء والصفات كما قال الله تعالى : ((الله لا اله الا هو الحي القيوم)) (١) وقال تعالى ((انما امره اذا اراد شيئا ان يقول له كن فيكون)) (٢) وقال أيضا : ((وهو بكل شئ عليم)) (٣) و قال جل ذكره ((يد الله فوق ايديهم)) (٤) وقال : ((رضي الله عنهم و رضوا عنه)) (٥) وقال : ((الرحمن على العرش استوى)) (٦)

---

(١) سورة البقرة آية : ١٥٥ .

(٢) سورة يس آية : ٨٢ .

(٣) سورة البقرة اية : ٢٩ .

(٤) سورة الفتح آية : ١٠ .

(٥) سورة المائدة آية : ١١٩ .

(٦) سورة طه آية : ٥ .

وقال : ((وكلم الله موسى تكليما)) [١] .. الى غير ذلك من الايات الواردة فى هذا المعنى :

- وطريقة سلف الأمة اثبات ما اثبته الله لنفسه و ما اثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم ، وكذلك ينفون عنه ما نفاه عن نفسه و ما نفاه عنه رسوله صلى الله عليه وسلم ، فهم يعتقدون ان الله سبحانه وتعالى ليس يشبهه ولا يماثله شئ من مخلوقاته .لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى افعاله ، فطريقتهم اثبات بلا تشبيه ... و تنزيه بلا تعطيل على حد قوله تعالى : ((ليس كمثله شئ وهو السميع البصير)) [٢] .

- وسيأتى بحث هذا الموضوع فى الفصل الخامس انشاء الله تعالى .

القسم الثاني : توحيد الربوبية [٣] وهو الأقرار بأن الله تبارك و تعالى رب كل شئ و خالقه ورازقه وانه المحيى المميت النافع الضار ،القادر على فعل ما شاء متى شاء ، وليس له فى ذلك ند ولا شريك له ولا معين ، كما قال تعالى : ((يا ايها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ،الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وانزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم

---

(١) سورة النساء : ١٦٤ . (٢) سورة الشورى اية : ١١

(٣) الرب يطلق على المالك ،والسيد ،والمصلح .

فلا تجعلوا لله اندادا وانتم تعلمون)) [(١)] وقوله تعالى : ((اللـه الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء)) [(٢)] .. والآيات فى هذا كثيرة غير ان الأقرار بهذا التوحيد دون اخلاص العبادة لله وحده وعدم الاشراك به ظاهرا وباطنا : لا يصير به العبد مسلما ، لأن الله تبارك وتعالى حكى عن المشركين القدامى اقرارهم بهذا التوحيد كما قال تعالى : ((قل من يرزقكم من السماء والأرض ام من يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر ؟ فسيقولون الله فقل افلا تتقون ؟)) [(٣)] وقال تعالى : ((ولئن سألتهم من خلقهم ؟ ليقولن الله)) [(٤)] .

- فلم يكونوا بهذا الأقرار مسلمين [(٥)] وذلك لعدم اخلاصهم العبادة لله وحده .

- قال شيخ الأسلام ابن تيمية رحمه الله جـ : فأما توحيد الربوبية الذى اقر به الخلق وقرره اهل الكلام فلا يكفى وحده بل هو من الحجة عليهم ... الخ .. كلامه [(٦)] .

---

(١) سورة البقرة آية : ٢١ .

(٢) سورة الروم آية : ٤٠ .

(٣) سورة يونس آية : ٣٢ .

(٤) سورة الزخرف آية : ٨٨ .

(٥) انظر تيسير العزيز الحميد ص ٣٣ - ٣٤ .

(٦) انظر الفتاوى جـ ١ ص ٢٣ .

وسوف اتكلم عن هذا الجانب الهام في مواضع كثيرة ان شاء الله .. لذا اكتفى هنا بالأشارة اليه فقط .

النوع الثاني من انواع التوحيد :

هو توحيد الله بأفعال العباد وهو المعبر عنه : بتوحيد الطلب والقصد أو توحيد الألوهية وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، ومحبته . و خوفه ورجاؤه و التوكل عليه ، والرهبة والرغبة منه واليه وحده ، والتقرب اليه بسائر العبادات البدنية والمالية دون اشراك احد او شيء من خلقه ، الى غير ذلك من انواع العبادات التي تعبد الله بها خلقه وشرعها وبينها لهم رسوله محمد صلى الله عليه وسلم .

وهذا النوع من التوحيد هو اهم مهمات الرسل الى اممهم ، ومن اجله حصل الجدال وشرع الجهاد وخلق الجن والانس وانزلت الكتب وارسلت الرسل ، وبسببه انقسم الناس الى شقي وسعيد ، وخلقت الجنة ، والنار ،

و بما ان هذا الموضوع هو موضوع البحث فنكتفي بهذا هنا على امل ان اوفق الى اعطاء هذا الموضوع من الجهد ما يتناسب و منزلته من الأسلام . فيما يأتي من مباحث الرسالة . . .

* * *

((المبحث الثالث))

في المعنى الحق لكلمة الأله

وبيان خطأ من قال : انه الخالق القادر

بالأطلاع على كتب اللغة نجد ان كلمة : (أله) تعني ، عبد ، والأله : هو المعبود ، (والتأله) : التعبد ، وكل ما عبد فهو اله عند عابده .

قال الجوهري : أله - بالفتح - الاهة : اي عبد عبادة ومنه قولنا : (الله) واصله : (الاله) على فعال بمعنى مفعول لأنه مألوه اي معبود كقولنا : امام فعال لأنه مفعول لأنه مؤتم به .

قال : والتأليه : التعبيد ، والتأله : التنسك والتعبد .

وقال صاحب القاموس المحيط : أله الاهة والوهة والوهية : عبد عبادة وكل ما اتخذ معبودا : اله عنده متخذه ، قال : والتأله : التنسك والتعبد ، والتأليه التعبيد .

وقال ابن جرير رحمه الله : أله بمعنى عبد والأله مصدره من قول القائل : آله الله فلان الاهة كما يقال : عبد الله فلان عبادة . . وذكر قراءة ابن عباس ومجاهد (ويذرك والاهتك) قال - اي ابن عباس - عبادتك وكان يقول : ان فرعون كان يُعبد ولا يعبد .

وقال ايضا ابن جرير : و (الله) من كلام العرب : اصله الاله ، اسقطت الهمزة التي هي فاء الاسم فالتقت اللام التي هي عين الأسم واللام

الزائـدة التي دخلت مع الألـف الزائدة وهي ساكنه ، فأدغمت في الأخـرى التي هي عين الأسم فصارتا في اللفـظ لاما واحـدة مشددة [1] .

وقال الزمخشري : و الألـه من اسماء الأجناس كالرجل والفرس اسم يقع على كل معبود بحق أو باطل ثم غلب على المعبود بحق [2] .

و بهذا يتضح لنا ان المعنى الحق : (للاله) انه المعبود مطلقـا بحق او بغير حق ، فكل ما عبد (الـه) عند عابده كما قال تعالى : ((فما اغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء امر ربك و ما زادوهم غير تتبيب)) [3]

. .   . .   . .

---

(١) انظر مادة : (ألـه) في الصحاح (٦/٢٢٢٣ - ٢٢٢٤) والقاموس المحيط (٤/٢٨٠) والتفسير لابن جرير في كلامه على معنى الألـه (١/٥٤ - ٥٥) ت .

(٢) انظر الكشاف (١/ ٣٦) .

(٣) سورة هود آية : ١٠١ .

بيان خطأ من قال ان معنى (الاله) الخالق القادر والرد عليه من وجهين

هذا هو المعنى الحق لكلمة (الاله) لا كما يقول بعضهم من انه الخالق القادر على الأختراع وان من اقر بذلك فقد اتى بالتوحيد الذى تضمنته كلمة (لا اله الا الله) .

فقد كان المشركون من العرب وغيرهم يقرون بأن الله هو الخالق الرازق القادر على الأختراع كما اخبر الله عنهم بقوله : ((ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله))(١) .

فلم يكن اقرارهم بهذا النوع من انواع التوحيد نافعا لهم حيث لم يضموا اليه الأقرار بأحقية الله بالعبادة وحده دون سواه ، وهو المعنى الحق لتوحيد الألوهية فكل ما حدث بين الرسل واممهم من جدال وجهاد انما هو من اجل الأقرار بهذا المعنى لا من اجل الاقرار بأن الله هو الخالق الرازق القادر على الأختراع .

فالقول بأن معنى الأله : الخالق القادر على الاختراع : قول مخالف لما قاله العلماء وائمة اللغة وعلى فرض تسليمه فهو تفسير باللازم اذ من لازم الأله ان يكون خالقا قادرا على الأختراع .

---

(١) سورة لقمان : ٢٥ .

قال الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ـ بعد أن ساق اقوال العلماء في معنى الأله [1] ، وانه المعبود ـ قال : وهذا كثير جدا في كلام العلماء وهو اجماع منهم ان الاله : هو المعبود خلافا لما يعتقده عباد القبور واشباههم في معنى الاله انه الخالق او القادر على الأختراع او نحو هذه العبارات ويظنون انهم اذا قالوها بهذا المعنى فقد اتوا من التوحيد بالغاية القصوى ولو فعلوا ما فعلوا من عبادة غير الله كدعاء الأموات والأستعانة بهم في الكربات وسؤالهم قضاء الحاجات والنذر لهم في الملمات وما شعروا ان كفار العرب يشاركونهم في هذا الأقرار ويعرفون ان الله هو الخالق القادر على الاختراع ويعبدونه بأنواع العبادات كما قال تعالى : ((ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم)) [٢] وقوله : ((قل من يرزقكم من السماء والأرض امن يملك السمع والأبصار)) . . . الآية [٣] وقوله : ((ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله)) الى ان قال رحمه الله : فان قيل قد تبين معنى الاله والألهية فما الجواب عن قول من قال : بأن معنى الأله : القادر على الاختراع ونحو هذه العبارة . . قيل الجواب من وجهين : احدهما ان هذا قول مبتدع لا يعرف احد قاله من العلماء ولا من ائمة اللغة وكلام العلماء وائمة اللغة هو معنى ما ذكرنا كما تقدم فيكون هذا القول باطلا .

---

(١) الزخرف : ١٠ .

(٢) يوسف : ٣٢ .

(٣) الزخرف : ٨٨ .

الثانــي : على تقديـر تسليمه فهو تفسـير باللازم للالــه الحق فأن الـــلازم لــه ان يكون خالقا قادرا على الأخــتراع ومن لم يكن كذلك فليس بألــه حــــق وان ســمى الـها ،وليس مراده ان من عرف ان الألــه هو القادر على الأخــــتراع فقـد دخل فى الأسـلام ، واتــى بتحقيق المرام من مفتاح دار السلام فـــأن هذا لا يقوله احد لأنــه يستلزم ان يكون كفــار العرب مسلمين ولو قــــدر ان بعض المتأخـرين اراد ذلك فهو مخطىء يرد عليه بالدلائل السمعيـــــة والعقليـــة .(١)

• •　　　　• •

---

(١) انظـر تيسـير العزيز الحميد ص(٧٦ - ٨١) .

((المبحث الرابـــع))

فى معنى الأساس ،والمفهوم العام للاســلام

وفى مطابقـة العنوان لجزئياتـــه

أ ـ والأساس فى اللغة : هو اصل الشئ وبدايته ، فأساس البناء اصلـه وقواعده التى يقوم عليها واساس الشجرة جذورها وعروقهما ،واساس القضية او الموضوع بدايته واسبابه .. وتوحيد الألوهية هو الاساس الذى تقوم عليه اعمال الاسلام الظاهرة والباطنة .

ب ـ المفهوم العام للاســلام :

والأسلام حسب المفهوم العام يمكننا القول : بأنه دين الله الذى خلق من اجله الخلق وانزل به الكتب وتتابع على تبليغه الرسل كما قال تعالى : ((ان الدين عند الله الاسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا منهم)) . (١)

وهو مجموع الأوامر والنواهى المشتملة على العقائد والعبادات،والمعاملات ، والأخلاق .

جـ ـ مطابقة العنوان لجزئياتـــه :

وعندما قلت : (توحيد الألوهية اساس الاسلام)) : اعنى ان افراد الله بالعبادة واخلاص العمل له ،والبراءة من كل معبود سواه ، هو الغرض الأساسى شرعا لخلق الأنسان وايجاده فى هذا الكون الفسيح

---

(١) سورة آل عمران آية : ١٩ .

كما قال تعالى : ((وما خلقت الجن والأنس الا ليعبدون)) (١) .

وهو اول مطالب الأسلام واهم اوامره على الأطلاق ، فكما ان الأشياء المحسوسة والملموسة لا تقوم الا على اسس ودعائم تمنع انهيارها وتداعيها فكذالك أعمال العباد لا اعتبار لها ولا اعتداد بها ما لم يقصد بها وجه الله تعالى وحده ، فالتوجه بالعبادة اليه وحده هو الأساس والقاعدة التى تبنى عليها اعمال الأسلام .

فلا قيمة لحياة بلا عبادة ، ولا وزن لعبادة لا يقصد بها وجه الله تعالى وفق شرعه وهدى رسوله صلى الله عليه وسلم .

.. .. ..

---

(١) سورة الذاريا

الفصل الاول

((الفصـــــل الأولـــــــ))

في التعرف على كلمة : (لا اله الا الله)

والكلام في ذلك يشمل :-

١ - معنـــاهـــــا .

٢ - اعرابهـــــــا .

٣ - فضلهـــــــا .

٤ - شـــروطهـــــا .

٥ - ادلة ظاهرها ان الله رتب دخول الجنة على العمل الصالح ، واخـــرى ليس فيها اشتراط ذلك .

٦ - ورود احاديث تدل على انه يحرم على النار من قال لا اله الا الله ، واخـــرى تـدل على انه يخـرج من النـــار من قال لا اله الا الله .

.. .. ..

التعرف على كلمة (لا اله الا الله

أولا : معناهـا :

كلمة (لا اله الا الله) هي كلمة الأخلاص ، وعنوان التوحيد ، ورابطة الرسالات السماوية ، فما من رسول الا وجعلها فاتحة امره ومبتدأ دعوته لقومه ، كما قال تعالى : ((وما ارسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه انه لا اله الا انا فاعبدون)) [1] .

وقال صلى الله عليه وسلم : ((امرت ان اقاتل الناس حتى يقولوا : لا اله الا الله) [2] .

فهي جملة تعني انه لا شيء في هذا الوجود يستحق العبادة غير الله ، حيث اشتملت على النفي والأثبات المعبر عنهما بركني (لا اله الا الله) فهي تنفي ان يكون معبود بحق دون الله وهذا مستفاد من قوله : (لا اله) ويستفاد اثبات العبادة لله وحده من قوله (الا الله) اى ان العبادة بجميع انواعها المعلومة في الشرع لا تجوز ولا تحق الا لله وحده دون سواه كما قال تعالى :

---

(١) سورة الأنبياء آية : ٢٥ .

(٢) رواه مسلم بشرح النووي : (١/ ٢٠٦) .

((فاعلم انه لا اله الا الله)) (١) وكما فى قوله جل ذكره : والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم)) (٢) .

فالذى يستحق من الناس الطاعة ويستوجب منهم العبادة : هو معبود واحد ، ورب واحد ، فلا يجوز ان يعبدوا معه غيره ، ولا ان يشركوا معه سواه فكل ما سواه خلق له ، والواجب عليهم طاعته والانقياد لامره وترك عبادة ما سواه من الانداد والآلهة ، وهجر الاوثان والاصنام وسائر المعبودات من دون الله فأنها لا تنفع ولا تضر ، فكل ما بالخلق من نعمة انما هى من الله وحده خالق هذا الكون ومالكه والهه (٣) .

وقال الشيخ العلامة عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب (٤) رحمهم الله : فى معرض كلامه على معنى : (لا اله الا الله) : ان هذه الكلمة العظيمة التى شهد الله بها لنفسه ، وشهد بها له ملائكته واولوا العلم من خلقه كما قال تعالى : ((شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة واولوا العلم قائما بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم)) فلا اله الا الله هى كلمة الاسلام لا يصح اسلام احد الا بمعرفة ما وضعت له ودلت عليه وقبوله والانقياد للعمل به .. وهى كلمة الاخلاص المنافية للشرك ، وكلمة التقوى التى تقى قائلها من الشرك بالله (٥) .

---

(١) سورة محمد آية : ١٩

(٢) سورة البقرة آية : ١٦٣ .

(٣) انظر تفسير الآية لابن جرير (٢/ ٦٠) بتصرف

(٤) هو الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب ، من علماء نجد ولد بالدرعية سنة ١١٩٣ هـ وكان رحمه الله فقيها فاضلا وعالما بارعا ، نقله ابراهيم باشا الى مصر فيمن نقل من آل سعود وآل الشيخ ثم عاد الى نجد ، تولى القضاء بالرياض وتوفى بها سنة ١٢٨٥ هـ
من مؤلفاته : الايمان والرد على اهل البدع ، ومجموعة رسائل وفتاوى ، وفتح المجيد شرح كتاب التوحيد لجده رحمه الله انظر الأعلام ٣/ ٣٠٤ وعنوان المجد ٢/ ٢٠ .

(٥) انظر مجموعة التوحيد ص ٣٥٩ .

وقال الأمام محمد بن اسماعيل الصنعانى (١) : ان رسل الله وانبياءه - من اولهم الى آخرهم - بعثوا لدعاء العباد الى توحيد الله بتوحيد العبادة - الى ان قال - وهذا الذى تضمنه قول : (لا اله الا الله) فانما دعت الرسل اممها الى قول هذه الكلمة ، واعتقاد معناها ، لا مجرد قولها باللسان ، ومعناها - والكلام له - : هو افراد الله بالالهية والعبادة ، والنفى لما يعبد من دونه والبراءة منه وهذا الأصل لا مرية فيما تضمنه ،ولا شك فيه وفى انه لا يتم ايمان احد حتى يعلمه ويحققه) (٢)

ف (لا اله الا الله) اذا هى كلمة الأسلام ،وكلمة الاخلاص ،واول مطالب الرسل من اممهم وهى : تعنى افراد الله بالعبادة والبراءة من كل معبود سواه ، ولا يتم اسلام العبد بدون تحقيقها والعمل بمدلولها .

ثانيا : اعرابها وزيادة بيان لمعناها :

قال جمهور النحاة ان (اله) اسم للا النافية للجنس ،وقال سيبويه : (لا اله) فى محل رفع مبتدأ ، واتفقوا جميعا على ان الخبر محذوف - قدره متأخروهم ب : (موجود) - كما اتفقوا على ان قوله : (الا الله) بدلا من الخبر المحذوف ،وعارضهم صاحب المنتخب وقال ليس هناك خبرا

(١) هو العالم المحقق محمد بن اسماعيل المعروف بالأمير الصنعانى ،ولد بمدينة كحلا من اليمن سنة ١٠٩٩ هـ ونشأ بصنعاء ، اصيب بمحن كثيرة من الجهلاء والعوام ، له عدة كتب فى المشركين والمعتقدين فى اصحاب القبور والاشجار والأحجار ،من مؤلفاته سبل السلام ،شرح بلوغ المرام ، وتطهير الاعتقاد من ادران الألحاد ،وله قصيدة عظيمة اشاد فيها بالشيخ محمد بن عبد الوهاب ودعوته - توفى سنة ١١٨٢هـ - انظر الاعلام ٦/٣٨ وعنوان المجلد ١/٥٣

(٢) انظر تطهير الاعتقاد عن ادران الالحاد ص ١٩ .

مقدرا البتة لأن تقدير الخبر ليس فيه نفي للماهية ، وهذا معناه اثبات آلهة متعددة ، فلا ً ولى اجراء الكلام على ظاهره والأعراض عن الاضمار.

وهذا الرأى مأخوذ من مذهب المعتزلة وهو ان الماهية اقوى من الوجود فنفى الوجود لا يلزم منه نفي الماهية ،والماهية عند اهل السنة والجماعة هي الوجود فنفي الماهية هو نفي الوجود .. ولذا رد عليه ابو عبد الله المرسي بقوله : فما قاله : - اى صاحب المنتخب - من الاستغناء عن الأضمار فاسد واما قوله : اذا لم يضمر يكون نفيا للماهية فليس بشيء لأن نفي الماهية هو نفي الوجود ، لا تتصور الماهية الا مع الوجود ، فلا فرق بين لا ماهية ولا وجود وهذا مذهب اهل السنة والجماعة (٢) .

فلابد اذا من تقدير الخبر المحذوف ، ولكن ليس كما يقوله متأخروا النحاة وهو ان تقديره : موجود فقد مر معنا كلام العلماء وائمة اللغة في معنى : (الاله) وهو قولهم : (آله) بمعنى عبد و (الاله) هو المعبود مطلقا ولا احد من النحاة وغيرهم ينكر وجود معبودات في الوجود كما قال تعالى : ((فما اغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء)) (٣)

---

(٢) انظر شرح الطحاوية ص ٥٢ .

(٣) سورة هود آية : ١٠٨ .

فكيف يقال : (لا معبود فى الوجود اذ ان القول : لا اله فى الوجود كالقول : لا معبود فى الوجود وهذا خطو فاحش مخالف للقرآن والواقع.

اذا فلابد وان يقدر الخبر بغير ما ذكره النحاة وهو كلمة : (حق) حتى يستقيم المعنى .

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى الكلام على : لا اله الا الله قال رحمه الله : لا نافية للجنس و (الأله) هو المألوه بالعبادة وهو الذى تؤلهه القلوب وتقصده رغبة اليه فى حصول نفع أو دفع ضر كحال من عبد الأموات والغائبين والأصنام فكل معبود مألوه بالعبادة ، وخبر (لا) المرفوع محذوف تقديره : (حق) وقوله : (الا الله) استثناء من الخبر المرفوع ، فالله سبحانه هو الحق وعبادته وحده هى الحق وعبادة غيره منتفية (بلا) فى هذه الكلمة (١) .

قلت ويؤيد هذا التقدير الذى ذكره الشيخ قوله تعالى : ((ذلك بأن الله هو الحق وان ما يدعون من دونه هو الباطل)) وقال شيخنا الفاضل وعالمنا الجليل سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز الرئيس العام لأدارات البحوث العلمية والأفتاء والدعوة والأرشاد فى استدراكه على صاحب المنتخب وعلى النحاة قال حفظه الله وافسح للأسلام والمسلمين فى ايامه : ما قاله صاحب المنتخب ليس بجيد وهكذا ما قاله النحاة وايده الشيخ

---

(١) انظر مجموعة التوحيد ص (٣٥٩ - ٣٦٠) .

عبد الله المرسى من تقدير الخبر بكلمة : (فى الوجود) ليس بصحيح لأن الآلهة المعبودة من دون الله كثيرة و موجودة ، وتقدير الخبر بلفظ فى الوجود لا يحصل به المقصود من بيان أحقية الوهية الله سبحانه وبطلان ما سواها ، لأن لقائل ان يقول : كيف تقولون : (لا اله فى الوجود الا الله) ؟ وقد اخبر الله سبحانه عن وجود آلهة كثيرة للمشركين ، كما فى قوله سبحانه ((و ما ظلمناهم ولكن ظلموا انفسهم فما اغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شىء)) (١) .

و قوله سبحانه : ((فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة)) (٢) فلا سبيل الى التخلص من هذا الاعتراض و بيان عظمة هذه الكلمة ، وانها كلمة التوحيد المبطلة لآلهة المشركين وعبادتهم من دون الله الا بتقدير الخبر بغير ما ذكره النحاة وهو كلمة : (حق) لأنها هى التى توضح بطلان جميع الآلهة و تبين ان الاله الحق والمعبود بالحق هو الله وحده كما نبه على ذلك جمع من اهل العلم منهم ابو العباس ابن تيمية و تلميذه العلامة ابن القيم وآخرون رحمهم الله (٣) .. الخ كلامه حفظه الله ولعل فيما ذكر كفاية لايضاح الحقيقة واجتلاء وجه الصواب فى اعراب هذه الجملة العظيمة جملة (لا اله الا الله) والله الهادى الى سواء السبيل .

---

(١) سورة هود آية : ١٠١ .

(٢) سورة الاحقاف آية : ٢٨ .

(٣) انظر شرح العقيدة الطحاوية ص ٥٣٨ .

ثالثـا : فضلهـــا :

أ - لا الـه الا اللـه : افضل كلمة على الأطلاق :

لا اله الا الله أفضل كلمة على الأطلاق ، وافضل ما قاله النبيون واتباعهم ، وافضل ما ذكر الله به الذاكرون ، فعن ابى هريرة رضى الله عنه ان رسول اللـه - صلى الله عليه وسلم - قال : من قال لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير : فى يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى ولم يأت احد بأفضل مما جاء به الا رجل عمل أكثر من ذلك ، ومن قال سبحان الله وبحمده فى يوم مائة مرة حطت خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر (١) .. رواه مسلم واحمد .. واقتصر الامام البخارى على بعضه (٢) .

وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال : قال رسول الله - صلى اللـه عليه وسلم : ما على الأرض رجل يقول لا اله الا الله ، والله اكبر ، وسبحان الله ، والحمد لله ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم : الا كفرت عنه ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر .. رواه أحمد (٣) .

---

(١) انظر النووى (٢٧/٧) باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء والفتح الربانى : (٢١٦/١٤) - باب ما جاء فى قول لا اله الا الله .. الخ .

(٢) انظر الفتح (٢٠١/١١) كتاب الدعوات .

(٣) انظر الفتح الربانى : (٢١٨/١٤) .

ف (لا اله الا الله) كلمة عظيمة ، سهلة ميسرة فواجب على المسلم الأكثار من ذكرها واستحضار معناها فلأكثار من قول لا اله الا الله والمداومة عليها تجدد الايمان فى القلب وتلوءه نورا وتزيده يقينا ، فعن ابى هريرة رضى الله عنه قال .. قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جددوا ايمانكم قيل يا رسول الله : وكيف نجدد ايماننا ؟ قال : اكثروا من قول : (لا اله الا الله)[1] .

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن : ولما كان بالناس - بل بالعالم كله - من الضرورة الى لا اله الا الله ما لا نهاية له : كانت من اكثر الأذكار وجودا ، وايسرها حصولا واعظمها معنى : والعوام والجهال يعدلون عنها الى الدعوات المبتدعة التى ليست فى الكتاب ولا فى السنة[2] .

واهل لا اله الا الله : هم اسعد الناس و احظاهم بشفاعته صلى الله عليه وسلم يوم القيامة ، الأمر الذى يوءكد علو شأنها وعظم منزلتها فى الاسلام .

فعن ابى هريرة رضى الله عنه قال قلت يا رسول الله : من اسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال لقد ظننت يا ابا هريرة ان لا يسألنى عن هذا الحديث احد اول منك لما رأيت من حرصك على الحديث : اسعد الناس بشفاعتى

---

(١) رواه احمد انظر الفتح الربانى (١٤/ ٢١٤) .

(٢) انظر فتح المجيد ص ٤٥ .

يوم القيامة : من قال : لا اله الا الله خالصا من قبل نفسه [١] .

ولا اله الا الله ماحية الذنوب و المنقذية من النار وافضل اعمال العبد التي يسر بها يوم القيامة - فمن كلمة الأخلاص لابن رجب قوله : وهي - اى لا اله الا الله -توجب المغفرة و تمحو الذنوب والخطايا ، وتجدد ما درس من الأيمان ، و ترجح بصحائف الذنوب كما في حديث السجلات .. والبطاقة ، وهي افضل الذكر وافضل ماقالة النبيون كما ورد في حديث دعاء يوم عرفة ، وحديث : افضل الذكر : (لا اله الا الله) ، ومن فضائلها ان اهلها وان كانوا يدخلون النار [٢] بتقصيرهم فأنهم لابد وان يخرجوا منها ... الخ .. كلامه رحمه الله

فهي العروة الوثقى ، والمستمسك القوى ، والسبب الواصل بين العبد وربه كما قال تعالى((ومن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها)) [٣]

فالعروة الوثقى : هي الايمان بالله الذى هو ضد الكفر ، وهي كلمة التوحيد : (لا اله الا الله) [٣] ، وهي الكلمة الطيبة القوية ذات الأصل

---

(١) رواه البخارى (١١/ ٤١٨) ، كتاب الرقاق - ورواه الامام احمد - انظرالفتح الربانى (١٤ / ٢١٤) .

(٢) اى من قدر له دخول النار منهم .

(٣) سورة البقرة : ٢٥٦ .

(٤) انظرالتفسير لابن جرير (٣/ ٢٠ و (١٣/ ٢٠٣) أيضا .

الثابت والفرع الساحق [1] .. كما قال تعالى : ((الم تركيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة اصلها ثابت وفرعها فى السماء)) [2] .

وهكذا نرى كيف تظافرت الأدلة و أقوال الأئمة على فضلها وعظم اجر من قالها عالما بمعناها عاملا بمقتضاها .

ب ـ لا اله الا الله : ضمان لأهلها بدخول الجنة :

ومن فضائل (لا اله الا الله) وعلو شأنها عند الله ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ضمن دخول الجنة لمن قالها عالما بمعناها ، موقنا بمدلولها ، عاملا بمقتضاها مهما عمل من الذنوب والآثام : فعن ابى ذر رضى الله عنه قال قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم :(ما من عبد قال لا اله الا الله ثم مات على ذلك الا دخل الجنة قلت وان زنى وان سرق ؟ قال وان زنى وان سرق ، قلت وان زنى وان سرق ؟ قال وان زنى وان سرق ، ثلاثا ثم قال فى الرابعة على رغم انف ابى ذر) [3] الحديث .. رواه مسلم ..

و روى ايضا عن ابى هريرة رضى الله عنه : انهم كانوا مع النبى صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك ، و فيه : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اشهد ان لا اله الا الله وانى رسول الله لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما فيحجب عن الجنة .. وفى رواية الا دخل الجنة [4] .

---

(١) انظر التفسير لابن جرير (٣/ ٢٠) و (١٣/ ٢٠٣) أيضا ..

(٢) سورة ابراهيم: ٢٤ .

(٣) انظر النووى (٢ / ٩٤) باب الدليل على ان من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة

(٤) النووى (١/ ٢٢٦)باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعا .

ففي هذين الحديثين وماكان في معناهما بشارة منه صلى الله عليه وسلم لأهل التوحيد واشعار بعظم هذه الكلمة وسمو منزلتها عند الله ،وانما جاء عظمها من عظم مدلولها وهو انتفاء احقية العبادة عما سوى الله واثباتها لله وحده من غير مشارك ولا منازع ، فكان جزاء من قالها والتزم بمدلولها : دخول الجنة لا محالة .

هذا بالأضافة الى اعتقاد قائلها بما جاء في حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(من قال اشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له ،وان محمدا عبده ورسوله ،وان عيسى عبد الله ورسوله وكلمته القاها الى مريم وروح منه ، وان الجنة حق وان النار حق ، : ادخله الله من اى ابواب الجنة الثمانية شاء) .. وفي رواية (ادخله الله الجنة على ما كان من عمل) .. رواه مسلم(١) .

فهذه مجموعة من امور الأيمان يتصدرها الأقرار بأنه لا معبود بحق الا الله وان محمدا صلى الله عليه وسلم عبد الله ورسوله الى الناس كافة ، وهذا هو مضمون : (شهادة ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله .

وهذا من الأدلة على فضل كلمة : (لا اله الا الله) فمن قالها واستكمل شروطها وعمل بمقتضاها ، فقد جاء يوم القيامة بسند متين ومستمسك قوى وشفيع مشفع ويكون مآله الى الجنة على كل حال .

---

(١) انظر النووى : (١/٢٢٦ - ٢٢٧) باب الدليل على ان من مات على التوحيد دخل الجنة قطعا .

رابعا : شروط الأنتفاع ب (لا اله الا الله)

ليس كلمة : (لا اله الا الله) جملة - تقال بلا معنى ، وكلمة تُلاك بلا فهم وقصد بل ان لها شروطا ، ولوازم لا ينتفع قائلها مالم يستجمع تلك الشروط ويستكمل تلك اللوازم فمن اخل بشرط منها فقد اخل بمدلول (لا اله الا الله) ومعناها الذى تهدف اليه .

وقد تكلم بعض العلماء على شروط هذه الكلمة العظيمة فأوصلها الى سبعة وهى :

الأولى : العلم بما دلت عليه هذه الكلمة العظيمة من اثبات العبادة لله ونفيها عما سواه ، كما قال تعالى : (فاعلم انه لا اله الا الله)[1]

وعن عثمان بن عفان رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من مات وهو يعلم انه لا اله الا الله دخل الجنة) . . رواه مسلم[2] . . قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن : " لا ريب ان الشهادة لا تكون شهادة الا عن علم ويقين وصدق واما مع الجهل والشك فلا تعتبر ولا تنفع فيكون الشاهد والحالة هذه كاذبا لجهله - بمعنى الذى شهد به .[3]

---

(١) سورة محمد آية ١٩

(٢) انظر النووى : (١ / ٢٢٨) باب الدليل على ان من مات على التوحيد دخل الجنة .

(٣) انظر قرة عيون الموحدين من مجموعة التوحيد ص ١٦ .

وقال الشيخ سليمان بن عبد الله بن عبد الوهاب: اما النطق بهما من غير معرفة لمعناها ولا عمل بمقتضاها ، فان ذلك غير نافع بالاجماع قال وفى الحديث ما يدل على هذا وهو قوله : (من شهد) اى كيف يشهد وهولا يعلم ؟ ومجرد النطق بشئ لا يسمى شهادة به[1] .

ثانيا : استيقان القلب بمدلولها وانتفاء الشك المعارض له وهذا مأخوذ من قوله تعالى : ((الا من شهد بالحق وهم يعلمون))[2] وقوله صلى الله عليه وسلم (اشهد ان لا اله الا الله وانى رسول الله لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما الا دخل الجنة)[3] .. رواه مسلم .

اى ان من تلفظ بالشهادتين موقنا بأنه لا شئ يستحق العبادة سوى الله سبحانه وتعالى وان محمدا صلى الله عليه وسلم مرسل من عند الله الى الناس كافة وان رسالته خاتمة الرسالات السماوية وان ما جاء به حق لا مرية فيه ، لابد وان يدخل الجنة فى عاجل امره او آجله .

ثالثا : الأخلاص له فى ذلك والسلامة مما ينافى مضمون (لا اله الا الله) كما قال تعالى : ((وما امروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين))[4]

---

(١) انظر تيسير العزيز الحميد ص ٧٢ .

(٢) سورة الزخرف : ٨٧ .

(٣) انظر النووى (١ / ٢٢٤) باب الدليل على ان من مات على التوحيد دخل الجنة

(٤) سورة البينة : ٥ .

وقد اخبر - صلى الله عليه وسلم - بأن احرى الناس واسعدهم بشفاعته يوم القيامة من قال لا اله الا الله خالصا من قلبه : فعن ابى هريرة رضى الله عنه قال : قلت يا رسول الله من اسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ (الحديث) وفيه (اسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة : من قال : لا اله الا الله خالصا من قبل نفسه)[1] .. رواه البخارى ..

رابعـا : الصدق بقولها و بما دلت عليه ، كما قال تعالى : ((والذى جاء بالصدق وصدق به اولئك هم المتقون))[2] قال ابن عباس رضى (والذى جاء بالصدق) يقول : من جاء بلا اله الا الله (وصدق به) يعني رسوله صلى الله عليه وسلم ،وقال على رضى الله عنه (والذى جاء بالصدق) محمد صلى الله عليه وسلم (وصدق به) قال ابو بكر رضى الله عنه . . . و قيل : (والذى صدق به) هم المؤمنون . - فالصدق بقول لا اله الا الله شرط من شروط الانتفاع بها .

خامسـا : ومن شروط لا اله الا الله : محبتها و محبة ما دلت عليه وتضمنته محبة سالمة من المعارضة ،ومن لوازم ذلك معاداة المشركين والبراءة منهم ومن اعمالهم و عدم موادتهم كما قال تعالى : ((لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله))[4] ..الآية

---

(١) انظر الفتح (١١/ ٤٠٠) - كتاب الرقاق .

(٢) الزمـر : ٣٣ .

(٣) انظر التفسير لابن جرير (٢٤/ ٣) .

(٤) المجادلة ٢٢ .

سادسا : الانقياد لما تضمنته لا اله الا الله ، ظاهرا وباطنا ، رغبة ورهبة ، كما قال تعالى: ((ومن يسلم وجهه لله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى)) (١) .. والعروة الوثقى هي كلمة لا اله الا الله - كما مر معنا - فلابد ان تكون رغبة العبد وهواه وفق ما تضمنته (لا اله الا الله) وتبعا لما جاء به رسول الله - صلى الله عليه وسلم .

سابعا : القبول لما دلت عليه (لا اله الا الله) من افراد الله بالعبادة ونفيها عما سواه فلا يرد شيئا من ذلك لميل في نفسه او ممالاة لغيره و مجاملة له .

فمن هذه الشروط : ندرك انه لا بد من العلم بمدلول هذه الكلمة العظيمة والعمل بمضمونها والأخلاص في ذلك ، لتكون نافعة لصاحبها و منجية له من عذاب الله وسخطه (٢) .

قال الأمام البقاعي رحمه : لا اله الا الله : انتفاء عظيما ان يكون معبود غير الملك الأعظم ، فأن هذا العلم هو اعظم الذكرى المنجية من اهوال الساعة ، ولا يكون علما الا اذا كان نافعا ، وانما يكون نافعا : اذا كان مع الأذعان والعمل بما تقتضيه والا فهو جهل صرف (٣) .

فما عرف مدلول لا اله الا الله : من طلب النفع من ملك اونبي او ولي ، أو جني

---

(١) سورة البقرة : ٢٥٦ .

(٢) مستفاد المعنى من الكواشف الجلية عن معاني الواسطية ص ٢١ - ٢٣ للشيخ عبد العزيز المحمد السلمان .

(٣) انظر فتح المجيد ص ٣٦ .

او حجر او شجر او دعا ميتا ، او استغاث بحي فيما لا يقدر عليه الا اللــه وما عرف لازم لا اله الا الله وشروطها من تقرب الى غير الله بشيء من انواع القربات كالذبح والنذر والطاعة في معصية رغبة او تزلفا وما الى ذلك من مظاهر التعظيم التي لا تنبغي الا للـه .

امران هامان نجدر الأشارة اليهما :

هذا ويمكننا ونحن بصدد الحديث عن فضل كلمة الأخلاص (لا اله الا اللــه) الأشارة الى امرين هامين يعتبر الكلام فيهما تتمة للحديث عن مزايا هذه الكلمة العظيمة :

الأمـــر الأول :

وردت آيات قرآنية واحاديث نبوية تفيد بظاهرها ان الله تبارك وتعالى رتب دخوله الجنة على الأيمان والعمل الصالح ، كما قال تعالى : ((فخلف من بعدهم خلف اضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا الا من تاب وآمن وعمل صالحا فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئا)) (١) .

وقوله سبحانه : ((ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات واخبتوا الى ربهم اولئك اصحاب الجنة هم فيها خالدون)) (٢) وقوله جل ذكره : ((الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب)) (٣) .

ومن الأحاديث في هذا الموضوع مارواه مسلم في صحيحه عن ابي ايوب أن رجلا

---

(١) سورة مريم: ٦٠ .

(٢) سورة هود : ٢٣ .

(٣) الرعد : ٢٩ .

قال يا رسول الله أخبرني بما يقربني من الجنة ويباعدني من النار . الحديث وفيه فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (تعبد الله ولا تشرك به شيئا و تقيم الصلاة و تؤتي الزكاة ،وتصل الرحم)[1] .. وفي حديث بشير بن الخصاصية ان رسول الله صلى الله عليه وسلم اشترط مع التوحيد الجهاد والصدقة والحج والصوم لدخول الجنة[2] .

فهذه الآيات والأحاديث و غيرها تدل بظاهرها على ان الأعمال الصالحة شرط لدخول الجنة ، بينما وردت نصوص اخرى ظاهرها ان من اتى بالشهادتين دخل الجنة وليس فيها اشتراط العمل الصالح ، مثل حديث : عبادة بن الصامت (وقد مر معنا اثناء الحديث عن فضل : (لا اله الا الله) قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من شهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له وان محمدا عبده ورسوله . . . الخ الحديث وفيه : (ادخله الله الجنة على ما كان من عمل)[3] وحديث ابي هريرة المتقدم ايضا . . . انهم كانوا مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك . . . الخ الحديث وفيه : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اشهد ان لا اله الا الله واني رسول الله لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما فيحجب عن الجنة) .. وحديث ابي ذر انه صلى الله عليه وسلم قال : (ما من عبد قال : لا اله الا الله ثم مات على ذلك الا دخل الجنة) .. فهذه الأحاديث و ما شابهها تدل على ان من

---

(١) انظر النووي (١ / ١٧٢) .

(٢) انظر مسند الأمام احمد جـ ٥ ص ٢٢٤ .

(٣) انظر النووي جـ ١ ص ٢١٧ .

اتى بالشهادتين دخل الجنة وليس فيها اشتراط الأعمال الصالحة ويبدو من ظاهر هذه النصوص معارضة لما تقدم من الايات والأحاديث التى تشترط العمل الصالح لدخول الجنة .

وبشيء من التأمل يزول الألتباس ويرتفع الأشكال انشاء الله تعالى فأقول : الأصل ان من اتى بالشهادتين موقنا بمعناهما فهو محسوب فى عداد المسلمين ، والأصل كذلك ان الله تبارك وتعالى : رتب الجزاء على الأعمال ان خيرا فخيرا وان شرا فشرا .

وهذا يسرى على احكام الدنيا والآخرة على حد سواء فقد شرع الله الاحكام والعقوبات فى هذه الحياة لحماية المجتمع الأسلامى من الفوضى وطغيان بعضهم على بعض ، فقال تعالى : (وكتبنا عليهم فيها ان النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والأنف بالانف ، والأذن بالأذن ، والسن بالسن والجروح قصاص)(١) .. الآية .. وقال تعالى : ((والسارق والسارقة فاقطعوا ايديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم))(٢) .. وقال تعالى : ((الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مئة جلده))(٣) .. وهذا فى حق البكر ، اما الثيب فحده الرجم كما هو معلوم فى الشرع كما فى قصة ماعز وقصة المرأة الغامدية .

وقد قام النبى صلى الله عليه وسلم فى حياته باقامة الحدود وتوقيع العقوبات ،

---

(١) سورة المائدة : ٤٥ .

(٢) سورة المائدة : ٣٨ .

(٣) سورة النور : ٢٠ .

وامر بأقامتها على من يستحقهـــا .

هذا ومن الملاحظ ان اللـــه سمح ورغب في الشفعة والعفو عن بعض الأعمـال والتجاوزات التي تحدث بين العباد ، وحث على ذلك ورتب عليه ثوابا عظيمـــا فقال تعالى : ((من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها)) [١] وقال تعالـــى : ((والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين)) [٢] وقـــال صلى الله عليه وسلم : (اشفعوا فلتؤجروا) [٣] .. رواه مسلم .

كذلك امور الآخـرة الأصل فيها ان الجزاء مرتب على الأعمال كما قال تعالى : ((من يعمل سوءا يجز به)) [٤] وقوله تعالى : ((ام حسب الذين اجترحوا السيئات ان نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهـــم ســاء ما يحكمـون)) [٥] .. وقوله سبحانه : ((فمن يعمل مثقال ذرة خـــيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يـره)) [٦] وقال تعالى : ((ووجدوا ما عملـــوا حاضـرا ولا يظلم ربك احـدا)) [٧] .. وعن ابي ذر الغفاري رضي الله عنـه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجـل انه قال : يا عبادي انـــي حرمت الظلم وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا .. ـ الحديث ـ وفيه (يا عـــبادي

---

(١) ســورة النســاء : ٨٥ .

(٢) ســورة آل عمران : ١٣٤ .

(٣) انظر النووي (١٦٦ / ١٧٧) .

(٤) النســـاء : ١٢٣ .

(٥) الجاثيـــة : ٢١ .

(٦) سـورة الزلزلة : ٤ .

(٧) ســورة الكهف : ٤٩ .

انما هي اعمالكم احصيها لكم ثم اوفيكم اياها ، فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن غير نفسه)) (١)

الى غير ذلك من الأدلة التي تدل على ان الله رتب الجزاء على الأعمال ، غير انه تعالى اخبر ان بعض الذنوب يمكن التجاوز عنها اما ابتداء واما بشفاعة بعض الشافعين لبعض المشفوع فيهم وهي جميع الذنوب ما عدا الأشراك به سبحانه ، كما قال تعالى ((ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء)) (٢) .

فتحصل مما ذكر ان من مات موحدا غير انه مصر على بعض الكبائر متوعد بالعقاب لكن قد يتجاوز الله عنه ابتداء وقد يناله من العقاب بحسب اسرافه على نفسه فيمكث في النار المدة التي يريدها الله تبارك وتعالى ، ثم يخرج منها ويكون مآله الجنة لكونه من اهل التوحيد وهذا ما اشارت اليه الأدلة التي تدل بظاهرها على ان من اتى بالشهادتين دخل الجنة .

هذا هو مجمل اعتقاد السلف في هذه القضية ومرده الجمع بين النصوص الشرعية وعدم معارضة بعضها لبعض ، واليك تفصيل ذلك للامام النووي رحمه الله تعالى حيث قال : " واعلم ان مذهب اهل السنة وما عليه اهل الحق من السلف والخلف ان من مات موحدا دخل الجنة قطعا على كل حال ، فان كان سالما من المعاصي كالصغير والمجنون والذي اتصل جنونه بالبلوغ والتائب توبة

---

(١) رواه مسلم .

(٢) سورة النساء آية : ١١٦ .

(٣) انظر النووي ١٦ / ١٣١ .

صحيحـــة من الشرك او غيره من المعاصى اذا لم يحدث معصية بعد توبتـــه والموفق الذى لـم يبتـل بمعصية اصلا ، فكل هذا الصنف يدخلون الجنة ولا ... يدخلون الـــنـار اصلا لكنهم يردونها على الخلاف المعروف فى الورود - واـــا ان كانت له معصية كبيرة من غير توبة فهو فى مشيئة الله تعالى : فأن شـــاء عفا عنه وادخله الجنة اولا وجعله كالقسم الأول وان شاء عذبه القدر الذى يريد سبحانه وتعالى ثم يدخله الجنة ، فلا يخلد فى النار احد مات على التوحـــيد ولو عمل من المعاصى ماعمل ، كما انه لا يدخل الجنة .. احد مات على الكفـــر ولو عمل من اعمال البر ما عمل .. ثم قال رحمه الله تعالى :-

هذا مختصر جامع لمذهب اهل الحق فى هذه المسألة ، وقد تظاهـــرت ادلة الكتاب والسنة واجماع من يعتد به من الأمة على هذه القاعدة ، فاذا تقررت هذه القاعـــده حمل عليها جميع ما ورد من احاديث الباب وغيره فاذا ورد حديث فى ظاهره مخالفة وجب تأويله عليها ليجمع بين نصوص الشرع (١).

هذا هو ملخص اعتقاد السلف بالنسبة لما يتعلق بالأمر الأول :

<u>الأمـــر الثانـــــى :</u>

اما الأمر الثانى مما تجدر الأشارة اليه فى هذا الباب ، فهو ورود احاديث ظاهرها التعارض فى مدلولاتها وهى :

أ - احاديث تدل على انه يحرم على النار من قال لا اله الا الله وشهد أن محمـــدا رسول الله .. روى مسلم رحمه الله فى صحيحه عن انس رضى الله عنه قـــال :

---

(١) انظر شرح الأمام النووى على صحيح الامام مسلم جـ ١ ص ٢١٧ .

كان النبى صلى الله عليه وسلم ومعاذ رديفه - الخ الحديث وفيه : (ما من عبد يشهد ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله الا حرمه على النار)[1] وروى أيضا عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول(من شهد ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله حرم الله عليه النار)[2] .

وعن عتبان بن مالك الأنصارى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :(لن يوافى عبد يوم القيامة يقول : لا اله الا الله يبتغى بها وجه الله الا حرم الله عليه النار) .. رواه البخارى ..[3] وفى رواية لمسلم : لا يشهد احد ان لا اله الا الله وانى رسول الله فيدخل النار او تطعمه)[4] .

فيؤخذ من هذه الأحاديث ان من اتى بالشهادتين لا يلج النار ابدا .

ب - ورود احاديث تدل على انه يخرج من النار من قال : لا اله الا الله ، فعن انس بن مالك رضى الله عنه - من حديث شفاعته صلى الله عليه وسلم (وفيه فأقول : يا رب ائذن لى فيمن قال لا اله الا الله ، قال ليس ذاك لك او قال ليس ذاك اليك ،ولكن وعزتى وكبريائى وعظمتى وجبريائى : لأخرجن من قال لا اله الا الله)[5] .

---

(١) انظر النووى (١/ ٢٤٠) .

(٢) النووى (١/ ٢٢٩) .

(٣) انظر الفتح (١١/ ٢٤١) كتاب الرقاق .

(٤) النووى (١/ ٢٤٤) باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة .

(٥) النووى (٣/ ٦٤) .

وعن انس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (يخرج من النار من قال : لا اله الا الله وفى قلبه وزن شعيرة من خير ، ويخرج من النار من قال لا اله الا الله وفى قلبه وزن برة من خير ، ويخرج من النار من قال لا اله الا الله وفى قلبه وزن ذرة من خير) (١) .. رواه البخارى ..

- فظاهر هذه الأحاديث : ان كثيرا ممن يقولون لا اله الا الله يدخلون النار بسبب ذنوبهم ثم يخرجون منها ويدخلون الجنة - وهو اعتقاد السلف - غير ان ظاهر هذه الأحاديث يتعارض مع ظاهر الأحاديث التى تدل على ان الله حرم على النار من قال : لا اله الا الله .

- وملخص اجوبة اهل العلم على هذه المسألة : فيما يلى :

أولا : منهم من يرى ان الشهادتين لا تفيد ان الا مع العمل ، وانهما بمثابة المفتاح والأعمال الصالحة بمثابة اسنان المفتاح ، فكما انه لا فائدة من مفتاح لا اسنان له ، فكذلك لا تأثير للشهادتين بدون الأعمال الصالحة وهذا رأى الحسن البصرى ووهب بن منبه ومن وافقهما قيل للحسن البصرى ان ناساً يقولون من قال : لا اله الا الله دخل الجنة فقال : من قال لا اله الا الله فأدى حقها وفرضها دخل الجنة . ، وقال وهب بن منبه لمن سأله اليس لا اله الا الله مفتاح الجنة ؟ قال : بلى ولكن ما من مفتاح الا وله اسنان فأن جئت بمفتاح له اسنان فتح لك والا لم يفتح .

ومعنى ذلك ان الأعمال عندهما وعند من يرى رأيهما شرط لدخول الجنة

---

(١) الفتح (١ / ١٠٣) كتاب الأيمان .

مع الأتيان بكلمة ، الأخلاص (لا اله الا الله) . .

غير ان هذا الرأى لم يسلم من الأعتراض عليه ووصف بأنه قول محمول على التشديد قال ابن المنير : واما قوله لم يفتح له فأن مراده لم يفتح له فتحا تاما او لم يفتح له فى اول الأمر . . وهذا بالنسبة الى الغالب والا فالحق انهم فى مشيئة الله تعالى . . وقال الداودى قول وهب محمول على التشديد ولعله لم يبلغه حديث ابى ذر (١)

ثانيا : يمكن ان يكون المراد بتحريم النار تحريم الخلود ، قال القاضى عياض رحمه الله بعد ان ذكر مذهب السلف فى هذه المسأله : فأن كان تائبا او سليما من المعاصى دخل الجنة برحمة ربه وحرم على النار بالجملة . . الى ان قال : ـ ويمكن ان يكون المراد بتحريم النار تحريم الخلود .

وحديث : من كان آخر كلامه لا اله الا الله ـ يكون خصوصا لمن كان هذا آخر نطقه وخاتمة لفظه (٢)

---

(١) انظر الفتح الجزء الثالث ص ١١٠ .

(٢) انظر النووى جـ ١ ص ٢٢٠ .

ثالثا : ان ذلك خاص بمن قال : لا اله الا الله وتاب توبة نصوحا فلم يأت بذنوب تنقص توحيده وتذهب بكماله ومات على ذلك فأنه يدخل الجنة ابتداء ، ومن كان خلاف ذلك فهو تحت المشيئة وهو قول البخارى رحمه الله وجماعة من اهل العلم ، قال رحمه الله - فى كتاب اللباس - بعد ايراده لحديث ابى ذر وفيه - ما من عبد قال لا اله الا الله ثم مات على ذلك الا دخل الجنة - قال رحمه الله : هذا عند الموت او قبله اذا تاب وندم وقال : لا اله الا الله . . ويؤكد ذلك صنيعه فى كتاب الجنائز . . حيث قال : باب فى الجنائز ومن كان آخر كلامه لا اله الا الله . . قال فى الفتح : قيل أشار بهذا الى ماروى الحاكم عن معاذ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من كان آخر كلامه لا اله الا الله دخل الجنة ( ) . - ثم قال وحاصل ما اشار اليه - أى البخارى - ان الحديث محمول على من وحد ربه ومات على ذلك تائبا من الذنوب التى اشير اليها فى الحديث فأنه موعود فى هذا الحديث بدخول الجنة ابتداء ، واما من تلبس بالذنوب المذكورة ومات من غير توبة فظاهر الحديث انه ايضا داخل فى ذلك ، لكن مذهب اهل السنة انه فى مشيئة الله ويدل عليه حديث عبادة بن الصامت فى كتاب الأيمان فأن فيه : ومن اتى شيئا من ذلك فلم يعاقب به فأمره الى الله تعالى ان شاء عاقبه وان شاء عفا عنه . وهذا المفسر مقدم على المبهم . (١)

---

(١) انظر الفتح ج ١٠ ص ٢٨٣ .

وقال ابن رشيد يحتمل ان يكون مراد البخارى الأشارة الى ان من قال : لا اله الا الله مخلصا عند الموت كان ذلك مسقطا لما تقدم له والأخلاص يستلزم التوبة والندم ويكون النطق علما على ذلك [1] .

القول الرابع : ان ذلك لمن قالها بصدق ويقين وتوبة ومات على ذلك وليس شرطا ان يكون عند الموت .

- قال الشيخ سليمان بن عبد الله بن عبد الوهاب - وقد بحث الموضوع بحثا مستفيضا - واحسن ما قيل في معناه ما قاله شيخ الاسلام وغيره : ان هذه الأحاديث انما هى فيمن قالها ومات عليها كما جاءت مقيده ، وقالها خالصا من قلبه مستيقنا بها قلبه غير شاك فيها بصدق ويقين فأن .. حقيقة التوحيد انجذاب الروح الى الله جملة ، فمن شهد ان لا اله الا الله خالصا من قلبه دخل الجنة لأن الأخلاص هو انجذاب القلب الى الله تعالى بأن يتوب من الذنوب توبة نصوحا فاذا مات على تلك الحال نال ذلك .. الى ان قال .. وحينئذ فلا منافاة بين الأحاديث فأنه اذا قالها بأخلاص ويقين تام لم يكن فى هذه مصرا على ذنب اصلا فأن كمال اخلاصه ويقينه يوجب ان يكون الله احب اليه من كل شيء . فأذا لا يبقى فى قلبه ارادة لما حرم الله ولا كراهة لما امر الله وهذا هو الذى يحرم على النار .. وان كانت له ذنوب قبل ذلك فأن هذا الأيمان وهذا الأخلاص وهذه التوبة وهذه المحبة وهذا اليقين لا تترك له ذنبا الا محى عنه كما يمحو الليل النهار ، فأذا قالها على وجه الكمال المانع من الشرك الأكبر والأصغر فهذا غير مصر

(١) انظر الفتح (٣/١٠٩) .

على ذنب اصلا فيغفر له و يحرم على النار ،وان قالها على وجه خلص بـه من الشرك الأكبر دون الأصغر ولم يأت بعدها بما يناقض ذلك فهـذه الحسنة لا يقاومها شيء من السيئات فيرجح بها ميزان الحسنات كما في حديث البطاقة فيحرم على النار ،ولكن تنقص درجته في الجنة بقدر ذنوبه . . وهذا بخلاف من رجحت سيئاته بحسناته ومات مصرا على ذلك فأنه يستوجب النار .

وان قال لا اله الا الله وخلص بها من الشرك الأكبر لكنه لم يمت على ذلك بل اتى بعدها بسيئات رجحت على حسنة توحيده فأنه في حال قولها كان مخلصا لكنه اتى بذنوب اوهنت ذلك التوحيد والأخلاص فأضعفته و قويت نار الذنوب حتى احرقت ذلك بخلاف المخلص المستيقن فأن حسناته لا تكون الآراجحة على سيئاته ولا يكون مصرا على سيآت فأن مات على ذلك دخل الجنة .

ثم قال : وانما يخاف على المخلص ان يأتى بسيئة راجحة فيضعف ايمانه فلا يقولها بأخلاص ويقين مانع من جميع السيئات (١) .

الخلاصـــة

وخلاصة هاتين المسألتين فيما يلي :

أولا : بالنسبة للأدلة التى ظاهراها ان من اتى بالشهادتين دخل الجنة وليس

---

(١) انظر تيسير العزيز الحميد ص ٨٦ - ٨٩ . وفتح المجيد ص ٤٠ - ٤٢ .

فيها اشتراط الأعمال الصالحة مع الأدلة التي تدل على ان الله رتب الجزاء على الأعمال واشترطت ذلك لدخول الجنة فأن وجه الجمع ان يقال : ليس المراد ان من اتى بالشهادتين دخل الجنة ابتداء بل قد يكون .. كذلك وقد يدخل النار اولا ثم يخرج منها ويكون مآله الجنة لا محالة وذلك جمعا بين الأدلة الشرعية .

ثانيا : اما بالنسبة للاحاديث التي ظاهرها[1] إن الله حرم على النار من قال لا اله الا الله - مع الأحاديث التي تدل على ان الله يخرج من النار من قال : لا اله الا الله ... الخ .

ففي هذه المسألة قولان رئيسيان :-

احدهما : ان ذلك لمن قالها بصدق ويقين واخلاص و توبة نصوحا ولم يأت بما يناقضها ولم يرتكب كبيرة تستوجب العقوبة كترك واجب او فعل محرم ومات على ذلك .

القول الثاني : ان ذلك خاص بمن قال لا اله الا الله وتاب وندم عند الموت.

والذي يظهر ان القول الأول هو الأرجح لما يلي :-

أولا : لعموم الأحاديث الواردة في هذا الشأن ، وشمولها لكل من قال (لا اله الا الله) خالصا من قلبه ، وقد جاءت في اوقات مختلفة و مناسبات متعددة : وليس في شيء منها اشتراط ان يكون ذلك في وقت محدود وزمن معين .

ثانيا : ان المؤمن الذي يقول هذه الكلمة (لا اله الا الله) بصدق واخلاص

تحجزه عن اقتراف الذنوب ،وان قدر انه وقع في شيء من ذلك فسرعان ما ينتبه ويتوب ويضاعف العمل الصالح ،فتبدل سيئاته الى حسنات ،فتكون حاله بعد الذنب احسن منها قبله . . كما قال تعالى : ((الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فاولئك يبدل الله سيئاته حسنات وكان الله غفورا رحيما)) (1) .

وقد اخبر تعالى ان من صفات عباده المتقين : انهم اذا ما وقعوا في معصية سرعان ما ينتهون ويستغفرون ربهم ويتوبون اليه ، فيكون جزاؤهم من الله : غفران ذنوبهم وادخالهم الجنة وخلودهم فيها كما قال تعالى : ((والذين اذا فعلوا فاحشة او ظلموا انفسهم ،ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، ومن يغفر الذنوب الا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ، اولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم اجر العاملين)) (٢) .

اما ما ورد في حديث معاذ رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : (من كان آخر كلامه : (لا اله الا الله دخل الجنة (٣)) وترجم له البخاري بقوله : باب في الجنائز ومن كان آخر كلامه : لا اله الا الله) .

---

(١) سورة الفرقان : ٧٠ .

(٢) سورة آل عمران : ١٢٥-١٢٦) .

(٣) رواه الحاكم .

فغاية ما فيه : ان من مات على التوحيد دخل الجنة وليس فيه اشتراط العمل وهذا أمر متفق عليه بين أهل السنة ، على التفصيل المتقدم في كلام الأمام النووي رحمه الله .

والله أعلم بالصواب واليه المرجع والمآب .

*　*

*

الفصل الثانى

((الفصـــل الثانـــي))

في التدليل على ان توحيد الألوهية اساس الاسلام

وفيـــه مباحـــث :

المبحـــث الأولـــ : في بيان ان افراد الخالق بالعبادة هو الغاية لخلق الانسان

المبحـــث الثانـــي : في بيان ان التوحيد في العبادة هو الأصل وان الشرك طارئ.

المبحـــث الثالـــث : ان الدعوة الى توحيد العبادة اهم وظائف الرسل واتباعهم.

المبحـــث الرابـــع : في بيان ان توحيد العبادة اول ما يدعى اليه العبد واولـــى مهمـــات الداعـــية .

المبحـــث الخامس : افتتح القرآن وختم بتوحيـــد العبادة .

المبحـــث السادس : في بيان ان التوحيد هداية وامن في هذه الحياة والحيـــاة الآخـــرة .

.. .. ..

((تقـــديــــم))

الواقع ان التدليل على كون توحيد العبادة هو اساس الأسلام واصل الدين لا يحتاج الى كبير عناء ومشقة ، بل يكاد ان يكون من البديهيات التى يجب التسليم بها لتوافق النقل الصريح والعقل الصحيح على وجوب عبادة الخالق سبحانه وتعالى وعدم الأشراك معه فى اى نوع من انواع العبادة ، حيث امر تبارك وتعالي في كتابه الكريم بعبادته وحده ونهى عن عبادة ما سواه ، ، وذلك لكونه الخالق المالك المتصرف في هذا الكون وحده وكل ما سواه مخلوق له ، وكذا امر رسوله صلى الله عليه وسلم بعبادة الله وحده وحذر من الشرك بكل انواعه وصوره وجاهد في ذلك حق جهاده .

ومن ذلك الفطر السليمة التي لم تتلوث باعتقادات الجاهلية واعمالها ، فأنها تدعو وترشد الي عبادة الله وحده وتنفر ولا تستسيغ تقديم ادنى نوع من انواع العبادة لغير الله فالأدلة على ذلك تكاد تفوق الحصر وانما اذكر منها المباحث التالية :-

((المبحث الأول))

في بيان ان افراد الخالق بالعبادة هو الغاية لخلق الانسان

لقد خلق الله الانسان الأول بيده ثم انزله الى الارض واستعمره فيها ، وزوده وميزه بالعقل والسمع والأرادة كي يتمكن بواسطتها من ادراك وفهم ما يلقى اليه من الأوامر والنواهي المتعلقة بعبادة الله وحده ، وارسل الى ذريته من بعده رسلا ومبلغين من جنسهم ،وانزل عليهم كتبه المشتملة على التعريف به ، وعلى امره ونهيه ، ووعده ووعيده . . وقد شاءت حكمته ان جعلنا ـ اى الأمة المحمدية ـ آخر الامم وارسل الينا خاتم انبيائه ورسله محمدا صلى الله عليه وسلم وانزل عليه كتابا تبيانا لكل شيء وناسخا لما قبله من الكتب ومهيمنا عليها الا وهو القرآن العظيم ،وقد ضمنه الله بيان المهمة الأولى والمقصد الأساسي لأيجاد الجنس البشرى على هذه الأرض واستخلافه فيها ، وهو عبادة الله وحده والبراءة من كل معبود سواه فقال تعالى : ((وما خلقت الجن والأنس الا ليعبدون))(١)

وقال : ((يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون))(٢)

ففى هاتين الآتين وما كان فى معناهما دلالة واضحة على المقصد الأساسي لخلق الانسان وايجاده على وجه البسيطة ،وهو تلقى اوامر الله والتعرف عليه من خلال آياته المسموعة والمنظورة واداء العبادة له وحده وفق شرعه وهدى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، قال الأمام ابن كثير رحمه الله فى تفسيره لقوله

---

(١) سورة الذاريات : ٥٦ .

(٢) سورة البقرة : ٢١ .

تعالى : ((وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون)) انما خلقتهم لآمرهم بعبادتي لا لأحتياجي اليهم .. ثم قال رحمه الله .". انه تبارك وتعالى : خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له فمن اطاعه جازاه اتم الجزاء ، ومن عصاه عذبه أشد العذاب ، واخبر انه غير محتاج اليهم بل هم الفقراء اليه فى جميع احوالهم فهو خالقهم ورازقهم" (١) هذا وقد اخبر صلى الله عليه وسم ان عبادة الله وحده وعدم الأشراك به حق على المكلفين .

فقد روى الأمام البخارى فى صحيحه عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : " بينا انا رديف النبى صلى الله عليه وسلم ليس بيني وبينه الا آخرة الرحل فقال : يا معاذ : - الحديث - وفيه : قال : هل تدرى ما حق الله على عباده؟ قلت الله ورسوله اعلم قال : حق الله على عباده : ان يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، قال : هل تدرى ما حق العباد على الله اذا فعلوه ؟ قلت الله ورسوله أعلم قال : حق العباد على الله ان لا يعذبهم" (٢)

فالحق هو ما ثبت بالدليل ، وحق الله هو ما تعبد به الخلق وطلب منهم فعله او تركه ، وان خلق الانسان وخلق الكون من حوله واسباغ النعم عليه ظاهره وباطنه لمن اقوى الأدلة على احقية الله بالعبادة .

و توحيد العبادة لا يتم الا بأمرين احدهما عبادة الله تعالى والثانى افراده بالعبادة وعدم الشرك به وهذا ظاهر من قوله - صلى الله عليه وسلم -: (ان يعبدوه

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٣٨ .

(٢) انظر فتح البارى شرح صحيح البخارى كتاب الرقاق ج ١١ ص ٣٣٧ .

ولا يشركوا به شيئا) .

قال فى الفتح : المراد بالعبادة : عمل الطاعات واجتناب المعاصى وعطف عليها عدم الشرك لأنه تمام التوحيد والحكمة فى عطفه على العبادة ان بعض الكفرة كانوا يدعون انهم يعبدون الله ولكنهم كانوا يعبدون آلهة اخرى فاشترط نفى ذلك (١) .

وليس المراد من قوله : وحق العباد على الله ان لا يعذبهم ان ذلك على سبيل الالزام والحتمية بل هو حق ثابت لهم بحكم وعده الحق : جزاء ما فعلوا من عبادة الله وحده وعدم الأشراك به ، قال القرطبى رحمه الله : حق العباد على الله ما وعدهم به من الثواب والجزاء ، فحق ذلك ووجب بحكم وعده الصدق وقوله الحق الذى لا يجوز عليه الكذب فى الخبر ولا الخلف فى الوعد فالله سبحانه وتعالى لا يجب عليه شىء بحكم الأمر اذ لا آمر فوقه ولا حكم للعقل لأنه كاشف لا موجب (٢) .

اذا فالله سبحانه وتعالى خلق الانسان وخلق كل شىء فى هذا الكون وسخره له ، وهو بدوره لله لمعرفته ، و عبادته ، والقيام بحقه ، ولم يخلقه لمجرد الأكل والشرب واللهو بل خلقه للأبتلاء والأختبار ، والعبادة فإن استجاب اجزل له الثواب ، وان اعرض واتبع هواه وشيطانه ونفسه الأمارة ناله من الله اليم العقاب .. كما قال تعالى :

((انه يبدأ الخلق ثم يعيده ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات

---

(١) انظر الفتح جـ ١١ ص ٣٣٩ .

(٢) انظر الفتح جـ ١١ ص ٣٣٩ .

بالقسط)) الى غير ذلك من الآيات الواردة فى هذا المعنى الدالة على حكمة خلق الانسان واستمرارية استخلافه فى هذا الوجود .

الشرع والعقل يتفقان على تحديد الغاية لخلق الانسان :

تلك كانت بعضا من الأدلة الشرعية على ابراز وظيفة الانسان الأولى فى هذه الحياة ولا شك ان العقل السليم يتفق مع الأدلة الشرعية فى وجوب عبادة الله وحده لا شريك له . وبيان ذلك :

أ - اما ان يقال ان الله خلق الخلق لغير غاية ولا مقصد وهذا عبث تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا - واما ان يقال خلقهم لغاية ومقصد .

ب - وهذه الغاية اما ان يقال : هى لمجرد الاستكثار والأستئناس بهم وهذا محال أيضا لأنه تبارك وتعالى قوى غنى بذاته وليس محتاج الى شىء من مخلوقاته .

- فلم يبق الا انه خلقهم لتلقى اوامره المتعلقة بعبادته والخضوع له ورجائه .

ويتضح ذلك بما يلى :

ان ابتداع الشىء وايجاده لغير غاية مقصودة لعب وعبث يترفع عنه العقلاء من البشر فضلا عن البارى جلت حكمته - ثم كيف يعقل ان الله الذى خلق كل شىء فى هذا الوجود وفق انظمة وسنن ثابتة دقيقة اهمها خلق السموات والأرض والهواء والماء والنبات والحيوان و خلق الانسان وميزه على سائر مخلوقاته بما اودعه من عجائب قدرته التى بهرت العقول ما. يوحى بالعناية به واعداده

اعدادا خاصا ميزه على سائر المخلوقات كيف يعقل ان يكون ذلك لغير غاية ولا مقصد ان هذا لمحال عقلا كما هو محال شرعا .

اما الافتراض بأنه خلقهم للاستكثار والاستئناس بهم فهو ايضا محال عقلا ، اذ كيف يعقل ان من بيده ازمة الأمور والقدرة التامة والقوة الكاملة والأحاطة الشاملة يكون محتاجا لمخلوق ضعيف عرضة دائمة لأسباب الهلاك ، ثم كيف يكون جلت قدرته محتاجا لمخلوق خلقه بيده وانشأه من العدم بعد ان لم يكن شيئا مذكورا ؟

لا شك ان قدرة الخالق فوق قدرة المخلوق وقدرة الرب فوق قدرة المربوب ولهذا لما تباهى قوم عاد بقوتهم وانكروا ان يكون فى الوجود من هو اقوى منهم قال تعالى ردا عليهم بأسلوب منطقهم ((فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من اشد منا قوة ؟ اولم يروا ان الله الذى خلقهم هو اشد منهم قوة ؟ وكانوا بآياتنا يجحدون))(١)

وبهذا يتم استبعاد ان يكون الله خلق الخلق لغير معنى او خلقهم للاستكثار والأستئناس بهم ولم يبق الا انه خلقهم ليكونوا محلا للأمر والنهى وعبادا لله طائعين .

.. ..

---

(١) سورة فصلت : ١٥ .

استحق الله العبادة لأنه الخالق الرازق

وقد استحق الله العبادة من العباد لكونه الخالق الرازق وحده والمالك لكل ما في الوجود فوجب ان يكون هو المألوه لعباده قال تعالى : ((ذلكم الله ربكم لا اله الا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل))(١) .

قال الامام ابن جرير رحمه الله في تأويله لهذه الآية : انه لا شيء له الألوهية والعبادة الا الذي خلق كل شيء وهو بكل شيء عليم فأنه لا ينبغي ان تكون عبادتكم وعبادة جميع من في السموات والأرض الا له خالصة بغير شريك تشركونه فيها فأنه خالق كل شيء وبارئه وصانعه وحق على المصنوع ان يفرد صانعه بالعبادة ، فذلوا له بالطاعة والعبادة والخدمة واخضعوا له بذلك ، والله على كل ما خلق من شيء رقيب وحفيظ يقوم بأرزاق جميعه واقواته وسياسته وتدبيره وتصريفه بقدرته(٢) .

وهذا يتفق مع قوله تعالى : ((يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وانزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله اندادا وانتم تعلمون))(٣) .

فالعبادة حق الخالق على المخلوق حق الكريم الذي احسن وانعم على من

---

(١) سورة الأنعام : ١٠٢ .

(٢) انظر تفسير الطبري ج ٧ ص ٢٩٩ .

(٣) سورة البقرة : ٢١ - ٢٢ .

من احسن اليه وانعم عليه فلا يجوز ان يصرف منها شيئ لغير الله وان كان يسيرا ، كما لا يجوز ان يقصد بها احد دون الله مهما كانت درجته و مهما علت منزلته .

قال ا شيخ الاسلام ابن تيمية : " فجنس المحبة ،والطاعة ،والأرضاء يكون لله ولرسوله اما العبادة و ما يناسبها من التوكل والخوف و نحوى ذلك فلا يكون الا لله وحده كما قال تعالى :

((قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ان لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله فانّ تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون)) (١) ، (٢)

وقال أيضا : العبد يراد به العبد الذى عبده الله فذلله ، ودبره و صرفه ، وبهذا الأعتبار فالمخلوقون كلهم عباد لله الأبرار منهم والفجار ، والمؤمنون والكفار ،واهل الجنة واهل النار ، اذ هو ربهم كلهم ومليكهم لا يخرجون عن مشيئه وقدرته وكلماته التامة التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر ، كما قال تعالى : ((افغير دين الله يبغون وله اسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها واليه يرجعون)) فهو سبحانه رب العالمين وخالقهم ورازقهم و محييهم و مميتهم ، ولا مالك لهم سواه سواء اعترفوا بذلك او .. انكروا وسواء علموا ذلك او جهلوه ، فانّ اعترف العبد بأن الله ربه

---

(١) سورة آل عمران : ٦٤ .

(٢) انظر العبودية ص ٨ - ٩ .

وخالقه وانه مفتقر اليه عرف العبودية المتعلقة بربوبية الله ، وهذا العبد يسأل ربه ويتضرع اليه و يتوكل عليه ، ومن وقف عند هذه الحقيقة وعند شهودها ، ولم يقم بما أمر الله به من الحقيقة الدينية التي هي عبادته المتعلقة بألوهيته وطاعة امره وامر رسوله ، كان من جنس ابليس واهل النار ولهذا كان عنوان التوحيد : (لا اله الا الله) فلألـه هو الذى يؤلهه القلب بكمال الحب التعظيم والأجلال والاكرام والخوف والرجاء ونحو ذلك .

ومن اكتفى فيها ببعض الأمور دون بعض او في مقام دون مقام او حال دون حال ينقص من ايمانه وولايته لله بحسب ما نقص من الحقائق الدينية [١] .

فالعبادة المطلوبة هي الطاعة الأختيارية المتعلقة بالأوامر والنواهي المطلوبة على السنة الرسل الخالصة من الشرك والأبتداع والهوى .

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن : والمراد بالعبادة التي خلقوا من اجلها هي العبادة الخالصة التي لم يلبسها شرك بعبادة شيء سوى الله كائنا ما كان فلا تصح الأعمال الا بالبراءة من عبادة كل ما يعبد من دون الله ، ولهذا اهلك الله من لم يعبده وحده ولم يقبل ما جاءت به رسله وهذا التوحيد دين الأسلام ، الذى لا يقبل الله من احد دينا سواه وهذا هو الدين الذى بعث الله به رسله وانزل به كتبه وامر الرسل ان يقيموه قال تعالى : ((شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى اوحينا اليك

---

(١) انظر العبودية : (٨ - ١١) .

وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) [1] ، [2]

فيجب ان يعبد الله وحده الخالق لكل ما فى الكون والمالك الكل مملوك والموجد لكل شئ من العدم الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى فليس بمستنكر ان يتوجه العبد بعبادته لله الذى اوجده بعد ان لم يكن شيئا مذكورا واخرجه من ظلمة العدم الى نور الوجود خلقه فى احسن تقويم وصوره فى احسن صورة وعلمه البيان وآتاه العقل والأرادة وسخر الكائنات من حوله خدمة له [3] .

بل المستنكر ان يجحد العبد حق عبودية الله عليه او ان يعبد من دون الله فيصرف حق الله لغيره ، فيتقدم بشتى انواع العبادة والطاعات الى مخلوق ضعيف مثله وعبد مسخر مقهور لسنن الله فى الخلق ، فالله سبحانه وتعالى لم يجعل لأى مخلوق تصرفا مستقلا فى شئون خلقه لا ملك مقرب ولا نبى مرسل ولا عبد من عباد الله الصالحين ،وكذا الجن وسائر البشر وكل ما خلق الله فى هذا الكون ليس لأى منهم فى هذا الوجود ادنى نصيب او شركة ، مع الله فى ملكه .

فالله جل شأنه غنى بذاته وكل من سواه فقير اليه فقرا ذاتيا لا ينفك عنه فليس هو محتاجا الى من يعينه فى تدبير شئون ملكه وخلقه كما قال تعالى : ((قل ادعو الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى

---

(١) سورة الشورى : ١٣ .

(٢) انظر مجموعة التوحيد ص ٩

(٣) انظر العبادة فى الاسلام للقرضاوى ص ١٠٧ - ١٠٨

الأرض و ما لهم فيها من شرك و ما له منهم من ظهير (١) .

فليس من الحق والعدل - و حالهم كما وصف الله - ان يصرف لأى منهم ادنى نصيب من العبادة بينما هم لا يملكون وزن ذرة فى هذا الكون وليست لهم فيه مشاركة ، والله غنى عن مساعدتهم و مؤازرتهم بل ليس فى مقدورهم ذلك .

فلعبادة الله وحده خلق الله الخلق واوجدهم من العدم وامدهم بأسباب الحياة على هذه البسيطة وارسل اليهم رسله وانزل عليهم كتبه لتحقيق هذه الغاية ، وذلك مما يؤكد ان هذا النوع من انواع التوحيد هو اساس الأسلام واول و أهم مطالبه .

.. .. ..

---

(١) سورة سبأ : ٢٢ .

((المبحث الثاني))

في بيان ان توحيد العباد هو الأصل وان الشرك طارئ

لقد تقرر في شرع الله تعالى ان عبادة الأنسان لربه كان اصل مبناها على التوحيد الخالص ، وان ما احدثه البشر من اتخاذ معبودات من دون الله او اشراكها معه في العبادة : انما هو امر طارئ ودخيل على افكار البشر ومعتقداتهم وذلك ان الله تعالى : عندما انزل آدم ابا البشر الى الأرض . . . واستخلفه فيها بين له كيف يعبده وكيف تكون صلته به وقد مضى على ذريته من بعده زمن وهي لا تعرف لها ربا ولا معبودا سوى الله تعالى وحده مما يؤكد ان توحيد الله بالعبادة هو اساس الأسلام واصل الأديان السماوية .

فلما طال عليهم الأمد غيروا وبدلوا وعبدوا الله حسب اهوائهم ووفق ما زينه الشيطان لهم فانحرفوا بذلك عن جادة الصواب الى متاهات الكفر والضلال ، فأرسل الله اليهم رسوله نوحا عليه السلام يدعوهم ويرشدهم الى جادة الحق والصواب فكان اول رسول الى أهل الأرض .

هذا ما تقرر في دين الأسلام وهو ما يعتقده المسلم و يدين الله به وهو ما سوف نتكلم عنه في هذا المبحث انشاء الله تعالى :

ولكن لعله من المناسب قبل ان نبحث الموضوع من الناحية الشرعية ان نتعرض - وبأيجاز - لما يقوله الملاحدة والدهريون واصحاب نظرية التطور عن اصل الأنسان ، والدين و نشأتهم فيما يزعمون .

. .   . .

اصل الانسان والدين في نظر الماديين :-

يقول الماديون : (يعد الأنسان تطورا طبيعيا لمادة او خلية وجدت .. بالصدفة في مكان رطب يساعد على التعفن وتفاعل المادة او الخلية ، تفاعلا كيماويا انتهى هذا التفاعل الكيماوي الى ايجاد الخلية الحية ، فنتجت عنها المخلوقات ومنها الأنسان ، فكان الانسان تطورا طبيعيا لكائنات مرت بمراحل عدة حتى كان حيوانا يمشي على اربع وظل بفعل هذا التطور ينتقل من صورته تلك الى صورته الحالية)[1] .

ويقولون ايضا : ان الدين من صنع الأنسان نفسه وان الدافع اليه خوف الانسان مما حوله من مجاهل الطبيعة او الفائدة الاجتماعية وذلك انه عندما تكون مجتمع انساني شعر بحاجته الى نظام وضرورة ارتباط هذا النظام بقوة عليا تلزم افراد المجتمع بمصالح الجماعة ، ولا صلة للدين بوحي او اية قوة وراء الطبيعة)[2] .

كما يزعمون ايضا : ان مظهر الشرك اقدم من التوحيد وان اول عبادة كانت عبادة القبور على طريقة عبادة الطوطم ، وهو شعار للقبيلة حيث كانت كل قبيلة تتخذ ما يناسبها من المعبودات اما حيوانا واما نباتا ، وعظمت القبور بسبب ما يخبر به الأموات في الرؤا المنامية ، وتكاثرت الآلهة وصلات الأرض وكانت كل قبيلة تفزع الى معبودها لنصرتها وكانت نتائج الحروب القبلية

---

(١) انظر كتاب الأنسان في ظلال الأديان د. عمارة نجيب ص ٣٨ .

(٢) المصدر السابق ص ٤٢ .

ترفع آلهة وتخفض آلهة اخرى وبدأت الآلهة تقل حتى انحصرت فى آلهة كبار حيث اقتصرت الهند على ثلاثة آلهة : البراهما موجد العالم ، وشيفا مهلك العالم ، وفشنو حافظ العالم .

كما ان بلاد فارس اتخذت الهين اثنين الاها للخير والاها للشر وهما : النور والظلام وكذلك الحال بالنسبة لمصر حيث اقتصرت فى عهد اخنتون - فرعون مصر - على معبود اسموه - رع - ورمز واله بقرص الشمس وزعموا انه هو الاله المختفى خلف الشمس وهكذا تدرج الحال حتى اصبح التوحيد آخر مظهر من مظاهر الديانة البشرية

وبالطبع فأن الحامل لهم على ما تقدم بشأن اصل الأنسان ومنشأ الدين هو انكارهم لوجود الخالق سبحانه وتعالى : بحجة ان البحث العلمى لم يوصلهم الى شئ وراء الطبيعة وما لم يصل العلم الى اثباته - فى نظرهم - عدما وباطلا لذا اسندوا وجود المخلوقات - بما فيها الأنسان - الى الطبيعة وراحوا يلتمسون علة ظهور الأديان فى المجتمعات الأنسانية فى شئ غير الوحى وما وراء الطبيعة ... ولم يكن امامهم غير الطبيعة نفسها بما فيها الانسان .(١)

.. ..

---

(١) الأنسان فى ظلال الأديان ص ٢٧ .

كفروا بالخالق وعبدوا المخلوق :

فالماديون ينكرون وجود الخالق عز وجل ،ولما لم يكن فى مقدورهم انكار ما حولهم من المخلوقات بما فيها الانسان نسبوا ايجاده الى شىء اسمه الطبيعة بحجة ان العلم لم يثبت لهم شيئا وراءها وانها هى الموجود المتحرك المؤثر فى الكائنات فعبدوها من دون الله .

ما هى الطبيعة ؟ : وعندما نبحث عن ماهية الطبيعة نجدهم يقولون :

" الطبيعة هى المادة المركبة من عدة عناصر وهى البرودة والحرارة والرطوبة ، واليبوسة ، والمواد المركبة منها) فاذا كان الحال كذلك فأنه من المستحيل ان تكون العناصر اوجدت نفسها فتكون ما يسمى بالطبيعة ، اذ معنى هذا ان تكون الطبيعة اوجدت نفسها ثم اوجدت غيرها من المخلوقات ، ان المادة مفتقرة الى من يوجد عناصرها و يودع فيها خواصها وحينئذ فهى حادثة مخلوقة فكيف ينسب اليها الخلق والتكوين والأبداع والتنظيم؟ وهى مركب حادث وكل حادث مفتقر الى محدث احدثه قطعا : كما قضى بذلك قانون العلمية المسلم به من جميع العقلاء . . اذا فالمحدث للطبيعة هو الله سبحانه و تعالى (١) .

وان اوهن البيوت لبيت العنكبوت :

هذا اوان علمهم الذى يزعمون انه لم يثبت لهم شيئا وراء الطبيعة : لم يعد

---

(١) من كتاب عقيدة المؤمن للشيخ ابى بكر الجزائرى ص ٣٨ -بتصرف .

كونه ظنونا واوهاما فهم لم ولن يحيطوا بمحتويات الكون ولا زالوا يجهلون الكثير والكثير عن الأنسان ونشأته فقد نقل صاحب كتاب الانسان فى ظلال الأديان ما قاله : (هجوطز) احد مشاهيرهم فى كتابه (موجز تاريخ العالم) ومما جاء فيه : ان اقدم ما توصل اليه العلم حتى الآن لمعلومات عن بشر مثلنا فى حدود ثلاثين الف سنة ، وان ما عرفه العلم عن الانسان حتى الآن انما هو قطرة من بحر وان كثيرا مما يتعلق بالأنسان لا زال مجهولا ، وان ما توصل اليه العلم حتى الآن انما هو مجرد استنتاج وتخمين ليس الا .[1]

هذا ما قاله احد مشاهير الماديين من ان ما وصل اليه العلم الذى يتشدق به الماديون ويتلقفه عنهم - بكل اسف - كثير من ابناء المسلمين وبأقرار أهله لا يعد كونه ظنونا واوهاما وتخمينات هى اوهن من بيت العنكبوت وابعد ما تكون عن الحقيقة .

لذا يقول صاحب كتاب الأنسان فى ظلال الأديان معقبا على ما قاله (هجوطز) وعلى الطريقة التى اتبعها الماديون فى بحثهم المادى وعلى النتيجة التى ظهرت حتى الآن يقول " هذا هو الطريق الذى اتبعه الدارسون والباحثون وهذه هى علومهم بشأن الأنسان الأول ، وهذه هى نتائج العلم البشرى : الطريق غير واضح ، ووسائل العلوم غير مضمونه ، او غير كافيه ، والنتيجة الخيال والتخمين كما هو واضح ، فأين العلم ، العلم بمعنى اليقين والحقيقة .[2]

---

(١) انظر الانسان فى ظلال الأديان ص ٤٤-٤٥ .
(٢) المصدر السابق ص ٤٦ .

هذه ادلتنـــــا :

ذلك كان زعمهم الباطل و تلك كانت حجتهم الواهية ، اما نحن المسلميـــن فأن حجتنـــا قوية و متينة وذلك لأنها تستند الى العقل والنقـــل :

اما العقل السليم الذى سلم من المؤثرات الخارجية واعطى الحرية فى التفكير فأنه عندما يمعن النظر فيما حوله من مخلوقات الله مثل السماء و ما تحويـــــه من الكواكب التى لا حصر الهـــا والأرض التى نعيش عليها و ما تحويه من عجائـــب مخلوقات الله من جبال و انهار واشجـــار وهذه الكائنـــات الحية على اختـــلاف انواعهـــا و تبـــاينهـــا بما فيها الانسان وكيف ان لها غرائز و مدارك وأنظمة لحياتهـــا ...... الخ .

ان العقل عندما يتأمل فى هذا الكون الزاخـــر بألاف الادلة لا يسعـــــه الا الايمان بوجود خالق قادر عليم حكيم اعطى كل شئ خلقه ثم هدى وهـــو الله تبارك و تعالى .

ثم هم يعللون عدم ايمانهم بوجود الخالق لعدم رؤيتهم له وهـــذا مجـــرد مكابـــرة منهم فهـــذا العقل البشرى ذاته الذى لم ينكره احد قط وهذه النفـــس البشـــرية لا ينكـــر احـــد انها موجوده مع انهما لم يريا وانما آمن الناس بالعقـــل والنفس لوجـــود آثارهما الدالة عليهـــما .

لذا فانا نقول ان آثار الخالق المتمثلة فى الكون والحياة والنبات دالة علـــى وجـــوده تعالى (1) .

---

(1) انظر عقيدة المؤمن للشيخ ابو بكر الجزائرى بشئ من التصرف .

الأدلـة النقلية الشرعيــــــة :

اما الأدلة النقلية الشرعية فيمكن اخذها مما يلى :-

١ - القرآن الكريم وهو اقوى الأدلة واحكمها حيث تحدى الله به الأنس والجـــن ان يأتوا بمثله وبقاء هذا التحدى قديمـا ،وحديثا ،وسيبقى هــــذا التحدى قائما فى المستقبل حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

- فما يقدمه القرآن من نظم اجتماعية واسس حضارية وامور غيبية تتكشف كـــل حــين امر لا يملك الوصول اليها الا عالم محيط خبير بأسرار الكـــون وخفايا النفس وتاريخ الماضى والحاضر والمستقبل وقد حفظ المسلمـــون القرآن فى صدورهم ابان العهد النبوى ، ثم بعد ذلك دونوه وكتبوه كـــل ذلك بطريق التواتــر ومن غير تحريف ولا تبديــل فهو المعجزة الخالـــدة والحجة البالغـــة .

٢ - صدق صاحب الرسالة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم حيث لـــم يجــر عليه قبـل بعثه كذب بـل لقد اشتهر بين قومه بالصدق والأمانـة حــتى لقبوه (بالأمــين)(١)

- فقد تحدث القرآن الكريم والسنة المطهرة عن وجود الله تبارك وتعالـــى وعن اسمائه وصفاته وربوبيته للخلق بما يقود الى اليقين ويلزم العاقـــل المنصف الاعــتراف به .

- قال تعالى : ((ان ربكم اللــه الذى خلق السموات والأرض فى ستة ايــام

---

(١) الانسان فى ظلال الأديان ص ٢٧ بتصــرف .

؛ ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره الا له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين))[1]

وقال تعالى : ((يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا اله الا هو فأنى توفكون))[2]

واما عن خلق الأنسان ونشأته فأن المسلم يعتقد بأن الله تبارك و تعالى خلق آدم ابا البشر بيده واسكنه جنته وامره بأن لا يأكل من شجرة معينة فأكل منها مخالفا امر ربه فأخرج من الجنة الى الأرض ليبدأ حياة البشرية على ظهرها نبيا كريما كاملا في كل شيء والهمه كيفية معيشته وطريقة عبادته لربه .. وصلته به لم تتقطع .

فقال تعالى في اصل خلق الانسان ونشأة ذريته بعده : ((ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم انشأناه خلقا آخر فتبارك الله احسن الخالقين))[3] .

وقال تعالى : خلق الانسان من صلصال كالفخار و خلق الجان من مارج من نار[4]))

و قال تعالى : ((هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا))[5]

---

(١) سورة الأعراف : ٥٤ .

(٢) سورة فاطر : ٣ .

(٣) سورة المؤمنون ١٢ - ١٤ .

(٤) سورة الرحمن : ٣ - المؤمن ٢٧

(٥) سورة المؤمن : ٦٧ .

كما ان المؤمن يعتقد ايضا بأن الدين مصدره الوحي الألهي الذى انزله خالق هذا الكون . قال تعالى : ((يا أيها الناس اعبدوا ربكم)) (١) وقال : ((وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون)) (٢)

يصاحبه دافع فطرى لدى الأنسان بضرورة اتصاله بقوة عليا تستحق العبادة واللجوء اليها فى احلك الشدائد واصعب الأزمات . . الا وهوالله تبارك و تعالى .

((بحث اصالة التوحيد من الناحية الشرعية))

لقد استعرضنا و بصورة موجزه ما يقوله الماديون : عن نشأة الانسان والدين و عرفنا ان الدافع لهم على ذلك هو انكارهم لوجود الخالق عز وجل متعللين بأن علومهم فى هذا المجال لم تثبت لهم شيئا خارج محيطهم الذى يعيشون فيه كما عرفنا ان الرد عليهم جاء من كتاب الله المعجز فى الفاظه ومعانيه واخباره ومن سيرة صاحب الرسالة الخاتمة محمد صلى الله عليه وسلم بان علومهم التى يحتجون بها لم ولن توصلهم الى شىء يستقرون اليه فيما يزعمونه وكيف انها وبشهادة بعضهم لم تعد كونها ظنونا واوهاما ابعد ما تكون عن الحقيقة .

والآن نرجع الى موضوعناوهو ان عبادة البشر اصل مبناها على التوحيد وان الشرك مظهر طرأ على البشرية بعد قرون فى الفترة ما بين آدم ونوح عليهما السلام .

---

(١) سورة البقرة اية : ٢١.

(٢) سورة الذاريات اية : ٥٦ .

- وذلك حسب ما جاء في شرع الله :

- لقد جاء في كتاب الله الكريم ما يدل على ان الناس كانوا على التوحيد حتى بدأ انحرافهم بسبب ما احدثوه في دين الله من التغيير والتبديل الذى كان اصله الاستحسان البشرى الذى لم يستند الى دليل شرعي ، فانتهز الشيطان الفرصة وبدأ في تنفيذ القسم الذى اخذه على نفسه في اغواء بني آدم . وصرفهم عن طريق الهدى والرشاد الى متاهات الغواية والضلال ولكن الله تدارك البشرية ، بلطفه ورحمته فأرسل الرسل مبشرين ومنذرين فكان نوح عليه السلام اول رسول ارسله الله الى اهل الأرض .

قال تعالى : ((كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين و منذرين))(١) .

وقال تعالى : ((و ما كان الناس الا امة واحدة فاختلفوا))(٢) .

قال ابن كثير رحمه الله : " اخبر تعالى ان هذا الشرك حادث في الناس وكائن بعد ان لم يكن وان الناس كلهم كانوا على دين واحد وهو الاسلام "(٣) .

و قال ابن جرير رحمه الله : " ان الله عز وجل اخبر عباده ان الناس كانوا امة واحدة على دين واحد وملة واحدة .

واستشهد بما اورده عن بعض سلف هذه الأمة في هذا الشأن ومن ذلك ما رواه عن حبر هذه الأمة و ترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : وهو قوله : (كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا

---

(١) سورة البقرة اية : ٢١٣ .

(٢) سورة يونس اية : ١٩ .

(٣) انظر تفسير ابن كثير

فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين[1] .. ومثله عند ابن كثير عن ابن عباس ايضا

كما روى عن قتاده قوله : كانوا على الهدى جميعا فاختلفوا

فبعث الله النبيين مبشرين و منذرين فكان اول نبى بعث نوح .

قال الأمام ابن القيم رحمه الله روى ابن ابى حاتم عن عكرمه عن ابن عباس: كان الناس امة واحدة : كانوا على الأسلام كلهم .

ثم قال ابن القيم وهذا هو القول الصحيح فى الآية ،وهو القول الصحيح عن ابن عباس رضى الله عنه[2] .

<u>شبهة والرد عليها :</u>

هذا ولعل بعض الدارسين والذين يجدون فى أنفسهم ميلا الى بعض ما يقوله الماديون من ان مظهر الشرك سابق على التوحيد :

يحاولون الأستأناس بما يروى عن ابن عباس: ان الناس كانوا كفارا (فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين) وعن الحسن وعطاء : (انهم من موت آدم حتى مبعث نوح امة واحدة على الكفر . والواقع انه ليس فيه حجة لهم و ما روى عن ابن عباس فيما سبق اصح منه سندا و معنى كما قاله ابن كثير ..وقال ابن القيم رحمه الله و اما ما روى عنه ـ اى ابن عباس ـ انهم كانوا كفارا) فهو منقطع عن ابن عباس و ما قيل عن الحسن وعطاء (انهم من موت آدم حتى مبعث نوح امة واحدة على الكفر .. فهو قول ضعيف)[3].

اما الأمام ابن جرير رحمه الله فقد عالج الموضوع معالجة منطقية مبنية على الفهم

---

(١) انظر التفسير .
(٢) انظر اغاثة اللهفان جـ ٢ ص ٢٠٠ .
(٣) انظر اغاثة اللهفان جـ ٢ ص ٢٠١ .

الدقيق للآيتين المتعلقتين بالبحث فيقرر ان اجتماعهم كان على الأيمان اذ لو كان اجتماعهم على الكفر ثم اختلفوا بانتقال بعضهم من الكفر الى الايمان لما توعدهم لأنه توبة الى الله وانابة وهذا اولى بالوعد من الوعيد

فقال رحمه الله : (فأن دليل القرآن واضح على ان الذين اخبر الله عنهم انهم كانوا امةواحدة انما كانوا امة واحدة على الايمان ودين الحق دون الكفر بالله والشرك به وذلك ان الله عز وجل قال فى السورة التى يذكر فيها يونس: وما كان الناس الا أمة واحدة فاختلفوا ، ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون) .

فتوعد جل ذكره على الأختلاف لا على الأجتماع ،ولا على كونهم امة واحدة ، ولو كان اجتماعهم قبل الأختلاف كان على الكفر ثم كان الأختلاف بعد ذلك ، لم يكن الا بانتقال بعضهم الى الأيمان ، ولو كان ذلك كذلك لكان الوعد اولى بحكمته جل ثناؤه فى ذلك الحال من الوعيد لأنها حال انابة بعضهم الى طاعته ،ومحال ان يتوعد فى حال التوبة والأنابة ، ويترك ذلك فى حال اجتماع الجميع على الكفر والشرك [1] .

وبذا ندرك ان القول بأنهم كانوا كفارا .. قول مردود لأنه لم يصح عن ابن عباس وانما الصحيح خلافه واما كون بعضهم قال به فهو قول ضعيف كما قاله ابن القيم و مرجوح بما قاله السلف وهو ايضا قول مخالف لظاهر القرآن كما قال ابن جرير رحمه الله اذ ليس عليه دليل ولذا يسقط الاحتجاج به .

---

(١) التفسير جـ ٢ ص ٣٣٧ .

كيف بدأ الانحراف من التوحيد الى الشرك ؟ :

لقد مر بنا قول ابن عباس رضى الله عنه (كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا ... الخ وقد اختلف فى مقدار القرن من السنين فقيل هو مئة وعشرون سنة ، وقيل هو انقراض الناس الذين يكونون فى زمن واحد ،وقيل مئة وقيل اربعون سنة .

ونحن لا يهمنا تحديد الفترة الزمنية بالسنين ،وانما الذى يهمنا فى هذا البحث هو اثبات امرين :-

الأول : ان التوحيد كان هو الأصل فى عبادة البشر وان الشرك طارئ كما مر معنا .

الثانى : معرفة كيف بدأ الانحراف فى العبادة .. كى يحاول المسلمون ازالة اسباب ذلك الأنحراف الذى لا يزال مسيطرا على معظم بلدان العالم .

فالانحراف بدأ بتعظيم البشر بعضهم بعضا تعظيما يعطيهم اكثر مما يستحقون ، بدأ بتعظيم الموتى من اهل الصلاح والتقوى وذلك بتمييز قبورهم و تتبع آثارهم ونصب الرسوم التى تمثلهم فى مجالسهم التى كانوا يجلسون فيها كى تكون باعثا لهم على الأزدياد من الطاعات لربهم فى مبدأ الأمر وتدرج الحال وتطور الأنحراف حتى عبدت المخلوقات من دون الخالق .

روى البخارى فى صحيحه عن ابن عباس رضى الله عنه فى معنى ما قصه الله عن قوم نوح فى قولهم ...:

(وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسر) .

قال : (ان هذه اسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا اوحى الشيطان الى قومهم ان انصبوا الى مجالسهم التى كانوا يجلسون فيها انصابا ، وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى اذا هلك أولئك ونسى العلم عبدت) [1] .

وقد اوضح الأمام الطبرى : ان هدف قوم نوح من اقامة التماثيل لبعض صالحيهم هو الاقتداء بهم العبادة والأكثار من الأعمال الصالحات .

ولم يدر فى خلدهم ان فعلهم هذا سيكون فى يوم من الأيام سببا فى كفر اكثر الناس وضلالهم .

قال رحمه الله : عن معبودات قوم نوح : كانوا قوما صالحين من بنى آدم وكان لهم اتباع يقتدون بهم فلما ماتوا قال اصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم لو صورناهم كان اشوق لنا الى العبادة اذا ذكرناهم فصوروهم فلما ماتوا جاء آخرون دب اليهم ابليس فقال انما كانوا يعبدونهم وبهم كانوا يسقون المطر فعبدوهم [2] .

ومن ثم تناقلت الأجيال اسباب الكفر والضلال وانتشرت المعبودات من دون الله فى كل زمان ومكان حتى وصلت الى جزيرة العرب الذين كانوا على ملة ابراهيم عن طريق عمرو بن يحيى .

قال كما فى البخارى عن ابن عباس (صارت الأوثان التى فى قوم نوح فى العرب

---

(١) انظر الفتح (٨/٦٦٧) كتاب التفسير .

(٢) انظر التفسير ج ٢٩ ص ٩٩ .

بعـــد) وسواء كانت هي تلك الأصنـــام او اصنام بأسماءها وهذا اقرب لعهد الزمن (١) فالنتيجـة واحدة .

وقال ابن جرير في معنى قوله (واضلوا كثيرا) يعنى الأصنام التى اتخذوها اضلوا بها خلـقا كـثيرا فأنه استمـرت عبادتها في القرون الى زماننا هذا في العرب والعجـم وسائر صنوف بنى آدم وقد قال الخليل عليه السلام : (واجنبنى وبـــنى ان نعـبد الأصنـــام) .

فالشـيطان عدو لـبنى آدم وحريص على اضلالهم وابعادهم من رحمة اللـــه فهـو يسعى الى تحقيق هدفه عن طريق مزج الحق بالباطـل واحداث ما قـــد تستحـسنه العقول الضعيفه في دين الله وشرعـــه .

والواقع ان هذا الموضوع جدير بالتوسع والزيادة لما له من اهمية في واقـــع المسـلمين اليوم غير انه لماكان موضوع هذا البحث الوصول الى معرفة سبق .. التوحـــيد على مظهـر الشـرك في العبادة فقـــد رأيت ارجاء التوسع فيه الـــى المباحث المتعلقة بالشرك .

والله الموفـــــق !

---

(١) انظر الفتح (٨/٦٦٧) كتاب التفســير .

-((المبحث الثالث))-

فى بيان ان الدعوة الى توحيد العبادة اهم وظائف الرسل ومبتدأ دعوة كل رسول الى قومه

ومن الأدلة على ان توحيد الألوهية اساس الأسلام ، كونه محور دعوة الرسل ومبتدأ دعوة كل رسول الى قومه .

فبعد ان انحرفت البشرية عن جادة الحق والصواب وضلت طريق الهداية والنور وتدرج بها الحال الى اتخاذ معبودات من دون الله - كعبادة الكواكب ، والملائكة والجن ،والأحجار ،والأشجار والأموات - ارسل الله رسله لدعوة الخلق الى التزام الغاية التى خلقوا من اجلها وهى عبادة الله وحده والبراءة من كل معبود سواه .

كما قال تعالى : ((ولقد بعثنا فى كل امة رسولا ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت))(١) .

وقوله تعالى : ((رسلا مبشرين ومنذرين لأن لا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل))(٢) .

وقوله : ((وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا))(٣)

فكان كل رسول اول ما يبدأ به هو دعوة قومه ومطالبتهم بأن يكون الله وحده هو معبودهم ومقصدهم ووجهتهم وان لا يصرفوا شيئا من اعمالهم واموالهم لغير

---

(١) سورة النحل : اية : ٣٦ .

(٢) سورة النساء : اية : ١٦٥ .

(٣) سورة الاسراء : اية : ١٥ .

اللـــه وان لا يتوجهـوا فى حالـتى السراء والضراء الا اليه .

ابتداء من دعوة اول رسول بعد حدوث الشرك - وهو نوح عليه الســـلام - وانتهاء بدعوة صاحب الرسالة العامة الخاتمة - محمد صلى الله عليه وآله وسـلم - فأكـبر هدفهم واعظـم مهماتهـم على الأطلاق هو تصحيح العقيدة فى اللــه و تصحـيح الصـلة بين العبد وربه والدعوة الى اخلاص الدين وافراد الله بالعبادة.

فهو سبحانه الخالق القادر الضار النافع المستحق للعبادة وكل ما سواه .. مخـلوق ضعيف هو فى امس الحاجة الى عون الله وفضـله .

(هذا و عندما نستعرض موكب انبياء الله ورسله عليهم الصلاة والســلام و مواقفهـم مع اقوامهـم اول ما تطالعنا قصة نوح عليه السلام و صراعه المريـر مع قومه وكيف انه مكث فيهـم الف سنة الا خمسين عاما وهو يدعوهم الى عبادة اللـه وحده ونبذ عبادة الأوثان التى احدثها لهم الشيطان فضلوا بعبادتهـم اياهـا) [1] .

فقال تعالى : ((لقد ارسلنا نوحا الى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله مالكـم مـن الــه غيره انى اخاف عليكم عذاب يوم عظيم)) [2] .

غير انهم لم يستجيبوا لدعوته ولم يقبلوا هدى الله الذى ارسل به ، وتواصوا بالكـفر والضلال (ومكـروا مكـرا كبارا ، وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تــذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسـرا)) [3] فلما تمادو فى غيهم اهلكهم اللــه

---

(١) انظر كتاب مصرع الشك والخرافـة .

(٢) سـورة الأعراف آيـة : ٥٩ .

(٣) سـورة نـوح آيـة : ٢١ .

بالطوفان ونجا نوحا واهله والقلة المؤمنة من قومه ، وقيل بعدا للقوم الظالمين .

وهذا هود عليه السلام يبدأ دعوته لقومه بعبادة الله وحده وترك عبادة ما زعموه الهة من دون الله زورا وبهتانا .. (والى عاد اخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره افلا تتقون)[١] .

فرفضوا عبادة الله وحده واصروا على عبادة ما كان يعبدا باؤهم من دون الله واعجبوا بقوتهم ونسوا قوة الله الغالبة ، فأهلكهم الله بريح صرصر عاتيه لم تبق لهم باقية .

(واما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتيه سخرها عليهم سبع ليال وثمانية ايام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم اعجاز نخل خاوية فهل ترى لهم من باقية)[٢] .

وكذلك قال نبى الله صالح لقومه : (يا قوم اعبدوا الله مالكم من آله غيره)[٣] وذكرهم بنعم الله عليهم وحذرهم عبادة غيره ونهاهم عن الفساد فى الأرض وايده الله بالناقة آية على صدقه و فتنة لهم ، ولكنهم استكبروا وعصوا رسول ربهم وعقروا الناقة و تحدوا صالحا بأن يأتيهم بما اوعدهم به من العذاب حينما اعرضوا عن دعوته فحل بهم عذاب الله (فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين)[٤] .

---

(١) سورة الأعراف آية : ٥٦ .

(٢) سورة الحاقة آية : ٦ - ٧ - ٨ .

(٣) سورة الأعراف آية : ٧٢ .

(٤) سورة الأعراف آية : ٨٥

وهذا نبي الله شعيب يقول لقومه : (يا قوم اعبد الله مالكم من اله غيره) [1] . ويأمرهم بأعطاء الحقوق الى اصحابها وينا هيهم عن البخس وعن اضطهاد المؤمنين والأفساد في الأرض و يحذرهم بأن يحل بهم ما حل بقوم نوح او قوم هود او قوم صالح او قوم لوط من عذاب الله العاجل جزاء تكذيبهم انبياءهم ولكنهم اعرضوا عن دعوته وسخروا منه واصروا على معبودات الأباء فحل بهم ما اوعدهم به نبيهم عليه السلام فقال تعالى : ((والى مدين أخاهم شعيبا فقال يا قوم اعبدوا الله وارجو اليوم الأخر ولا تعثوا في الأرض .. مفسدين ، فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين)) [2]

وهذا ابو الأنبياء [3] وخليل الله ابراهيم عليه السلام يعلن دعوة التوحيد في الناس دون مبالاة ويتحدى صناديد الكفر ويحطم آلهتهم المصطنعة والمعبودة من دون الله رافعا لواء التوحيد وحده ، وقد أعلن براءته من معبودات قومه وعابديها ولو كانوا من أقرب الناس اليه ، قال تعالى : (وابراهيم اذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه واطيعون ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون ، انما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون افكا ، ان الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له اليه ترجعون) [4]

---

(١) الأعراف ٨٥ .
(٢) العنكبوت ٣٦ .
(٣) لأن كل من جاء بعده من الأنبياء من ذريته .
(٤) العنكبوت ١٦ - ١٧ .

وقال لقومه أيضا هو واتباعه : (انا براء ا منكم وما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء ابدا حتى تؤمنوا بالله وحده) (١)

وما فتىء القرآن يبدىء ويعيد في قصة ابراهيم عليه السلام مع قومه في مواقف متعددة ، وغيره من الأنبياء مع أقوامهم مما يدل على مدى تظافر دعوة رسل الله الى عبادة الله وحده وعدم الاشراك به .

ومما قاله كليم الله موسى عليه السلام لبني اسرائيل : (انما الهكم الله الذى لا اله الا هو وسع كل شيء علما) (٢) ، وقال عبدالله ورسوله وكلمته عيسى عليه السلام الذى اختلفت فيه النصارى قال لقومه : (قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه فاتقوا الله واطيعون ان الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم) (٣) .

و يوم القيامة عند ما يسأله الله عما زعمته النصارى فيه من كونه اله او ابن الله يتبرأ من دعواهم كما اخبر الله عنه :

((ما قلت لهم الا ما امرتني به ان اعبدوا الله ربي وربكم)) (٤) .

فيصدقه الله لأنه يعلم ما قاله لقومه من الدعوة الى عبادة الله وحده كما قال تعالى :

((هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم)) (٥)

---

(١) الممتحنة : ٤

(٢) طه : ٩٨ .

(٣) الزخرف : ٦٤ .

(٤) المائدة : ١١٧ .

(٥) المائدة : ١١٩ .

وهكذا حال جميع رسل الله مع اقوامهم حيث توافقت و تواطأت دعوتهم على هدف واحد وغاية واحدة وهى عبادة الله وحده كما قال تعالى : ((وما ارسلنا من قبلك من رسول الا نوحى اليه انه لا اله الا انا فاعبدون))[1] ، حتى ختمت الرسالات السماوية ، وكمل البناء الشامخ ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم صاحب الرسالة العامة الباقية ، فكانت رسالته جامعة الرسالات و خاتمة النبوات .

كما قال تعالى : ((ما كان محمد ابا احد من رجالكم ولكن رسول الله و خاتم النبيين))[2] ... و انزلت عليه المعجزة الخالدة : كتاب الله الكريم فنسخ الله به جميع الكتب السالفة (وانزلنا اليك الكتاب مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه) .. الآية[3] .

فهو الآية الكبرى والمعجزة العظمى لمحمد صلى الله عليه وسلم فهو آية لا كالآيات و معجزة لا كالمعجزات فهو ذو صلة و ثيقة بهدف الرسالة والغاية ، منها ، فقد اشتمل على العقائد والعبادات والآداب .. والتشريعات والأخبار والعلوم والغيوب التى حدثت والغيوب التى لا زالت تتكشف للبشرية وصدق الله حيث يقول : ((سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق))[4] .

---

(١) سورة الانبياء : آية : ٢٦ .

(٢) سورة الأحزاب : آية : ٤٠ .

(٣) سورة المائدة آية : ٤٨ .

(٤) سورة فصلت آية : ٥٣ .

فسلك صلى الله عليه وسلم سبيل اخوانه المرسلين و بدأ دعوته بتوحيد الله بالعبادة وعدم الأشراك به واخراج الناس من ظلمات الوثنية الى عقيدة التوحيد الخالصة مؤيدا دعوته بالحجة والبرهان بذكر ما قصه الله في القرآن من انباء الأقوام الذين كانوا يعبدون الأوثان وبما كانت تعظهم به رسلهم عليهم السلام وما حل بهم من العذاب العاجل قبل الآجل جزاء اعراضهم عن دعوة الأنبياء .

مبينا لهم صلى الله عليه وسلم ان معبوداتهم من دون الله لا تنفع ولا تضر وانها لا تستحق ان يصرف لها شيء من العبادة وانها مجرد موروثات عن الآباء ما امر الله بعبادتها قال تعالى : ((افرأيتم اللات والعزى و مناة الثالثة الأخرى الكم الذكر وله الأنثى تلك اذا قسمة ضيزى ان هي الا اسماء سميتموها انتم وآباؤكم ما انزل الله بها من سلطان)) (١) .

وقال جل ذكره : ((وان المساجد لله فلا تدعوا مع الله احدا)) (٢)

وقوله : ((قل انما ادعو ربي ولا اشرك به احدا ، قل اني لا املك لكم ضرا ولا رشدا ، قل اني لن يجيرني من الله احد ولن اجد من دونه ملتحدا)) (٣) .

وقال تعالى : ((قل اني امرت ان اعبد الله مخلصا له الدين ، وامرت لأن اكون اول المسلمين ، قل اني اخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم ، قل الله اعبد

---

(١) سورة النجم آية : ٢٢ .

(٢) سورة الجن آية : ١٨ .

(٣) سورة الجن آية : ٢٠ - ٢٢ .

مخلصا له دينى ، فاعبدوا ما شئتم من دونه قل ان الخاسرين الذين خسروا انفسهم واهليهم يوم القيامة الا ذالك هو الخسران المبين)) (١)

فمكث صلى الله عليه وسلم زمنا طويلا وهو لا يهتم بشىء اهتمامه بتثبيت هذا الأساس و ترسيخ هذا المعنى فى نفوس قومه و من هم حول مكة والوافدين اليها من العرب حيث كان صلى الله عليه وسلم يعرض دعوته على الحجاج .. والتجار وغيرهم رجاء تقبلهم لها والأيمان برسالته صلى الله عليه وسلم وقد ناله من قومه ـ صلى الله عليه وسلم ومن غيرهم اذا كثيرا وهو صابرا محتسبا و اثقا من نصر الله له ... فرموه بالجنون والسحر والكهانة ، ثم انه صلى الله عليه وسلم ذهب الى الطائف لعرض دعوته على اهلها فلم يكرموا وفادته بل لم يسلم من اذاهم وردوا عليه ردا سيئا اثر فى نفسه صلى الله عليه وسلم مما جعله يشكو امره و جرأة الناس عليه و اعراضهم عن دعوته الى الله الذى ارسله وكلفه بأبلاغ ما انزل اليه فيقول صلى الله عليه وسلم فى ساعة حزن واسى و ضراعة لا نظير لها : (اللهم اليك اشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس يا ارحم الراحمين ، انت رب المستضعفين وانت ربى الى من تكلنى الى بعيد يتجهمنى (٢) ام الى عدو ملكته امرى ، ان لم يكن بك غضب على فلا ابالى ولكن عافيتك هى اوسع لى ، اعوذ بنور وجهك الذى اشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من ان تنزل

---

(١) سورة الزمر الآيات : ١١ - ١٥

(٢) يتجهمنى: استقبله بوجه كريه .

بى غضبك او تحل على سخطك لك العتبى حتى ترضى لا حول ولا قوة الا بك) [1] .

غير ان هذه البادرة من ثقيف لم تثنه صلى الله عليه وسلم عن الاتصال بقبائل العرب فى مواسم الحج بمنى وغيرها فيأتيهم فى منازلهم فيعرض عليهم فيقول لهم : (يا بنى فلان انى رسول اليكم آمركم ان تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وان تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد وان تؤمنوا بى وتصدقوا بى و تمنعونى حتى ابين عن الله ما بعثنى به [2] .

ويقف صلى الله عليه وسلم فى سوق ذى المجاز وينادى فى الناس قائلا لهم : (يا ايها الناس قولوا لا اله الا الله تفلحوا [3] .

واستمر صلى الله عليه وسلم على دعوة الناس الى هذا النوع من التوحيد اى توحيد الله فى العبادة وعدم الأشراك به ـ حتى اظهره الله ونصره رغم ما عترضه من عقبات وواجهه من صعوبات .

وهكذا تدرك ان دعوة رسل الله جميعا انما تهدف بالدرجة الأولى الى غاية واحدة ومقصد واحد وهو : ان لا يعبد و يطاع فى الوجود الا الله ولا شك ان هذا من اعظم الأدلة على كون توحيد العبادة اساس الأسلام واصل الملة وان ما عداه من سائر شرائع الأسلام تبع لهذا الأصل العظيم.

---

(١) انظر البداية والنهاية لأبن كثير ج ٣ ص ١٣٦ والسيرة لأبن هشام ج١ص ٤٢٠

(٢) انظر البداية والنهاية لأبن كثير ج ٣ ص ١٣٨ والسيرة لابن هشام ج١ص٤٢٣ .

(٣) البداية والنهاية ، لابن كثير ج ٣ ص ١٣٨ .

((المبحث الرابع))

في بيان ان توحيد العبادة اول ما يدعى اليه العبد واولى مهمات الداعية

و مما يؤكد ان توحيد العبادة اساس الأسلام وقاعدته التي تقوم عليها اعماله انه بالأضافة الى ما تقدم فقد كانت الدعوة اليه والى الألتزام بما تعنيه كلمة (لا اله الا الله) اول مطالبه صلى الله عليه وسلم في مكاتباته و مبايعته و اول وصاياه لكل رسول يبعثه وصاحب لواء يعقده .

كما ورد في كتابه صلى الله عليه وسلم الذى بعث به الى هرقل عظيم الروم يدعوه فيه و قومه الى الأسلام : (من محمد عبد الله ورسوله الى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى اما بعد ؛ فأني ادعوك بدعاية الأسلام اسلم تسلم يؤتك الله اجرك مرتين [١] فأن توليت فأن عليك اثم الأريسيين [٢] .

(و يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ان لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله ، فأن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) [٣] .

ويظهر ذلك جليا في قصة مقابلة ابي سفيان رضى الله عنه لهرقل و اجوبته على الأسئلة التي طرحها عليه وكان منها سؤاله عما يقوله رسول الله صلى الله عليه وسلم لقومه ويدعوهم اليه قال ابو سفيان : " يقول اعبدوا الله

---

(١) لأيمانه بنبيه ثم بمحمد صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى : (اولئك يؤتون اجرهم مرتين) .

(٢) الفلاحين والحراث .

(٣) انظر الفتح جـ ١ ص ٣٢ كتاب بدء الوحى .

ولا تشركوا بـه شيئا واتركـوا ما يقول آباؤكـم ") [(١)]

ولذا فأنه صلى الله عليه وسلم لما بعث معاذا رضى الله عنه الى اليمن وكان فيها قوم اهل كتاب امره اولا بدعوتهم الى تحقيق ماتعنيه شهادة : (لا الـــه الا اللـه) وان يخلصوا العبادة للـه وحـده فأذا ما قبلوا ذلك واستجابـــوا لـه دعاهـم الى بقية مطالب الأسـلام .

روى البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن ابن عباس رضى الله عنهما ان رســول اللـــه صلى الله عليه وسلم لما بعث معاذا الى اليمن قال انك تأتى قومـــا من اهل الكتاب فادعهـم الى شهادة ان لا اله الا الله - وفى رواية : " فليكن اول ما تدعوهم اليه عبادة الله عز وجـل " - وانى رسول الله فأن هم اطاعوا لذلـــك فأعلمهـــم ان الله افـترض عليهـم خمس صلوات فى كل يوم وليلة فأن هم اطاعـوا لذلك فأعلمهـــم ان اللـــه افترض عليهـم صدقة تؤخذ من اغنيائهم فترد علـــى فقرائهـــم فأن هم اطاعوا لذلك فأياك وكرائـم اموالهـم واتق دعوة المظلوم فأنـــه لـيس بينها وبين الله حجاب) [(٢)] .

ومعلوم ان اهل الكتاب يقولون لا اله الا الله لكنهم لما لم يلتزموا بما دلـــت عليه امر معاذا رضى الله ان يبدأ دعوته اياهم الى تحقيق معنى هذه الكلمة والالـتزام بما تعنيه الشهادتان لأنهما الأصل الذى يقوم عليه بقية اعمال الأسـلام

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن فى قرة عيون الموحدين : وكانوا يقولونهـــا

---

(١) الفتح جـ ١ ص ٣٢ كتاب بدء الوحـى .

(٢) الفتح جـ ١٣ كتاب التوحيد ص ٣٤٧ و النووى جـ ١ ص ١٩٦ - ١٩٧ .

اى شهادة ان لا اله الا الله - لكنهم جهلوا معناها الذى دلت عليه من اخلاص العبادة لله وحده وترك عبادة ما سواه ، فكان قولهم : لا اله الا الله لا ينفعهم لجهلهم بمعنى هذه الكلمة ، كحال اكثر المتأخرين من هذه الأمة فانهم كانوا يقولونها مع ما كانوا يفعلونه من الشرك بعبادة الأموات والغائبين والطواغيت والمشاهد فيأتون بما ينافيها فيثبتون ما نفته من الشرك باعتقادهم وقولهم وفعلهم و ينفون ما اثبتته من الاخلاص كذلك ...[1] الخ " كلامه رحمه الله"

وفى امره صلى الله عليه وسلم لمعاذ : بالبداءة بالدعوة الى اخلاص العبادة لله اولا فاذا ما اقروا بذلك دعاهم الى بقية مطالب الاسلام دليل على ان المشرك لا يدعى الى بقية اركان الاسلام الا اذا وحد الله بالعبادة ، وانه لا يقبل منه عمل ما دام مشركا لأن الاسلام شرط لصحة العبادة .

كما قال تعالى : ((وقدمنا الى ماعملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا))[2] .

هذا وقد فهم بعضهم من قوله صلى الله عليه وسلم : (فادعهم الى شهادة ان لا اله الا الله فأن هم اطاعوا لذلك فاعلمهم .... الخ فهم بعضهم من هذا ان الكفار غير مطالبين بفروع الشريعة ، والواقع ان هذا الفهم مخالف لما يدل عليه اخباره تعالى عن المشركين وقد سئلوا عن الأسباب التى أوجبت لهم دخول النار فكان جوابهم كما قال تعالى : ((لم نك من المصلين

---

(١) مجموعة التوحيد ص ٣٦ .

(٢) سورة الفرقان آية : ٢٣ .

ولم نك نطعم المسكين وكنا نخوض مع الخائضين ، وكنا نكذب بيوم الدين حتى اتانا اليقين) (١) .

فهذا دليل على انهم مطالبون بشرائع الاسلام ويعاقبون على تركها غير انه لا يقبل منهم فعلها الا بعد الاتيان بالشهادتين كما سبق ،قال الامام الشوكاني في معنى قوله تعالى : ((قالوا لم نك من المصلين ،ولم نك نطعم المسكين ، قيل وهذان محمولان على الصلاة الواجبة والصدقة الواجبة لأنه لا تعذيب على غير الواجب ثم قال : وفيه دليل على ان الكفار مخاطبون بالشرعيات (٢) .

وقال الامام النووي واستدل به - اى قوله فأن هم اطاعوا لذلك = بعضهم على ان الكفار ليسوا بمخاطبين بفروع الشريعة من الصلاة والصوم والزكاة وتحريم الزنا ، ونحوها لكونه صلى الله عليه وسلم قال : فأن هم اطاعوا لذلك فأعلمهم ان عليهم ....) فدل على انهم اذا لم يطيعوا لا يجب عليهم ، ثم قال : وهذا استدلال ضعيف فأن المراد اعلمهم انهم مطالبون بالصلوات وغيرها في الدنيا والمطالبة في الدنيا لا تكون الا بعد الاسلام وليس يلزم من ذلك ان لا يكونوا مخاطبين بها يزاد في عذابهم بسببها في الآخرة ولأنه صلى الله عليه وسلم رتب ذلك في الدعاء الى الأسلام وبدأ بالأهم فالأهم الا تراه بدأ صلى الله عليه وسلم بالصلاة قبل الزكاة ؟ ولم يقل احد انه يصير مكلفا بالصلاة دون الزكاة والله اعلم (٣)

---

(١) سورة المدثر اية (٤٣ - ٤٧) .

(٢) كتاب التفسير

(٣) النووي شرح صحيح مسلم جـ ١ ص ١٩٨ .

الامر بعبادة الله وحده اول بنود المبايعة:

هذا وان مما يؤكد اهمية هذا النوع من التوحيد ان رسول الله صلى الله عليه وسلم جعله فى مقدمة الأمور التى كان يأمر اصحابه بمبايعته عليها وذلك لترسيخ هذا المعنى فى نفوسهم ولتكون الصلة به رشيقة مدى الحياة .

روى الأمام البخارى فى صحيحه عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :- وحوله عصابة من اصحابه - " بايعونى على ان لا تشركوا بالله شيئا ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين ايديكم وارجلكم ، ولا تعصوا فى معروف .. فمن وفى منكم فأجره على الله ومن اصاب من ذلك شيئا ثم ستره الله عز وجل فهو الى الله عز وجل ان شاء عفا عنه وان شاء عاقبه : فبايعناه على ذلك[١] .

والشاهد فيه قوله صلى الله عليه وسلم: (بايعونى على ان لا تشركوا بالله شيئا) فهذه مجموعة من المنهيات امر صلى الله عليه وسلم اصحابه .. بمبايعته على عدم اقتراف شيء منها وكان فى مقدمتها النهى عن الشرك الذى هو ضد التوحيد فبلانتهاء عن الشرك واداء العبادة لله وحده يكون العبد موحدا و تصبح عبادته خالصة لله مقبولة ، عنده ويثاب صاحبها عليها .

و روى البخارى ايضا عن ام عطية رضى الله عنها قالت : (بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ علينا : (لا يشركن بالله شيئا) الحديث[٢] .

---

(١) الفتح جـ ١ ص ٦٤ كتاب الأيمـان .

(٢) الفتح جـ ٨ ص ٦٤٧ باب اذا جاءك المؤمنات يبايعنك) .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : كان النبى صلى الله عليه وسلم يبايع النساء بالكلام بهذه الآية (لا يشركن بالله شيئا)[1] .

وهذا بيان لقوله تبارك وتعالى: ((يا ايها النبى اذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ان لا يشركن بالله شيئا ، ولا يسرقن ، ولا يزنين ، ولا يقتلن اولادهن ، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين ايديهن وارجلهن ولا يعصينك فى معروف فبايعهن واستغفرلهن الله ان الله غفور رحيم)[2]

وروى البخارى ومسلم فى صحيحهما عن ابى ايوب رضى الله عنه ان اعرابيا عرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى سفر فأخذ بخطام ناقته او بزمامها ثم قال : يا رسول الله او يا محمد : اخبرنى بما يقربنى من الجنة و ما يباعدنى من النار ، فكف النبى صلى الله عليه وسلم ثم نظر فى اصحابه ثم قال : وفق او لقد هدى قال كيف قلت قال فأعاد فقال النبى صلى الله عليه وسلم : تعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصل الرحم ، دع الناقة) .. وفى رواية وتصوم رمضان[3] .

فقد صدر صلى الله عليه وسلم جوابه للسائل بقوله : (تعبد الله ولا تشرك به شيئا) وهو جواب يحمل معنى الشرط اى ان كنت تريد دخول الجنة فعليك ان تعبد الله وحده ولا تشرك معه احدا من خلقه ثم اتبع ذلك بالأعمال كالصلاة والزكاة وغيرها من الأمور التى تقرب من الجنة و تباعد من النار .

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٢٠٣ باب بيعة النساء .

(٢) سورة الممتحنة آية : ١٢

(٣) الفتح جـ ٣ ص ٢٦١ كتاب الزكاة
_ النووى جـ ١ ص ١٧٢ - ١٧٣ باب بيان الايمان الذى يدخل به الجنة .

مشروعية القتال لمن لم يقبل شهادة ان لا اله الا الله :

واذا لم يستجب المدعوون بالمكاتبة ، والقول ، وبعث البعوث ، والمجادلة الحسنة فقد شرع الله لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم : ان يسلك في دعوته اسلوبا آخر وهو اسلوب القتال والجهاد لأزاحة كل من يقف في وجه الدعوة الى توحيد الله في العبادة واخلاص العمل له ، واخراج العباد من عبادة العباد الى عبادة رب العباد كما قال تعالى : ((وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله)) [1] .. قال ابن عباس وقتادة وغيرهما : " الفتنة : الشرك وما تابعه من اذى المؤمنين [2] " وروى البخاري ومسلم في صحيحهما : عن ابي هريرة رضي الله عنه قال : " لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم واستخلف ابو بكر بعده وكفر من كفر من العرب قال عمر بن الخطاب لأبي بكر (رضي الله عنهما) كيف تقاتل الناس ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم امرت ان اقاتل الناس حتى يقولوا : لا اله الا الله ... الحديث " [3] .

وعنه ايضا رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " امرت ان اقاتل الناس حتى يشهدوا ان لا اله الا الله ويؤمنوا بي وبما جئت به فاذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم واموالهم الا بحقها وحسابهم على الله " [4] .

فهذه ادلة واضحة على مشروعية مقاتلة من لم يقبل دعوة التوحيد على التفصيل المعروف بالنسبة لأهل الكتاب - وقد قام صلى الله عليه وسلم بانفاذ امر ربه وقاتل

---

(١) سورة الأنفال آية : ٣٩ .

(٢) انظر تفسير القرطبي .

(٣) الفتح جـ ٣ ص ٢٦٢ وكتاب الزكاة ، والنووي جـ ١ ص ٢٠٦ .

(٤) الفتح جـ ٦ ص ١١٢ كتاب الـ... ، والنووي جـ ١ ص ٢١٠ .

الكفار والمعاندين بنفسه كما هو معلوم من حروبه صلى الله عليه وسلم وغزواته ، وارسل السرايا وجهز الجيوش لدعوة الناس الى توحيد العبادة والاقرار بشهادة ان لا اله الا الله والايمان برسالته صلى الله عليه وسلم

انه صلى الله عليه وسلم

فعن سهل بن سعد رضى الله عنه قال يوم خيبر : لأعطين هذه الراية غدا رجلا ، يفتح الله على يديه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ، قال فبات الناس يدوكون[1] ليلتهم : ايهم يعطاها ؟ فلما اصبح الناس غدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم يرجوا ان يعطاها ، فقال : اين على بن ابى طالب ؟ فقيل : هو يا رسول الله يشتكى عينيه قال فأرسلوا اليه فأتى به فبصق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عينيه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع ، فأعطاه الراية ، فقال على يا رسول الله اقاتلهم حتى يكونوا مثلنا فقال انفذ[2] على رسلك[3] حتى تنزل بساحتهم[4] ثم ادعهم الى الاسلام ، واخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه ، فوالله لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من ان يكون لك حمر النعم[5] [6]) وعند مسلم عن ابى هريرة رضى الله عنه قال : فسار على شيئا ثم وقف ولم

---

(١) باتوا فى اختلاط واختلاف كل يتمنى ان يكون ذلك الرجل .

(٢) اى امضى .

(٣) اى على مهلك .

(٤) اى قرب دورهم ومنازلهم .

(٥) اى خيار الابل ، وكانت العرب ولا زالت تعجب وتتفاخر بهذا النوع من الابل وقد كان يضرب بها المثل فى نفاسة الشىء .

(٦) انظر الفتح جـ ٧ ص ٤٧٦ من كتاب المغازى .

يلتفت فصرخ [١] يا رسول الله على ماذا اقاتل الناس ؟ قال قاتلهم حتى يشهدوا ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله [٢] .. الخ الحديث

وروى الأمام مسلم ايضا عن سليمان بن بريدة عن ابيه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا امّر اميرا على جيش او سرية [٣] اوصاه فى خاصة نفسه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرا ثم قال : اغزوا باسم الله فى سبيل الله قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تغلوا [٤] ، ولا تغدروا [٥] ، ولا تمثلوا [٦] ،ولا تقتلوا وليدا [٧] [٨]

ففى قوله صلى الله عليه وسلم : (امرت ان اقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله) وقوله - فى رواية البخارى - لعلى رضى الله عنه : (ثم ادعهم الى الأسلام) وهو المقصود بالشهادتين كما هو مصرح بذلك فى رواية مسلم قال : (قاتلهم حتى يشهدوا ان لا اله الا الله) ... الحديث

وهذا المعنى ايضا ينطبق على حديث بريده عن ابيه : (قاتلوا من كفر بالله) اى من لم يوحد الله واشرك معه غيره فى العبادة .

---

(١) اى صاح بصوت مرتفع يسأل الرسول صلى الله عليه وسلم على اى شئ يقاتل عدوه .

(٢) النووى جـ ١٥ ص ١٧٦ كتاب فضائل الصحابه .

(٣) هى القطعة من الجيش فى حدود اربعمائة تخرج منه وترجع اليه سميت بذلك لأنها تسرى بالليل و تختفى بالنهار .

(٤) الغلول : اخفاء شئ من الغنيمة .

(٥) الغدر : نقض الاتفاق بدون سبب او اعلام للطرف الاخر .

(٦) كقطع الأنف وفقئ العين ونحو ذلك .

(٧) الصبيان الذين لا دور لهم فى القتال .

(٨) نووى جـ ١٢ ص ٣٧ .

ففى هذه الأحاديث وماكان فى معناها : دلالة واضحة على مشروعية القتال من اجل الأقرار بشهادة التوحيد وافراد الله بالعبادة وعدم الأشراك به .

الأمر الذى يؤكد مدى اهمية هذا النوع من انواع التوحيد واعتباره الأساس والأصل الذى بنيت عليه جميع شرائع الأسلام بل والشرائع السماوية السالفة .

تنبيه :

هل يغار على الكفار والمشركين قبل تبليغهم الدعوة ؟ :

فيه ثلاثة اقوال :

الأول : يجب الأنذار مطلقا سواء بلغتهم الدعوة او لم تبلغهم .

الثانى : لا يجب الأنذار سواء بلغتهم الدعوة اولم تبلغهم .

الثالث : يجب الأنذار ان لم تبلغهم الدعوة ولا يجب ان بلغتهم لكن يستحب

والذى يظهر من سيرته صلى الله عليه وسلم فى بعثه البعوث وارساله السرايا ان الدعوة الى الأسلام والحرص على هداية الناس بالحجة والبرهان والترغيب والترهيب : تسبق الدعوة اليه بالجهاد والقتال كما جاء فى حديث بعث معاذ الى اليمن ،وقوله صلى الله عليه وسلم لعلى بن ابى طالب رضى الله عنه عندما جهزه واعطاه الراية لفتح خيبر : (انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم الى الأسلام واخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه ، فوالله لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خيرلك من ان يكون لك

حمر النعم) .. رواه البخاري (١) . الى غير ذلك مما ورد في هذا الموضوع اما من بلغته ولم يستجب واصر على شركه وكفره ، فأنه يغار عليه ويقاتل بدون سابق اعلام وانذار .

روى الأمام مسلم في صحيحه عن ابن عوان قال : كتبت الى نافع اسأله عن الدعاء قبل القتال قال فكتب الى : انما كان ذلك في اول ، قد اغار رسول الله صلى الله عليه وسلم على بني المصطلق وهم غارون وانعامهم تسقى على الماء فقتل مقاتلتهم وسبى سبيهم .... (٢) الخ الحديث .

قال النووي في معرض كلامه على هذا الحديث : وفي هذا الحديث جواز الأغارة على الكفار الذين بلغتهم الدعوة من غيرانذار بالأغارة ،ثم قال بعد ذكر الأقوال المتقدمة في هذه المسألة وقد رجح القول بوجوب الأنذار ان لم تبلغهم الدعوةوعدم ايجابه ان بلغتهم لكن يستجب قال : وهذا هو الصحيح وبه قال نافع مولى ابن عمر والحسن البصري والثوري والليث والشافعي وابو ثوروابن المنذر والجمهور قال ابن المنذر وهو قول اكثر اهل العلم وقد تظاهرت الأحاديث الصحيحة على معناه فمنها ، هذا الحديث ، وحديث قتل كعب بن الأشرفو حديث قتل ابي الحقيق) (٣) .

وبهذا ندرك مدى منزلة واهمية هذا النوع من انواع التوحيد في حياة الفرد والجماعة والأمة جمعاء ، فعبادة الله وحده ونفي كل شريك له اول واجبات العباد واساس سعادتهم في العاجلة والآجله .

---

(١) الفتح جـ ٧ ص ٤٧٦ من كتاب المغازي

(٢) النووي جـ ١٢ ص ٣٦ .

(٣) انظر النووي جـ ١٢ ص ٣٦ .

﴿(المبحث الخامس)﴾

افتتح القرآن وختم بتوحيد العبادة

ولأهمية هذا القسم - توحيد العبادة - من اقسام التوحيد ، ومن الأدلة على كونه اساس الأسلام : فقد افتتح الله القرآن الكريم و ختمه بتوحيد العبادة فقال تعالى فى مستهل كتابه العزيز مبينا لعباده انه هو وحده المحمود على كل حال و معرفا لهم بنفسه و آمرا لهم بالتوجه اليه بجميع انواع العبادة القولية والفعلية لأنه هو الههم واليه ايابهم و عليه حسابهم فقال تعالى :
(الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين اياك نعبد واياك نستعين) .

فأوضح سبحانه ان جميع انواع العبادة من صلاة وزكاة ، وصيام ، وحج لا يجوز صرف شئ منها لغير الله ، وكذا العبادات الأخرى التى يأمل العبد بواسطتها جلب منفعة او دفع مضرة كالنذر والدعاء ، والأستعانه وسائر العبادات المندرجة تحت هذا المعنى لا يجوز صرف شئ منها لغير الله فلأستعانه فى قوله : (واياك نستعين) : عنوان شامل لجميع انواع العبادة التى تكون من هذا الباب ، فعلى المسلم ان لا يصرف شيئا من جزئيات او افراد هذين النوعين من انواع العبادة لغيرالله من مخلوقاته .

فأن قوله : (اياك نعبد واياك نستعين) : عهد بين العبد وربه يلتزم العبد بموجبه بأداء ما كلف به من انواع العبادة لله وحده ، فأذا ما وفى العبد بهذا العهد وقام بهذا الالتزام و بالكيفية المشروعة ، فقد وعده الله بأعطائه سئواله . . فعن ابى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : قال الله تعالى : قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ولعبدى

ما سأل فأذا قال العبد الحمد لله رب العالمين قال الله حمدني عبدي ،واذا قال الرحمن الرحيم قال الله تعالى اثنى على عبدي واذا قال مالك يوم الدين قال : مجدني عبدي ،فأذا قال : اياك نعبد واياك نستعين ـ قال هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل ،فاذا قال : اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ،قال : هذا لعبدي ولعبدي ما سأل [1] ..

قال الأمام ابن القيم رحمه الله : وسر الخلق و الأمر ، والكتب والشرائع ،والثواب والعقاب انتهت الى هاتين الكلمتين ـ اياك نعبد واياك نستعين ـ وعليهما مدار العبودية والتوحيد حتى قيل : انزل الله مئة كتاب واربعة كتب جمع معانيها في التوراة والأنجيل ، والقرآن ، وجمع معاني هذه الكتب الثلاثة في القرآن و جمع معاني القرآن في المفصل ، وجمع معاني المفصل في الفاتحة ومعاني الفاتحة : في : (اياك نعبد واياك نستعين) وهما الكلمتان المقسومتان بين الرب وبين عبده نصفين فنصفها له تعالى وهو : (اياك نعبد) ونصفها لعبده وهو : (اياك نستعين) [2] .

وقال تعالى في اول المصحف ايضا وفي اول نداء يوجه للناس بعبادة الله وحده الذي خلقهم وخلق من قبلهم وانعم عليهم بصنوف النعم التي لا تحصى ((يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون)) [3]

---

(١) رواه الأمام مسلم ـ انظر النووي جـ ٤ ص ١٠٢ باب وجوب قراءة الفاتحة ..الخ .

(٢) انظر مدراج السالكين جـ١ ص ٧٤ .

(٣) سورة البقرة آية : ٢١ .

ففى بداية القرآن الكريم بهذا المقصد العظيم توحيد العبادة ـ وبهذا النداء الأول من نوعه ،والموجه للناس كافة دلالة على ان توحيد الألوهية اساس الأسلام واصل الملة ، وفيه اشارة بأن على التالى والسامع لكتاب الله ان يهتم بهذا المعنى ، اذ ان جميع ما سوف يأتى عليه التالى والسامع داخل تحت هذا المقصد العظيم والمطلب العالى .

هذا و كما افتتح القرآن بتوحيد العبادة فقد ختم به كذلك كما فى المعوذتين وفى ذلك اشارة والزام للعبد بأن توحيد العبادة لازم له فى مبدأ امره وآخره كما قال تعالى : ((قل ان صلاتى ونسكى ومحياى و مماتى لله رب العالمين)) .

فقد بين سبحانه فى بداية القرآن بأنه هو رب الناس ،و مالكهم ،والاههم وكذلك ختم بهذا المعنى فقال تعالى ((قل اعوذ برب الفلق من شر ما خلق و من شر غاسق اذا وقب ومن شر النفاثات فى العقد ومن شر حاسد اذا حسد ، وقال تعالى ((قل اعوذ برب الناس ملك الناس اله الناس من شر الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس)) .

" فهذه الصفات الثلاث من صفات الرب عز وجل : الربوبية ، والملك ، والألهية تثبت بأن الله رب كل شىء ،ومليكه ،والهه ،فجميع الأشياء مخلوقه له مملوكة فأمر المستعيذ ان يتعوذ بالمتصف بهذه الصفات"(1)

فافتتاح القرآن وختمه بتوحيد الألوهية دلالة واضحة على ان كل ما هو واقع بين البداية والنهاية من القران الكريم يعبر بمجموعه عن غاية واحده ومطلب واحد الا وهو عبادة رب هذا الكون ،ومالكه و الهه ،والبراءة من كل

---

(1) انظر تفسير بن كثير

معبود سواه .

(فانّ القرآن اما خبر عن الله واسمائه وصفاته ،وهو التوحيد العلمي الخبري).

واما دعوة الى عبادته وحده لا شريك له ،وخلع ما يعبد من دونه فهو التوحيد الأرادى الطلبي ،واما امر ونهي والزام بطاعته ، فذلك حقوق التوحيد ومكملاته ،واما خبر عن اكرامه لأهل توحيده وما فعل بهم في الدنيا ،وما يكرمهم به في الآخرة ، وهو جزاء توحيده واما خبر عن اهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال وما فعل بهم في العقبى من العذاب فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد ،فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه وفي شأن الشرك واهله وجزائهم(1)

فهذا مما يؤكد ان توحيد الله في العبادة : اول مطالب الدين ،واساس اعمال الأسلام ، وشرط قبولها عند الله والأثابة عليها ، وان الشرك مع الله مناف للتوحيد ،ومحبط للعمل ، وغير قابل للغفران ،كما قال تعالى :

((ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء)) .

فيجب ان يكون هذا المقصد ملازم للعبد في جميع اقواله وافعاله حتى تكون عباداته صحيحه ،ومقبولة عند الله ، ويثيبه عليها .

---

(1) انظر شرح الطحاوية ص(٢٩ - ٣٠) .

((المبحث السادس))

التوحيد هداية وامن في هذه الحياة وفي الحياة الآخرة

ومن الأدلة على كون توحيد الألوهية اساس الأسلام : هو ان من وحد الله تعالى بجميع انواع العبادة ، ولم يصرف منها شيئا لمن هو دونه ، وسار على هدى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، واخلص لله في نيته ، فقد هدى في هذه الحياة واستجمع اسباب السعادتين العاجلة والآجلة وصار من حزب الله المفلحين وعباده الفائزين الآمنين وقد اشار صلى الله عليه وسلم الى هذا المعنى في مبدأ دعوته لقومه بمكة بقوله : (قولوا : لا اله الا الله تفلحوا) (١) .

فمن قال لا اله الا الله ، وعمل بمدلولها واستوفى شروطها واخلص وجهته لله الذي خلق هذا الكون بمن فيه وما فيه ، والمتصرف بجميع شئون خلقه بلا شريك ولا ظهير ولا معين فقد افلح وفاز ونجا ، وأمن في هذه الحياة على نفسه ودمه وماله وعرضه روى مسلم في صحيحه عن ابي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (امرت ان اقاتل الناس حتى يقولوا : لا اله الا الله فمن قال لا اله الا الله عصم مني ماله ونفسه الا بحقه وحسابه على الله) وفي رواية (حتى يشهدوا ان لا اله الا الله ويؤمنوا بي وبما جئت به) الحديث (٢) .

---

(١) رواه احمد انظر الفتح الرباني (٢٠/ ٢١٦) وابن كثير البداية والنهاية (٣/ ٤١)

(٢) انظر النووي (١/ ٢١٠) باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا اله الا الله محمد رسول الله .

وهو على نور من ربه ، فلا تتجاذبه الأهواء ولا تستهويه سبل الغواية والضلال فليس لأهل القبور ولا للأحجار والأشجار والكواكب ولا لكائن من الخلق هيمنة على قلبه او نصيب من عبادته وكذلك هو آمن فى ذلك اليوم الذى يجمع الله فيه الأولين والآخرين كما قال تعالى :

((الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم اولئك لهم الأمن وهم مهتدون))(1) .

فالمراد بالظلم فى هذه الاية الشرك وليس هو مطلق ظلم العبد نفسه بالمعاصى الأخرى

قال الأمام ابن كثير رحمه الله فى تفسيره لهذه الآية : " اى هؤلاء الذين اخلصوا العبادة لله وحده لا شريك له ولم يشركوا به شيئا هم الآمنون يوم القيامة المهتدون فى هذه الدنيا و الآخرة " .

وقد صح عنه صلى الله عليه وسلم ان المراد بالظلم فى هذه الآية : هو الشرك الذى لا يغفره الله وليس المراد به مطلق الذنب :

فقد روى الامام البخارى فى صحيحه عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : لما نزلت ((الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم)) قلنا يا رسول الله : اينا لا يظلم نفسه ؟ قال : (ليس كما تقولون ، لم يلبسوا ايمانهم بظلم : بشرك اولم تسمعوا الى قول لقمان لابنه " يا بنى لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم)(2) .

---

(1) الآية ٨٢ من سورة الانعام .

(2) انظر الفتح جـ ١ ص ٨٧ من كتاب الأيمان .

فقد ظن الصحابة رضى الله عنهم ان المراد بلفظ الظلم فى الآية الذنب مطلقا ولما كانت العصمة منه من الصعوبة بمكان فاتحوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك فبين صلى الله عليه وسلم لهم ولعموم اتباعه ان المراد بالظلم الذى لا يحصل الأمن والاهتداء الا بالسلامة منه هو الشرك وليس كما يظنون من ان المراد به مطلق الذنب ، ومن باب الزيادة فى البيان ارشدهم صلى الله عليه وسلم الى الآية التى فى سورة لقمان الواردة فى مقدمة وصاياه لأبنه حيث وصف الشرك بالظلم بل هو ظلم عظيم وبذلك طابت نفوسهم وهدأت خواطرهم .

فالهداية والأمن فى هذه الحياة والسلامة والنجاة من عذاب الله واليم عقابه فى الدنيا والآخرة لا تكون الا لمن سلم ايمانه وعمله من شوائب الشرك باطنا وظاهرا .

اذ قد يكون الأنسان مؤمنا وهو يشرك مع الله غيره فى عبادته كما قال تعالى منكرا على المشركين ((وما يؤمن اكثرهم بالله الا وهم مشركون))(١)

غير ان هذا الايمان الملوث برجس الشرك ليس هو الأيمان الذى امر الله به روضيه لعباده .. كما قال تعالى : ((وما امروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين))(٢) .

وقد اخبر سبحانه بأنه لا ينجو عنده يوم القيامة الا من خلص ايمانه وسلم قلبه من شوائب الشرك ومظاهره .. قال تعالى : ((يوم لا ينفع مال ولا بنون

---

(١) سورة يوسف الآية : ١٠٦ .

(٢) سورة البينة الآية :

الا من اتى الله بقلب سليم)) (١) .

فالقلب السليم هو الذى سلم اعتقاده من ادران الشرك وخلصت اعمال صاحبه من ارادة غير الله فيما يجب ان يكون لله .

قال الأمام ابن القيم رحمه الله : فالقلب السليم هو الذى سلم من ان يكون لغير الله فيه شرك بوجه ما ، بل قد خلصت عبوديته لله تعالى ارادة و محبة و توكلا و انابة واخباتا و خشية ورجاء واخلص عمله لله (٢) .

هذا ويستفاد من هذه الآية ايضا ان من صرف شيئا مما يجب ان يكون لله لغير الله فقد خلط ايمانه وعمله بشرك لا يغفره الله و من ثم لا يكون مهتديا فى هذه الحياة وليس له امن عند الله .

قال ابن حجر رحمه الله فأن قيل من اين يلزم ان من لبس الأيمان بظلم لا يكون آمنا ولا مهتديا ؟ الى ان قال : فالجواب : ان ذلك مستفاد من المفهوم وهو مفهوم الصفة او مستفاد من الأختصاص المستفاد من تقديم (لهم) على الأمن اى : لهم الأمن لا لغيرهم (٣) .

هل الأمن المذكور فى الآية امن من التأبيد في العذاب او هو أمن من كل عذاب ؟

لقد اختلف فى نوع الأمن المذكور فى الآية : هل هو الأمن من الخلود فى النار والتخليد فى العذاب كما هو الحال بالنسبة للكفار و المنافقين ؟

---

(١) سورة الشعراء آية : ٨٨ .

(٢) انظر اغاثة اللهفان جـ ١ ص ١٣ .

(٣) انظر الفتح جـ ١ ص ٨٨ .

أو هو الأمن من كل عذاب مهما كان نوعه وقدره ؟

والواقع ان مرد هذا الخلاف هو الأختلاف فى المعنى المراد بالظلم فى الآية هل المراد به الشرك ، ام انه مطلق الذنب ؟

فمن قال ان المراد بالظلم فى الآية مطلق الذنب قال ان المراد بالأمن هو الأمن من كل عذاب ومن قال ان المراد بالظلم فى الآية نوعه الأكبر وهوالشرك ، وليس المراد به كل ما يظلم به العبد نفسه من انواع الذنوب : قال ان المراد بالأمن : الامن مصير المشركين وهو التخليد فى العذاب وبالنظر الى حديث عبد الله بن مسعود المتقدم نجد ان رسول الله صلى الله عليه وسلم فسر الظلم المذكور فى الآية بالشرك الذى هو اكبر انواع الظلم .

فقوله تعالى ((الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم اولئك لهم الأمن وهم مهتدون))

فى معنى قوله صلى الله عليه وسلم :(ما من عبد قال لا اله الا الله ثم مات على ذلك الا دخل الجنة)

وقوله : (اشهد ان لا اله الا الله وانى رسول الله لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما فيحجب عن الجنة .

وقوله صلى الله عليه وسلم : (اسعد الناس بشفاعتى من قال لا اله الا الله خالصا من قبل نفسه) (١) .

---

(١) تقدمت هذه الأحاديث فى الفصل الأول عند الكلام على (لا اله الا الله)

ففى الآية اشتراط التوحيد مع نفى الشرك لحصول الأمن ، وكذلك الأحاديث تدل على ان من تلفظ بكلمة التوحيد عالما بمعناها عاملا بمقتضاها ولم يأت بما ينافيها من امور الشرك دخل الجنة .

وبالنظر الى النصوص الشرعية الدالة على ان العبد يثاب و يعاقب على افعاله مع امكان التجاوز و غفران الذنوب ما دامت دون الشرك ... نجد ان مذهب السلف فى هذه المسألة يتلخص فيما يلى :-

١ - ان من مات موحدا توحيدا كاملا ، وبريئا من الشرك براءة تامة ولم يقترف شيئا من الكبائر او تاب منها قبل موته : يدخل الجنة بلا عذاب .

٢ - اذا كان العبد الموحد من اهل الصغائر : فأنها تكفر باخلاص التوحيد وسائر الطاعات وباجتناب الكبائر و ما يصيب العبد فى هذه الحياة من انواع البلاء .

٣ - اذا مات العبد الموحد وهو مصر على بعض الكبائر فهو تحت المشيئة الالهية فقد يعفو الله عنه ويدخله الجنة ابتداءً وقد يعذب بقدر اسرافه على نفسه ثم يدخل الجنة وذلك جمعا من النصوص الشرعية (١) .

واليك ما قاله الأمام ابن القيم رحمه الله فى هذه المسألة ، حيث قال :

---

(١) تقدم فى الفصل الأول منقولا عن الامام النووى رحمه الله .

(لما اشكل عليهم - اى الصحابة رضى الله عنهم - المراد بالظلم فظنوا ان ظلم النفس داخل فيه وان من ظلم - اى ظلم كان - لم يكن آمنا ولا مهتديا ، اجابهم صلوات الله وسلامه عليه بأن الظلم الرافع للأمن والهداية ، على الأطلاق هو الشرك ، وهذا والله هو الجواب الذى يشفى العليل ويرى الغليل ، فأن الظلم المطلق التام هو الشرك الذى هو وضع العبادة فى غير موضعها ، والأمن والهدى المطلق هما الأمن فى الدنيا والآخرة ، والهدى الى الصراط المستقيم ، فالظلم المطلق التام رافع للامن - والأهتداء المطلق التام ، ولا يمنع ذلك ان يكون مطلق الظلم مانعا من مطلق الأمن و مطلق الهدى فتأمله ، فالمطلق للمطلق والحصة للحصة)[1] - انتهى ملخصه -

وعلى كل فأن من اتى بكلمة التوحيد وعرف معناها وعمل بما دلت عليه فقد جاء ببرهان كبير و شفيع عظيم يرجى له به الخير ويؤمل له حسن العاقبة ، فأن كلمة الأخلاص لا يقاومها شئ وقد وعد الله اهلها خيرا كما فى حديث البطاقة والسجلات الذى رواه الترمذى وحسنه وقال عنه الحاكم صحيح على شرط مسلم ، وفى الحديث القدسى الذى رواه مسلم فى صحيحه عن ابى ذر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :(يقول الله : من تقرب منى شبرا تقربت منه ذراعا - الخ الحديث .. وفيه - ومن لقينى بقراب الأرض خطيئة لا يشرك بى شيئا لقيته بقرابها مغفرة)[2] .

---

(١) انظر فتح المجيد ص ٣٣ .

(٢) انظر النووى (١٧ / ١٢)

وروى الترمذي عن انس ابن مالك وحسنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : قال الله تبارك وتعالى : يا بن آدم انك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك ما كان منك ولا ابالي يا بن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرتها لك ولا ابالي ، يا بن آدم انك لو اتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لا تيتك بقرابها مغفرة [1] .

فهذا دليل على عظم كلمة الأخلاص عند الله تعالى وان صاحبها على قدر كبير من الهدى فاذا ما التزم بشروطها وما دلت عليه فهو انشاء الله مع عباد الله الآمنين يوم الفزع الأكبر (يوم لا يغني مولى عن مولى شيئا ولا هم ينصرون الا من رحم الله [2] .

فواجب المسلم الذي ينشد الهداية ويؤمل النجاة يوم لقائه بمولاه ان يلزم المحجة البيضاء كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ففيهما وحدهما الهداية والأمن وفي غيرهما الغواية والضلال فالموحد يعتقد ان ربه وحده هو القادر وبيده ملكوت كل شيء ويعلم ان من عداه ضعيف ومخلوق مملوك ومحتاج مثله لا يملك لنفسه نفعا وضرا فضلا من ان يملكه للآخرين .

وهذا الاعتقاد يمنحه الراحة والطمأنينة النفسية فهو يعلم ان له ربا قادرا بيده ازمة الأمور كلها فيتوجه اليه بقلبه ولسانه ووجدانه ويعرض عما سواه فيعيش آمنا مطمئنا يعلم ان ما اصابه لم يكن ليخطئه وما اخطأه لم ليكن ليصيبه ان اصابته سراء شكر وان اصابته ضراء صبر فهو شكور صبور وفي كلا

---

(١) انظر تحفة الاحوذي (٩ / ٥٢٥)

(٢) الدخان ٤١ - ٤٢ .

الحالين مأجور ،روى الامام مسلم فى صحيحه عن ابى يحيى صهيب بن سنان رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : عجبا لأمر المؤمن ان امره كله له خير وليس ذلك لاحد الا للمؤمن ان اصابته سراء شكر فكان خيرا له وان اصابته ضراء صبر فكان خيرا له) ويوم لقائه بربه ومولاه فان له البشرى بالأمن والسلامة والهداية : (الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم اولئك لهم الأمن وهم مهتدون)(١) .

وهذا بخلاف حال من يعتقد فى غير الله فأنه يعيش فى هذه الحياة خائفا من كل شئ فهو يخاف العظام التى ارمت ومضى عليها مئات السنين فأصبحت جزاء من التراب ، ويهاب الأشجار التى تعصف بها الرياح والأحجار التى تسيل وتروث عليها الدواب ،ويخاف من كيد شيطان ضعيف فيقدم له انواعا من الطاعات ويؤمل فيه جلب النفع او دفع الضر .

فهو يعيش فى هذه الحياة فى متاهات ووساوس لا يستقر له معها قرار وقد وكله الله الى ما تعلق به (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير او تهوى به الريح فى مكان سحيق)(٢) واذا ما ملك وتلك حاله فقد اخبرنا الله عن مآله (ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) .

---

(١) سورة الأنعام آية : ٨٢ .

(٢) سورة الحج آية : ٣١ .

فكل ما يجب ان يكون لله من اعتقاد او قول او عمل فهو عبادة فمن صرف من ذلك شيئا لغير الله فقد لبس ايمانه بشرك وفقد بذلك الأمن وحرم الهداية في عاجل امره وآجله .

فلما كانت عبادة الله وحده هي الهدف الرئيسي لخلق الانسان واستخلافه في هذا الوجود ، ولما كانت عبادة الله وحده هي اصل دين البشرية واعتقادها وحيث اتضح لنا ان الدعوة الى توحيد العبادة اهم واولى مهمات الرسل الى اممهم على الأطلاق ، وهو الذي حصل فيه الجدال وبسببه شرع الجهاد ، وبسبب الاعراض عنه حصل الهلاك والغرق والدمار وابيدت الأمم ، وحيث بدأ الله كتابه الكريم وختمه بهذا النوع من التوحيد الذي به يتحدد مصير العبد وانتقاله من الكفر الى الأسلام ، ومن الشرك الى التوحيد ، وحيث أن أمن العباد وطمأنينتهم في عاجل امرهم وآجله مرهون بالأقرار بتوحيد الألوهية وتحقيق هذا المعنى .

فقد اتضح لنا بهذه الحيثيات والأساسيات ان توحيد العبادة هو اساس ملة الأسلام ومرتكز قواعده ، ومحور مطالبه ، فلا قيمة لأيمان ولا اعتداد بعمل لا يكون اساسه افراد الخالق بالعبادة ، ومبناه تجريد المتابعة لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم .

والله الهادي الى سواء السبيل ،

الفصل الثالث

((الفصل الثالث))

في الأمر بعبادة الله وحده وفق شرعه وهدى رسوله صلى الله عليه وسلم

=

وفيه مباحث :

المبحث الأول : في مدلول العبادة في اللغة والشرع .

المبحث الثاني: في انواع العبادة .

المبحث الثالث: لا يعبد الا بما شرع .

المبحث الرابع : في وجوب الأخلاص لله تعالى في الأقوال والاعمال .

المبحث الخامس: المسلم يعبد ربه رغبة في ثوابه وخوفا من عقابه .

المبحث السادس: في بيان ان من لا يعبد الخالق عبد المخلوق .

* * *

((المبحث الأول))

في مدلول العبادة ، في اللغة والشرع

أ ـ تعريف العبادة في اللغة :

بالأطلاع على ما قاله اهل اللغة في كتبهم ، حول معنى العبادة نجد ان عباراتهم تكاد تكون مطابقة :

قال في اللسان : اصل العبودية : الخضوع والتذلل .

وفي القاموس : العبديه ،والعبودية ، والعبودة ، والعبادة : الطاعة

و في مختار الصحاح : اصل العبودية : الخضوع و الذل ،و التعبيد : التذليل يقال : طريق معبد والعبادة : الطاعة .

وفي المفردات للأصفهاني : العبودية اظهار التذلل ،والعبادة : غاية التذلل .

وهكذا ندرك ان المعنى العام للعبادة في اللغة : هو الخضوع و التذلل ، والطاعة .

ب ـ العبادة في الشرع :

خضوع ، ومحبة و التزام .

اما علماء الشريعة فأنهم بطبيعة اختصاصهم و مقصدهم ـ لا يقفون عند التعريف اللغوي لمعنى العبادة ، بل هم بجانب ذلك يركزون و بصورة واضحة على ابراز المدلول الشرعي للعبادة اذ هو الجانب

الهـــام فيما تعنيه ، لأنه الاطار الذى يحتوى الأوامـر والنواهى والمقاصـد وجميع احكام الشـرع .

قال ابن جريـر رحمه الله : العبودية عنـد جميع العرب اصلهــــــا الذلـــة ، وانهـــا تسمى الطريق المذلل الذى قد وطئته الأقدام وذللته السابلـة : معبدا .

ثم قال عند تفسير قوله تعالى : ((اياك نعبد)) اى لك اللهـــم نخشع ونذل ونستكين اقرارا لك يا ربنا بالربوبية لا لغيرك .

وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما قوله : اياك نوحده ونخـاف، ونرجو ، يا ربنا لا غيرك[١] .

وقال ابن كثير رحمه الله : والعبادة فى اللغة من الذلة ،يقال طريق معبد وبعير معبد اى مذلل ، وفى الشرع : عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضـوع والخوف[٢]

وقال القرطبى رحمه الله عند تفسير قوله تعالى : ((اياك نعبد واياك نستعين)) : معناه نطيع .. والعبادة : الطاعة ،والتذلل ، وطريق معبد اذا كان مذللا للسالكين ، ونطق المكلف به اقرار بالربوبية ،وتحقيق لعبادة الله تعالـــى .... الـــخ[٣] .

---

(١) انظر التفسير (١/ ٦٩) .

(٢) انظر التفسير (١/ ٢٥) .

(٣) انظر التفسير (١/ ١٤٥) .

اما شيخ الأسلام ابن تيمية فقد وضح هذا المعنى توضيحا كاملا حيث قال العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه ، من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة [١] .

وقال أيضا : ولكن العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب فهي تتضمن غاية الذل لله بغاية المحبة له ، ومن خضع لأنسان مع بُغْضِه له لا يكون عابدا له ، ولو احب شيئا ولم يخضع له لم يكن عابدا له ، كما يحب الرجل ولده وصديقه ولهذا لا يكفي احدهما في عبادة الله تعالى ، بل يجب ان يكون الله احب الى العبد من كل شيء وان يكون الله اعظم عنده من كل شيء ، بل لا يستحق المحبة ، والذل التام الا الله وكل ما احب لغير الله فمحبته فاسدة ، وما عظم بغير امر الله فتعظيمه باطل [٢]

وبهذا البسط والتفصيل من شيخ الأسلام لما اجمل من كلام بعض العلماء ندرك ان عبادة الله على الحقيقة هي الذل التام والخشوع والخضوع الكامل لله تعالى ، ومحبته ورجاؤه والالتزام بما شرعه وتوحيده في ذلك كله .

كما ندرك ان العبادة المشروعة تقوم على اصلين هامين :-

<u>الأول :</u> الألتزام بما شرعه الله ، ودعت اليه رسله امرا ونهيا وتحليلا

---

(١) انظر العبودية جـ ٣ .

(٢) انظر العبودية جـ ٨ .

وتحريما وهذا هو الذى يمثل الطاعة والخضوع لله ، فمن لم يلتزم بشرع الله و ينقاد لأمره و يتبع هدى رسوله ،فليس عابدا لله على الحقيقة وان اقر بأن الله خالقه ورازقه ، فقدكان مشركوا العرب مقرين بأن الله خالقهم ورازقهم وهم يعبدون معه غيره .

كما اخبر الله عنهم بقوله : ((ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ؟ ليقولن الله ،قل افرأيتم ما تدعون من دون الله ان ارادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره ؟ او ارادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون))[(١)] .

و قال تعالى : قل لمن الأرض و من فيها ان كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله ، قل افلا تذكرون ؟ قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ؟ سيقولون الله كل افلا تتقون ، قل من بيده ملكوت كل شئ وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون ؟ سيقولون ـ الله قل فانى تسحرون ؟[(٢)]

فالمشركون يؤمنون بالله وبأنه يختص بتصريف الكائنات من انزال المطر والرزق والنفع والضر .

لكن هذا الأيمان افسده اشراكهم معه غيره فى العبادة .

---

(١) الزمر آية : ٣٨

(٢) المؤمنون الآيات ٨٤ - ٨٩ .

فلم يؤهلهم لأن يكونوا مؤمنين الأيمان المطلوب الذى يترتب عليه الثواب واساس الخضوع له تعالى هو الشعور بوحدانية الله تعالى وانه هو وحده الذى يملك الضر والنفع والموت والحياة وانه بيده ملكوت كل شئ .

والشعور بالضعف والعجز ، والفقر ، والجهل امام من يملك القوة والقدرة والغنى واحاط بكل شئ علما .

الأصل الثانى : ان يصدر هذا الألتزام من قلب محب لله تعالى : مستشعرا فضله واحسانه ، ونعمته فهو صاحب الفضل والاحسان الذى خلق الانسان ولم يكن شيئا مذكورا ، وخلق له ما فى الأرض جميعا واسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة و مجاهدة النفس و حملها على اداء العبادات من غير استثقال ولا كراهية ، وكذلك الحال بالنسبة للأوامر والنواهى على العبد المؤمن ان يعلم ان الخير فى العاجل والآجل فيما امر الله بأدائه وفى الانتهاء عما نهى عنه .

كى تتم له السعادتان سعادة الحاضر وسعادة المستقبل ، سعادة الحاضر بأن يعيش حياته مطمئنا متلذذا بطاعة ربه ، وسعادة المستقبل يوم يلقى الله ويسعد بلقائه [1]

* * *

(١) انظر كتاب العبادة فى الأسلام - د . القرضاوى ص ٣٢-٣٣ بتصرف

((المبحث الثاني))

في انواع العبادة

عرفنا مما سبق ان الله خلق الانسان في هذا العالم الأرضي لتلقي هداه والتعرف عليه والقيام بعبادته، وذكره وشكره .

وفي هذا نريد ان نتعرف على انواع العبادة وصورها و مقاصد التكليف بها .

انواع العبادة :

الواقع ان العبادة بمعناها الشامل : صفة تطلق على جميع تصرفات المسلم المأمور بها او المنهي عنها شرعا سواء اكانت اعتقادية ، ام لفظية ، ام عملية ،فالمسلم يعبد الله بقلبه ،ولسانه و جوارحه فالعبادة : (اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه : من الأقوال ،والأعمال،الباطنة ،والظاهرة .

فالصلاة ،والزكاة ، والحج ، وصدق الحديث ،واداء الأمانة ،وصلة الأرحام . . . وامثال ذلك من العبادة ، وكذلك حب الله ورسوله و خشية الله ،والأنابة اليه واخلاص الدين له . . .وامثال ذلك هي من العبادة لله) (١) .

فالعبادة تشمل اركان الأسلام ،والأيمان ،والأخلاص الذى هو

---

(١) انظر العبودية لشيخ الأسلام ابن تيمية ص ٣ .

العنصر الأساسى لقبول العمل - كما تشمل اعمال التطوع ، وحسن التعامل مع الخلق .

واهم ما تعنيه العبادة : حب الله وخشيته ، وحب رسوله وطاعته و تشمل القيام بالاقرار بالمعروف والنهى عن المنكر ، لما لهما من اثر كبير فى حماية المجتمع الأسلامى ، والمحافظة عليه من التفكك والأنسلاخ والضياع .

كما تشمل ذروة سنام الأسلام وهو الجهاد : جهاد اعداء الاسلام والمسلمين من المنافقين والكافرين فيهتصان عقيدة المسلمين وديارهم و يخشاهم اعداؤهم (وما تركه قوم الا ذ لوا)

(وجماع الأمر فى ذلك انما هو بتكميل عبودية الله فى الظاهر والباطن ، فتكون حركات نفس العبد وجسمه كلها فى محبوبات الله وكمال عبودية العبد موافقته لربه فى محبة ما احب وبذل الجهد فى فعله ، و موافقته فى كراهة ما يكره و بذل الجهد فى تركه) (١) .

<u>العبادة موزعة على القلب واللسان ، والجوارح .</u>

ولما كانت العبادة منها : العبادة الأعتقادية ، و منها اللفظية ، و منها العملية .

فأنها بحكم هذا التنويع والتقسيم تكون موزعة على القلب ، واللسان

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين للامام ابن القيم ص ٢٧٣ .

، والجوارح فلكل من هذه الجهات حظه ونصيبه ووظيفته من العبادة

فالعبادة الأعتقادية :

هي ما نطوى عليه القلب من امور الشرع ايمانا واقرارا ورضا به

وهي اساس العبادة مثل اعتقاد ان الله جل شأنه هو الرب الواحد الأحد

الذى له الخلق والأمر وبيده النفع والضر ، و أنه لا شريك له ولا ند

،ولا ظهير ، وانه لا معبود بحق غيره ،وكذا التصديق بما اخبر

به الله ورسوله من الأمور الغيبية مثل حقائق اسماء الله وصفاته ،واحوال

القبر و الآخرة ،وغير ذلك مما يجب الأيمان به حسب ما ورد في

دين الله وشرعه .

وكذا حب الله ورجاؤه ،والخوف والخشوع والأنابة ،والاستكانة

و التوكل ،واخلاص العمل لله ، فهذه الأمور والمطالب الشرعية اجل

نصيب القلب من العبادة .

العبادة اللفظية :

وهي ما يقوم به اللسان من لفظ يعبر عما في القلب من الاعتقادات

الواجبة مثل : النطق بالشهادتين ،واثبات ما اثبته الله لنفسه وما

اثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم من الأوصاف ،والنعوت و الأسامى

،ومثل تلاوة القرآن في الصلاة وغيرها ، والتلفظ بالأذكار الواردة في

الصلاة والحج ،ومثل الدعاء والثناء والحمد والشكر والأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر ،وصدق الحديث والاستغفار و رد السلام الى غيرذلك

فهذه الأمور وسائر الأمور اللفظية ، المقربة الى الله هي وظيفة اللسان وعبادته لله .

اعمال الجوارح :

ان جوارح المسلم هي المنفذ الحقيقي لأوامر الله وشرائع الاسلام واى اعتقاد او لفظ لا يصحبه عمل يدل عليه ؟ لا يغني عن صاحبه شيئا ، وان اهم وظائف الجوارح هي : اداء العبادات المفروضة مثل : الصلوات الخمس وما يتعلق بها ،وسائر اركان الأسلام ،من زكاة ، وصيام ،وحج ، وكذا الجهاد العملي لأعداء الأسلام والسعي في امور الخير ، وطلب العلم والنظر والأستماع الى ما ينفع من امور الأسلام ، وكذا سائر الواجبات والمندوبات والكف عما نهى الله عنه ونهى عنه رسوله صلى الله عليه وسلم .

فهذه الأعمال وغيرها هي نصيب الجوارح وحظها من عبادة الله تعالى (1) :

وهكذا نرى ان عبادة الله تعالى . تنظم جميع حركات المسلم وسكناته وما ينطوي عليه ضميره من نية ومقصد .

بصلاح النية تصبح الأمور المباحة عبادة وقربة :

وعبادة الله ليست قاصرة على اداء ما امر الله به من اركان الأسلام وغيرها من الواجبات التي كلف بها العبد بل ان الأمور المباحة

---

(1) انظر مدارج السالكين للامام ابن القيم (١/ ١٠٩) حيث تحدث عن الموضوع بتوسع واسهاب جميل .

اذا اقترنت بها نية القربة الى الله والحصول على ثوابه فأنها بهذه النية تصير عبادة لله ويثاب صاحبها عليها .

وذلك مثل : اعمال الصناعة والزراعة ، وتعاطى البيع والشراء ومزاولة المهن المباحة اذا قصد المسلم من مزاولة هذه الأعمال الحصول على الرزق الحلال والتعفف عما فى ايدى الناس ، وتأمين وتوفير ، وانتاج ما ينفع المسلمين ويزيدهم قوة الى قوتهم ، ويغنيهم عن التعامل مع اعداء الأسلام ، وقصد به كذالك التيسير على المسلمين وجلب ما ينفعهم ، وعدم استيراد ما يضرهم فى دينهم ودنياهم .

ومن ذلك سداد الدين اذا قصد به المكافأة بالمعروف ، وعدم مماطلة الدائن وبراءة الذمة امام الله تعالى .

ومن ذلك الزواج اذا قصد به المسلم اعفاف نفسه وتحصين فرجه وتكثير النسل المسلم الصالح كل ذلك باقتران النية الصالحة يكون عبادة لله يثاب صاحبها عليها .

بل ان الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة او يشرب الشربة فيحمد الله عليها وما ذلك الا لأن الحمد على النعم اعتراف بفضل مسديها والمنعم بها سبحانه وتعالى .

ومقتضى عبادة الله ايضا ان يخضع الأنسان اموره كلها لما يحبه الله ويرضاه فالمؤمن يخرج من العبودية لهواه ولغير الله ، الى العبودية الى ربه ومولاه التزاما بعهد الله وميثاقه وانقيادا لشرعه الذى احل

به الحلال وحرم به الحرام ، وفرض الفرائض وحد الحدود فكما ان الله هو الخالق المالك فأنه هو وحده الحاكم المشرع الآمر الناهى و من ادعى لنفسه هذا الحق فقد تجاوز حده وجعل نفسه ربا و الها ، وكما انه لا يجوز ان يصرف المسلم شيئا من العبادة مثل الركوع والسجود والنذر والدعاء لغير الله فكذلك لا يجوز ان يحتكم لغير الله فأن من احتكم لغير شرع الله و اقر به وانقاد له طائعا مختارا فقد اعطى حق الله لغيره و اتخذه ربا و عبده من دون الله (١) .

كما فى حديث عدى بن حاتم رضى الله عنه - الذى رواه احمد والترمذى - و ذكره ابن جرير عند تفسيره قوله تعالى (اتخذوا احبارهم و رهبانهم اربابا من دون الله)

و قول عدى (انهم لم يعبدوهم)

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (بلى انهم حرموا عليهم الحلال ،واحلوا لهم الحرام فاتبعوهم ،فذلك عبادتهم اياهم)

ان الأنقياد لشرع الله عبادة له و طاعة و الأنقياد لغير شرع الله صرف لهذه العبادة فى غير موضعها وطاعة لغير الله وهذا شرك فى الطاعة لا يجوز .

---

(١) انظر العبادة فى الأسلام للقرضاوى .

الأتفاق بين مدلول : العبادة والدين : في اللغةوالشرع :

سبق تعريف العبادة في اللغة والشرع وهو ان معناها في اللغة الخضوع والذل والطاعة وكمال التذلل وان أشمل تعريف لها في الشرع هو انها اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة .. وكذلك الحال بالنسبة لكلمة الدين فأنها لغة تتضمن الخضوع والذل يقال : دنته فدان اى اذللته فذل ،ويقال يدين الله ويدين لله اى يعبد الله ويطيعه ويخضع له .

اما معنى كلمة الدين في الشرع : فقد بينه رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث جبريل الذي في الصحيحين فقد سمى صلى الله عليه وسلم جميع اعمال الشرع دينا ففي حديث جبريل عليه السلام انه جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم في صورة اعرابي وسأله عن الأسلام والأيمان ،والأحسان فأجابه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فلما ذهب قال صلى الله عليه وسلم في آخر الحديث : (هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم) فجعل كل ما ذكر دينا[1] [2] .

اذا فدين الله عبادته ،وطاعته ،والخضوع له

وهكذا يظهر لنا وجه التطابق والتوافق بين معنى الدين والعبادة.

---

(١) انظر العبودية لشيخ الاسلام ص ٦ - ٧ .
(٢) متفق عليه انظر الفتح (١ / ١١٤) كتاب الايمان و النووي (١ / ١٥٧ أ)

فى اللغة والشرع ففى اللغة يعنى بهما : الخضوع : والطاعة والذل .

وفى الشرع يعنى بهما جميع اعمال الأسلام الأعتقادية ،والقولية والعملية .

فهما لفظان متطابقان مترادفان و يعنى بهما امرا واحدا وغاية واحدة وهى طاعة الله وعبادته والخضوع له و محبته .

* * *

((المبحث الثالث))

لا يعبد الله الا بما شرع

لقد علمنا من دين الله ان عبادة الله وحده هي الغاية التي من اجلها خلق الله الانسان ،واستخلفه في الأرض و اودعه وسائل الأدراك ليعقل عنه امره ونهيه المبلغ اليه بواسطة انبياء الله ورسله .

فعبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه هي النتيجة المطلوبة والثمرة المرجوه ، من بعثة الرسل الى اممهم كما قال تعالى :
((ولقد بعثنا في كل امة رسولا انعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت))(١)

فهو سبحانه لم يكل امر عبادته و كيفيتها الى ما تراه وترضاه عقول البشر و مداركهم فقد تدرك وتستحسن عقول ما تجهله و تستقبحه عقول اخرى ،وقد يتوجه العبد الى الله بما لا يرضى من قول او عمل ، فتصبح عبادة الله فوضى من غير ضابط ولا كيفية محدودة .

فوظيفة العقل البشرى اذا امام شرع الله هي البحث عنه ، و قبول ما يبلغه منه والقيام بتنفيذه حسب ما شرعه الله في كتابه الكريم ، ووفق ما ارشد اليه نبيه ورسوله محمد عليه افضل الصلاة و اتم التسليم علما بأن الشرع لا يأتي مخالفا للعقل السليم ولكن قد يعجزا عن ادارك بعض حكم التشريع .

---

(١) سورة الأنبياء آية : ٢٥ .

كما قال تعالى :

((شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى اوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه))[١] .

وقد امرنا سبحانه بقبول ولزوم ما جاءنا به رسوله واجتناب وترك ما حذرنا منه ونهانا عنه قال تعالى :

((وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا))[٢] .

وقد اخبر صلى الله عليه وسلم :(ان كل عمل ما يبتغى به وجه الله وليس عليه دليل من الشرع لا يقبله الله وهو مردود على صاحبه .

وذلك بقوله صلى الله عليه وسلم : من احدث فى امرنا هذا ما ليس فيه فهو رد)[٣] .. رواه البخارى ..

فحسن النية وصلاح القصد فى العبادة لا يكفى لأن يكون العمل مرضيا لله مقبولا عنده حتى ينضم الى ذلك حسن المتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأخلاص العمل لله و موافقته لسنة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم - شرطان اساسيان لقبوله عنده ، الله واى عمل لا تيسم بهذين الشرطين لا يعتبر عبادة لله فى حكم الشرع قال شيخ الأسلام ابن تيمية رحمه الله : العبادات مبناها على الشرع والأتباع لا على الهوى والأبتداع ، فأن الاسلام مبنى على اصلين :-

---

(١) سورة الشورى اية : ١٣ .

(٢) سورة الحشر آية : ٧ .

(٣) انظر الفتح جـ ٥ كتاب الصلح ص ٣٠١ .

احدهما : ان نعبد الله وحده لا شريك له .

والثاني : ان نعبده بما شرعه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ،

لا نعبده بالأهواء والبدع قال تعالى :

((ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع اهواء

الذين لا يعلمون انهم لن يغنوا عنك من الله شيئا)) وقال تعالى

((ام لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله)) .

فليس لأحد ان يعبد الله الا بما شرعه رسوله صلى الله عليه وسلم .

من واجب ، ومستحب ، ولا نعبده بالأمور المبتدعة [(١)] .

ولقد اثر عن الفضيل بن عياض رحمه الله كلاما جميلا استحسنه المعنيون

بهذا الشأن قديما وحديثا ،قال رحمه الله فى معنى قوله تعالى :

((ليبلوكم ايكم احسن عملا)) قال اخلصه واصوبه قالوا : يا ابا على

ما اخلصه واصوبه ؟

قال : ان العمل اذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل واذا كان

صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا : والخالص ان يكون

لله ، والصواب ان يكون على السنة وذلك تحقيق قوله تعالى :

((فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك

بعبادة ربه احدا))

---

(١) انظر الفتاوى جـ ١ ص ٨٠ .

فهذه الكلمات الموجزة تدل على فهم واسع لمقاصد الشرع وتعطى صورة واضحة لما يجب ان يكون عليه المسلم وهو الالتزام بشرع الله والسير على هديه الذى ارتضاه لعباده ونبذ البدع التى ضل بسببها كثير من المسلمين .

فأفنوا اعمارهم يتخبطون فى ظلماتها (وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا) [1] .

* * *

---

(١) سورة الكهف آية : ١٠٤ .

((المبحث الرابع))

في وجوب الأخلاص لله في الأقوال والاعمال

الأخلاص بكسر الهمزة :

مصدر اخلص ،وهو تنقية الشيء و تصفيته مما يشوبه ويخالطه

قال الراغب الأصفهاني في مفرداته : الخالص : كالصافي ، وحقيقته التبري عن كل ما دون الله تعالى .

و في القاموس ،والمختار : الأخلاص في الطاعة : ترك الريا .

فالأخلاص في العبادة : تصحيح النية وحسن القصد و التوجه الى الله تعالى في الأعمال و الأقوال الشرعية فعلية كانت او تركية ،بحيث لا يعمل العبد عملا ولا يجتنب محظورا ، الا ويقصد به وجه الله تعالى دون شيء آخر من تصنع للمخلوقين و تودد اليهم او اكتساب شيء من حطام الدنيا .

قال الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن ابا بطين (١) :

و اما الأخلاص فحقيقته ان يخلص العبد لله في اقواله وافعاله وارادته ونيته ، وهذه هي الحنيفية ملة ابراهيم صلى الله عليه وسلم التي امر الله بها عباده كلهم ولا يقبل من احد غيرها و هي حقيقة الأسلام (ومن يبتغ غير الأسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين) وهي ملة ابراهيم التي من رغب عنها فهو من اسفه السفهاء (ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه) وقد تظاهرت دلائل الكتاب والسنة

---

(١) هو عبد الله بن عبد الرحمن ابا بطين فقيه الديار النجدية في عصره ولد سنة ١١٩٤ هـ رحل الى الشام و عاد تولى القضاء بالطائف والقصيم ==

واجماع الأمة على اشتراط الأخلاص للأعمال والأقوال الدينية وان الله لا يقبل منهـا الا ما كان خالصا وابتغى به وجهه ،ولهذا كان السلف الصالـح يجتهدون غاية الاجتهاد فى تصحيح نياتهم ويرون الأخلاص اعز الاشيـاء واشقها على النفس وذلك لمعرفتهم بالله و ما يجب له ويملل الأعمـال وآفاتهـا ،ولا يهمهم العمل لسهولته عليهم ،وانما يهمهم سلامة العمـل و خلوصه من الشوائب المبطلة لثوابه او المنقصة له .. الخ (١) .

فكما انه يجب على المسلم العلم بالعبادة و ما يلزم لها ، فأنه يجـب عليه كذلك العلم بضرورة الأخلاص فيها وان يخلص لله فى اقواله وافعالـه و سائـر حركاته وسكناتـه .

فالأخلاص احد شرطى قبول العمل والأثابة عليه ، وهوالذى يبـرئ العمل من العيوب ويخلصه من المساوئ ،وهو من اهم ما تطوى عليه قلـب المؤمن ، فواجب المؤمن الاعتناء بصلاح قلبه وتطهيره عن كل وصف مذموم ، ففى الحديث المتفق عليه قال صلى الله عليه وسلم : (الا ان فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كلـه الا وهى القلـب) (٢) .

فعمل القلب هو المصحح للأعمال الشرعية ، فلا يصح عمل شرعى الا من مؤمن عالم بمن كلفه به ،مخلص له فيما يعطيـه ،متبع لشرعه وهديـه

== توفى سنة ١٢٨٢ هـ من مصنفاته مختصر بدائع الفوائد و مجموعة فتاوى ، و تأسيس التقديس فى كشف شبهات ابن جرجيس ـ انظر الاعلام ٤/ ٩٧ و عنوان المجد ١/ ٢٣٥ .

(١) انظر مجموعة التوحيد ص ٤٠٣ .
(٢) انظر الفتح (١/ ١٢٦) كتاب الايمان .

المنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم .

الأمر بإخلاص العبادة لله وحده :

ولقد جاء الأمر بإخلاص العبادة لله في اكثر من موضع في كتاب الله الكريم كما جاء الأمر به في آحاديث كثيرة من السنة المطهرة وما ذالك الا لأهميته في دين الأسلام ولكونه الأساس الذي يجب ان تقوم عليه العبادة .

قال الله تبارك وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم :((انا انزلنا اليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين الا لله الدين الخالص))(١)

وقال : ((قل الله اعبد مخلصا له دينى))(٢) .

وقال له ايضا :

((قل ان صلاتى ونسكى و محياى و مماتى لله رب العالمين لا شريك له ،وبذلك امرت وانا اول المسلمين))(٣) .

ولا شك ان الأمة مقصودة بهذا الأمر وهو اخلاص العبادة لله ،اذ هي في امور الشرع تبع له صلى الله عليه وسلم ، ما لم يدل على خصوصيته صلى الله عليه وسلم دليل كما قال تعالى :

((لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجو

---

(١) (سورة الزمر الايتان ٢ ، ٣ .

(٢) سورة الزمر الآية ١٤ .

(٣) سورة الأنعام الآيتان ١٦٢ ، ١٦٣ .

الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا)) [(١)] .

وقال تعالى : عن اصحاب الديانات السماوية السابقة ،وهو امر لأمة محمد صلى الله عليه وسلم بالأخلاص فى العبادة ..

((وما امروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء)) [(٢)] .

فالأمر بالأخلاص امر عام لجميع اصحاب الديانات السماوية ; كما انه يعتبر من ضروريات الدين التى يجب على المسلم معرفتها والعمل بها فالقلب الذى لا يعرف الأخلاص او ضعف اخلاصه شبيه بقلوب المنافقين الذين توعدهم الله بالدرك الأسفل من النار ، وقد كان من صفاتهم كراهيتهم للعبادة ،و مراءات الناس فى اعمالهم ، وقلة ذكرهم لله ، الى غير ذلك من صفاتهم السيئة المسجلة عليهم فى القرآن الكريم والسنة المطهرة .

لا قيمة للعمل بدون اخلاص :

وليست العبرة بكثرة الأعمال واجهاد الجسم وانما العبرة بما يصاحب العمل ويلازمه من نية صادقة واخلاص حافز على العمل ،وليست العبرة ايضا بهيئات الأجسام و جمال الصور و حطام الدنيا ،وانما العبرة بما وقر فى القلب من الأخلاص و ما ظهر على الجوارح من حسن العمل ، ففى صحيح مسلم عن ابى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

---

(١) سورة الأحزاب آية : ٢٢ .

(٢) سورة البينة آية :

((ان الله لا ينظر الى اجسامكم ولا الى صوركم ولكن ينظر الى قلوبكم واعمالكم))(١) .

وهذا بمعنى قوله تعالى : ((وما اموالكم ولا اولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى الا من آمن وعمل صالحا))(٢) .

فالتكريم والتقريب من الله لا ينال بكثرة عرض الدنيا الزائل وانما تكون الاثابة والتقريب بالايمان الصادق والعمل الصالح في الاعتبار الشرعي .

فليس كل عمل يكون مقبولا عند الله ويثاب صاحبه عليه . فنية العامل هي التي تحدد العمل وتبرز قيمته .

ففي الحديث المتفق عليه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (انما الأعمال بالنيات وانما لكل امرئ ما نوى) .. الحديث .

قال ابن رجب(٣) رحمه الله في معرض كلامه على هذا الحديث والنية في كلام العلماء تقع بمعنيين احدهما تمييز العبادات بعضها عن بعض او تمييز العبادات عن العادات وهذه النية هي التي توجد كثيرا في كلام الفقهاء في كتبهم .

---

(١) سورة   اية :

(٢) سورة سبأ اية : ٣٧ .

(٣) هو الحافظ جمال الدين ابو الفرج عبد الرحمن بن رجب ولد ببغداد سنة ٧٣٦ هـ له مصنفات منها شرح جامع الترمذي والقواعد الفقهية وذيل طبقات الحنابلة - توفي سنة ٧٩٥ هـ
- انظر معجم المؤلفين ٥/١١٨ والأعلام ٣/٢٩٥ .

والمعنى الثاني : بمعنى تمييز المقصود بالعمل وهل هو الله وحده لا شريك له ام لله وغيره ؟ .

وهذه هي النية التي يتكلم فيها العارفون في كتبهم في كلامهم على الأخلاص وتوابعه وهي التي توجد كثيرا في كلام السلف المتقدمين ويتكرر ذكرها في كلام النبي صلى الله عليه وسلم تارة بلفظ النية وتارة بلفظ الأرادة وتارة بلفظ مقارب لذلك .

ويعبر عنها بلفظ الأرادة كثيرا كما في قوله تعالى : منكم من يريد الدنيا و منكم من يريد الآخرة .

وقوله ((من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد))

ومن تسمية هذا المعنى بالنية قوله صلى الله عليه وسلم (من غزا في سبيل الله ولم ينو الا عقالا فله ما نوى) رواه احمد والنسائي عن عبادة بن الصامت (١) .

فشرطا قبول العمل عند الله :

الأخلاص لله والمتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو العمل المقبول عند الله وعليه تكون الأثابة وحسن الجزاء ،كما قال تعالى :

((ومن يعمل من صالحات من ذكر او انثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة (٢)))

---

(١) انظر جامع العلوم والحكم ص ٨ ، ٩ ، ١٠ .

(٢) سورة النساء : ١٢٤ .

وقوله : ((ومن احسن دينا من اسلم وجهه لله وهو محسن)) (١)

فاسلام الوجه : اخلاص القصد والعمل لله والاحسان فيه متابعة رسول الله صلى الله عليه وسلم و سنته كما قاله ابن القيم رحمه الله وكما قال الفضل رحمه الله - وقد تقدم فى المبحث الثالث من هذا الفصل - من انه لا بد من توفر صفتي الأخلاص والمتابعة فى الأعمال حتى تكون مقبولة عند الله وان العمل اذا فقدهما او احدهما لا يقبل ولا يثاب صاحبه .

ولما سئل صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل اعداء الاسلام كي يقال عنه انه مجاهد او شديد البأس وذو جرأة على مقارعة الأبطال واقتحام المعارك ، او لقصد الدفاع عن وطنه وقومه ،فلما سئل صلى الله عليه وسلم اى هذه المقاصد يكون فى سبيل الله ؟

استبعد صلى الله عليه وسلم كل هذه الغايات ،واثبت غاية واحدة ومقصدا واحدا وهو ان يكون القتال من اجل اعلاء كلمة الله فقط دون اشراك غاية اخرى فبذلك يكون الجهاد فى سبيل الله وابتغاء مرضاته ،فقال عليه الصلاة والسلام :

(من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله) (٢) متفق عليه

بل ان عقوبة من عمل عملا ظاهره ابتغاء وجه الله وباطنه خلاف ذلك :

---

(١) سورة النساء اية : ١٢٥ .

(٢) انظر النووى (١٣ / ٤٩) باب من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله والفتح (٦ / ٢٨) كتاب الجهاد باب من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا .

لا تقتصر على رفض عمله وعدم قبوله فقط بل يعاقب على سوء مقصده وانحراف نيته .

فعن ابى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ان اول الناس يقضى يوم القيامة عليه : رجل استشهد ، فأتى به فعرفه نعمته فعرفها قال فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال : جرىء فقد قيل ثم امر به فسحب على وجهه حتى القى فى النار .

ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال : فما عملت فيها ؟ قال تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فيك القرآن ، قال : كذبت ولكنك تعلمت ليقال عالم وقرأت القرآن ليقال : هو قارئ فقد قيل ثم امر به فسحب على وجهه حتى القى فى النار .

ورجل وسع الله عليه واعطاه من اصناف المال فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال : فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت من سبيل تحب ان ينفق فيها الا انفقت فيها لك ، قال : كذبت ولكنك فعلت ليقال : هو جواد فقد قيل ثم امر به فسحب على وجهه ثم القى فى النار (١) .. رواه مسلم ..

فهؤلاء الأصناف الثلاثة كانت اعمالهم ، من اجل الأعمال وافضلها ظاهرا غير انها لما اريد بها غير وجه الله تعالى ، من المقاصد المشار اليها فى الحديث الشريف لم تغن عنهم من الله شيئا بل اضحوا

---

(١) انظر النووى : ١٣ / ٥١) باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار .

مأزورين غير مأجورين فمسهم العذاب جزاء لهم على سوء مقاصدهم وانحراف نياتهم .

فالله تبارك وتعالى طيب لا يقبل من الأعتقادات ،والأعمال ،والأقوال الا ما كان طيبا .

<u>من ثمار الأخلاص وبركته :</u>

ومما لا شك فيه ان للاخلاص اثرا كبيرا ومردودا مباركا فى عاجل امر المؤمن وآجله فبلاخلاص يزك العمل و ينمو ، وكلما ارتفعت درجة الأخلاص : علت وارتفعت قيمة العمل عند الله ونال العبد بالأخلاص رضى ربه وتكريمه الأبدى .

كما قال تعالى : ((قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم ،لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ابدا رضى الله عنهم ورضوا عنه ذالك الفوز العظيم))(١) .

وقال تعالى : ((من عمل سيئة فلا يجزى الا مثلها ،ومن عمل صالحا من ذكر او انثى وهو مؤمن فألئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب))(٢) .

فالعمل اذا قصد به وجه الله فقط يرفع مكانة العبد عند الله ويعلى منزلته كما فى حديث عامر بن سعد عن ابيه ان رسول الله صلى

---

(١) سورة المائدة : ١٩ .

(٢) سورة غافر : ٤٠ .

الله عليه وسلم لما زار سعد بن ابى وقاص فى مرضه بمكة كان مما قاله له : (انك لن تخلف فتعمل عملا يبتغى به وجه الله الا ازددت به درجة ورفعة)(١) .

فهذا من ادلة منزلة الأخلاص فى العمل وقيمته عند الله .

بالنية الصالحة ينال العبد درجة العاملين وان لم يشاركهم :-

وبركة الأخلاص لا يقف اثرها على الأعمال التى قام بها العبد حقيقة ، بل انها تشمل اعمالا اخرى هى طاعة لله وقربة ، تتوق نفس المؤمن الى فعلها ،وانعقدت نيته على القيام بها ،ولسبب من الأسباب ولعارض من العوارض ، كعجز بدنى او مالى أو غير ذلك ، لم يتمكن معه من فعل ما عزم على فعله ، فأن الله تبارك وتعالى يمنح عبده المخلص فى نيته الثواب المترتب على فعل العمل ،كما لو كان عمله حقيقة وباشره فعلا

كما فى قصة البكائين الذين جاءوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ،وطلبوا منه ان يحملهم وان يشاركوه فى غزوة تبوك ، وكانوا فقراء لا ظهر عندهم ، ولم يكن فى مقدوره صلى الله عليه وسلم تأمين ما يحملهم عليه ويجهزهم به ،فرجعوا الى اهليهم (وأعينهم تفيض من الدمع حزنا الا يجدوا ما ينفقون)(٢) .

---

(١) رواه مسلم ـ انظر النووى (١٨ / ٧٦) كتاب الوصية .

(٢) سورة التوبة آية : ٩٢ .

فقد اخبر صلى الله عليه وسلم انهم اشتركوا مع المجاهدين فى الأجر بسبب صدق نياتهم وعدم مقدرتهم على المشاركة الفعلية فى الجهاد ..

روى البخارى فى صحيحه عن انس رضى الله عنه قال رجعنا من غزوة تبوك مع النبى صلى الله عليه وسلم فقال :

(ان اقواما بالمدينة خلفنا ، ما سلكنا شعبا ولا واديا الا وهم معنا فيه حبسهم العذر) .. وفى رواية لمسلم : (الا شركوكم فى الأجر)(١)

وفى الحديث المتفق عليه عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يروى عن ربه تبارك و تعالى قال :

(ان الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله تبارك و تعالى عنده حسنة كاملة وان هم بها فعملها كتبها الله عشر حسنات الى سبعمائة ضعف الى اضعاف كثيرة وان هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ،وان هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة(٢) .

فانظر الى كرم الله على عباده كيف قبل النية الخالصة واقامها مقام العمل حيث لم يقدر لصاحبها القيام بما نوى فعله من خصال الخير .

وان من هم بفعل سيئة ثم تراجع خوفا من الله وهربا من عقابة وطلبا

---

(١) انظر الفتح (٦/ ٤٧) كتاب الجهاد والنووى (١٣/ ٥٧) باب ثواب من حبسه عن الغزو و مرض او عذر آخر .

(٢) متفق عليه انظر الفتح (١١/ ٣٢٣) كتاب الرقاق .

لثوابه فلا تذهب نيته الصادقة عن فعل السوء هدرا بل تكتب له حسنة كاملة وكذا الحال بالنسبة للمريض والمسافر اذا اعتادا عملا من اعمال الخير ايام الصحة والأقامة ،فأنه يكتب لهما كما كانا يعملانه ما دامت النية قائمة فضلا من الله ونعمة الى غير ذلك مما يتعلق بهذا المعنى ويدل على مدى سعة فضل الله ورحمته بعباده .

بالأخلاص تفرج الكربات :

وفضل الاخلاص وبركته ليس قاصرا على ما يتعلق بأحوال الآخرة فقط بل قد تنال المؤمن فى حياته وقبل مماته ،فيجعل الله له من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا كما قال تعالى : ((ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب))[١] .

وكما فى قصة النفر الثلاثة الذين آواهم المبيت الى غار فدخلوه فانحدرت عليهم صخرة عظيمة ،فسدت عليهم فم الغار فانحبسوا بداخله ،وبعد ان فشلت كل محاولاتهم للخروج منه ، لجوء الى الله متوسلين اليه بما عملوه خالصا لله ، ففرج الله كربتهم وانزاحت عنهم الصخرة فخرجوا سالمين .

فعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت

---

(١) سورة الطلاق آية (٢ ، ٣)

الى غار فدخلوه ، فانحدرت الصخرة من الجبل فسدت عليهم الغار

فقالوا : انه لا ينجيكم من هذه الصخرة الا ان تدعوا الله بصالح اعمالكم

قال رجل منهم : اللهم كان لى ابوان شيخان كبيران ،وكنت لا اغبق

قبلهما اهلا ولا مالا فنأى بى طلب الشجر يوما فلم ارح عليهما حتى

ناما فحلبت لهما غبوقهما (١) فوجدتهما نائمين ، فكرهت ان اوقظهما

وان اغبق قبلهما اهلا او مالا فلبثت ـ والقدح على يدى ـ انتظر

استيقاظهما حتى برق الفجر ،والصبية يتضاغون (٢) عند قدمى فاستيقظا

فشربا غبوقهما ، اللهم ان كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن

فيه من هذه الصخرة فانفرجت شيئا لا يستطيعون الخروج منه .

قال الآخر : اللهم انه كانت لى ابنة عم احب الناس الى وفى رواية

: كنت احبها كأشد ما يحب الرجال النساء ،فأردتها على نفسها

فامتنعت منى حتى المت بها سنة (٣) من السنين فجاءتنى فاعطيتها

عشرين ومائة دينار على ان تخلى بينى وبين نفسها ففعلت حتى اذا قدرت

عليها .. وفى رواية : (فلما قعدت بين رجليها قالت : اتق الله ولا

الخاتم الا بحقه ، فانصرفت عنها وهى احب الناس الى وتركت

الذهب الذى اعطيتها اللهم ان كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا

ما نحن فيه فانفرجت الصخرة غير انهم لا يستطيعون الخروج منها .

---

(١) الغبوق : شرب اللبن بالعشى .

(٢) يتضاغون : يتصايحون .

(٣) اى عام جدب وقحط .

وقال الثالث : اللهم استأجرت اجراء واعطيتهم اجرهم غير رجل واحد ترك الذى له وذهب ، فثمرت اجره حتى كثرت منه الأموال فجاءنى بعد حين فقال : : يا عبد الله ادّ الى اجرى فقلت كل ما ترى من اجرك من الأبل والبقر والغنم والرقيق فقال : يا عبد الله لا تستهزىء بى ! فقلت : لا استهزىء بك فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منه شيئا اللهم ان كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون) (١) .

نعم لقد توسلوا الى الله بخالص اعمالهم ليفك اسرهم ويفرج كربتهم اما الأول فتوسل الى الله ببر والديه فذكر انه عاد ذات يوم من الرعى متأخرا فوجدهما نائمين فمكث ليلته ساهرا حتى استيقظا من نومهما فأعطاهما غبوقهما ، وكان بوسعه ان ينام او يوقظهما و يعطيهما غبوقهما ثم يرتاح من عناء الرعى ومشقة السهر ولكنه فعل ما فعل ابتغاء وجه ربه ورغبة فى حسن جزاءه و مبالغة فى بر والديه والأحسان اليهما ورد شىء مما يستحقانه عليه .

اما الثانى فتوسل بخوفه من الله وانصرافه عن فعل الفاحشة ،وكان فى مقدوره ان يقضى وطره بعد ان ظفر ببغيته و امنيته ،ولكنه عندما ذكر بالله تذكر وعندما وعظ به اتعظ فسيطرت على قلبه مخافة الله وهيبته وانصرف عن فعل ما حرم الله عليه .

---

(١) رواه مسلم انظر النووى (١٧/ ٥٥) باب قصة اصحاب الغار الثلاثة والتوسل بصالح الأعمال .

اما الثالث : فتوسل بحفظه للامانة ،و تنميتها ورعايتها حتى جاء صاحبها يطلبها وكان فى مقدوره ان ينكر اجيره ، او ان يقاسمه اجره و ما نتج عنه بحجبه تنميته واستثماره ،ولكنه زهد فى ذلك كله و رغب فيما عند الله ، فكانت تلك الأعمال من أروع صور الأخلاص ،لذالك استحقوا عليها من الله الرضا وسرعت الأستجابة ففرج عنهم ما هم فيه وانزحت الصخرة وانطلقوا الى اهليهم سالمين ،وكان هذا من بركة الأخلاص و مردوده على المؤمن فى عاجل امره قبل آجله .

((المبحث الخامس))

((المسلم يعبد ربه رغبة في ثوابه و خوفا من عقابه))

يجب على المسلم في هذه الحياة ان يعيش بين حالتين تلازمانه ولا تنفكان عنه ابدا : الشعور بالرغبة فيما عند الله من حسن الثواب ، والشعور بالخوف من الله وسوء عقابه ، فهاتان الصفتان تكسبانه الأمل والعمل .

الأمل الذى يدفع عنه اليأس والقنوط من رحمة الله ،والعمل الذى يدفع عنه الغفلة والأغترار ، والتمنى الذى ليس له سند من طاعة الله ورسوله .

لذا فأن المسلم عندما يؤدى العبادة لربه وعلى حسب ما جاء فى شرع الله : علما واخلاصا و متابعة : فأنما تحدوه الرغبة فى رضوان الله و فيما عنده من حسن الجزاء والسعادة الأبدية و ينتابه الخوف من الله فيما لو فرط فى حقوقه و تجاوز حدوده ، بحيث يكون معرضا لغضبه و سخطه و اليم عقابه .

و قد اثنى الله على انبيائه عليهم السلام واخبر انهم كانوا يجمعون فى عبادتهم بين الرجاء والخوف وخشيته سبحانه فقال تعالى : ((انهم كانوا يسارعون فى الخيرات و يدعوننا رغبا ورهبا و كانوا لنا خاشعين))(١) .

قال ابن جرير رحمه الله :(وكانوا يعبدوننا رغبا ورهبا ،وعنى

---

(١) سورة الأنبياء آية : ٩٠ .

بالدعاء فى هذا الموضع العبادة كما قال : (واعتزلكم وما تدعون من دون الله وادعو ربى عسى ان لا اكون بدعاء ربى شقيا ومعنى قوله :" رغبا و رهبا " انهم كانوا يعبدونه رغبة منهم فيما يرجون من رحمته وفضله و رهبة منهم من عذابه وعقابه ، بتركهم عباد ته وركوبهم معصيته) [(١)] .

او الضمير فى قوله " انهم " عائد على الأنبياء المذكورين فى هذه السورة ابتداء من قوله : ((ولقد آتينا ابراهيم رشده)) الآيات ـ الى قوله : ((انهم كانوا يعبدوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعون [(٢)])) الآيات قال ابن القيم : " انه قول عامة المفسرين " [(٣)] .. و قيل انه عائد على زكريا عليه السلام واهل بيته .

هذا وقد امر الله تبارك و تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم ان يقول للناس : (قل انى اخاف ان عصيت ربى عذاب يوم عظيم ، قل الله اعبد مخلصا له دينى) [(٤)] .

فهؤلاء رسل الله وانبياؤه الكرام كل منهم يتوجه الى الله بالعبادة طاعة لله ورغبة فيما عنده من الثواب العظيم ،وخوفا من عذابه الذى

---

(١) انظر التفسير.

(٢) سورة الأنبياء الآيات: من ٥١ - ٩٠ .

(٣) مدارج السالكين جـ ٢ ص ٧٧ .

(٤) سورة الزمر : الايات ١٣ - ١٤ .

لا ينجو منه الا من اتى الله بقلب سليم ، ولا شك ان الأمة مأمورة بمتابعة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم في الظاهر والباطن ، وبهذا لا لوم على المسلم اذا عبد الله طمعا في رضوانه و جنته و خوفا من عقوبته ، روى ان ابن جرير عن ابى زيد في قوله : ((يؤتون ما آتو وقلوبهم وجلة انهم الى ربهم راجعون)) (١) .

قال : (يعطون ما اعطو ، وينفقون ما انفقوا ، ويتصدقون بما تصدقوا ، و قلوبهم وجلة اتقاء لسخط الله والنار ، ولما سألت عائشة رضى الله عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى قوله تعالى : ((الذين يؤتون ما آتو وقلوبهم وجلة)) اهو الرجل يزني ويسرق ويشرب الخمر؟ قال عليه الصلاة والسلام لا يا ابنة ابى بكر او يا ابنة الصديق ، ولكنه الرجل يصوم ويصلى ويتصدق ويخاف ان لا يقبل منه) (٢) .

اعتراض ليس له ما يبرره :-

هذا وقد اعترض بعض الصوفية على من عبد الله على هذا الأساس ، و ملخص وجهة نظرهم فيما يلى :

اولا : ان من عبد الله وتطلع للثواب والجزاء : فقد خالف آيات من القرآن الكريم حيث قال تعالى في حق نبيه داود عليه السلام : ((وان له عندنا لزلفى وحسن مآب)) (٣) .

---

(١) سورة المؤمنون آية : ٦٠ .

(٢) انظر التفسير .

(٣) سورة ص آية : ٢٥ .

وقال:((للذين احسنوا الحسنى وزيادة))[1] وقال ايضا : ((وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ومساكن طيبة فى جنات عدن ، ورضوان من الله اكبر ذلك هو الفوز العظيم))[2] .

فأن المراد بالزلفى ،والزيادة منزلة القرب من الله تعالى ،ولهذا فسرت الزيادة : بالنظر الى وجه الله عز وجل .. ورضوان الله تعالى على العبد اكبر من الجنات وما فيها ، فواجب العبد ان يعبد الله لأن يستحق ان يعبد وان يتطلع الى رضوانه والقرب منه فقط لا على اساس طلب الثواب والخوف من العقاب .

ثانيا : اذا تطلع العبد الى الأجر فقد احسن الظن بعمله ،ورأى انه يستحق عليه اجرا فيصبح كأجير السوء ان اعطى عمل وان لم يعط لم يعمل ، فهذا عبد الأجرة لا عبد المحبة والأرادة ، فأن محبة الله الحقيقية تأبى ذلك ، والله اهل لأن يعبد و يجل ويحب ويعظم لذاته ، فواجب العبد تجريد القيام بالأمر والنهى من كل علة بل يقوم به تعظيما للآمر الناهى ولمنزلة القرب من المطاع .

هذا هو ملخص وجهة نظرهم .

---

(١) سورة يونس آية : ٢٦ .

(٢) سورة التوبة آية : ٧٢ .

والواقع انه حجر على ارادة العبد بدون مسند شرعي - بل الشرع يدل على خلافه - وقصر لأمل المؤمن العابد وتطلعاته بدون مبرر .

ولذا فقد اعتبر هذا الرأى من شطحاتهم وغرائبهم التى اد خلوها فى امور الشرع الأعتقادية ، والقولية ،والعملية .. وقولهم هذا مردود عليهم بصريح كتاب الله وصحيح سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فهذا خليل الله وكليمه ابراهيم عليه السلام دعا ربه بأن يجعله من اهل الجنة وان يقيه شر الخزى يوم البعث والجزاء ، كما فى قوله : (واجعلنى من ورثة جنة النعيم)- الى قوله - : (ولا تخزنى يوم يبعثون) [1] قال الأمام ابن جرير الطبرى فى تفسيره : " اى ولا تذلنى بعقابك يوم تبعث عبادك من قبورهم لموقف القيامة " [2] .

وقال الأمام القرطبى فى تفسيره : " دعاء بالجنة وبمن يرثها ، وهو يرد قول بعضهم لا اسأل جنة ولا نارا " [3] اى ولا استعيذ بالله من النار ..

وروى البخارى رحمه الله عن انس رضى الله عنه قال : كان اكثر دعاء النبى صلى الله عليه وسلم (ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة

---

(١) سورة الشعراء الآيات : ٨٥ - ٨٧ .

(٢) انظر التفسير .

(٣) انظر التفسير (١٣ / ١١٤) .

وقنا عذاب النار) [١] وفى الحديث ايضا (اللهم انى اسألك الجنة وما قرب اليها من قول او فعل او عمل ، واعوذ بك من النار وما قرب اليها من قول او فعل او عمل) .

هذا ومن المعلوم ان القلب اذا خلا من الشعور بالرجاء والخوف بالرجاء بدخول الجنة والتمتع بنعيمها ، والخوف من النار وعذابها ، فترت عزيمته وضعفت همته . ولذالك وصف الله الجنة لعباده واخبرهم عن تفاصيل ما تدركه عقولهم وما عداه اخبرهم به مجملا تشويقا لهم اليها وحثا لهم على ان يسعو لها سعيها ، وكذالك ورد الكثير فى القرآن الكريم والسنة النبوية من ذكر النار ليكون العبد على ذكر منها وليبتعد عن اسباب ورودها .

قال تعالى : ((ولمن خاف مقام ربه جنتان)) الآيات ـ الى آخر سورة الرحمن .

وقال : ((ويطاف عليهم بآنية من فضة واكواب كانت قواريرا)) ـ الى قوله : ((ان هذا كان لهم جزاء وكان سعيكم مشكورا)) [٢] .

وقد اخبر تعالى ان من صفات عباده سؤاله جنته والاستعاذة به من ناره ، وقد وعدهم سبحانه بالاجابة اذا اكتملت شروطها ، كما

---

(١) انظر الفتح (١١/١٩١) ـ كتاب الدعوات .

(٢) سورة الدهر الآيات من ١٥ - ٢٢ .

فى قوله تعالى : ((وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا))
- الى قوله - ((والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ان عذابها
كان غراما)) ثم قال فى آخر السورة : ((اولئك يجزون الغرفة
بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما))(١) .

واخبر تعالى فى اواخر سورة آل عمران ان من صفات العقلاء المؤمنين
الأعتبار بخلق السموات والأرض والاستعاذة بالله من النار وان يؤتيهم
ما وعدت به رسله من الجزاء الحسن كما فى دعائهم (سبحانك فقنا
عذاب النار) وقولهم (وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة
انك لا تخلف الميعاد)(٢)

قال ابن كثير (على الأيمان برسلك ، وقيل معناه على السنة رسلك
وهذا اظهر)(٣) .

ولا شك ان الموعود بعلى السنة الرسل هو الجنة التى سألوها .

وقال تعالى : ((والله يدعو الى دار السلام))(٤) .. وهذا
حث على اجابة الدعوة الى الجنة والمبادرة بالأعمال الصالحة وكافة
الأسباب المقربة اليها ، وقد اخبر صلى الله عليه وسلم ان من سأل الله

---

(١) سورة الفرقان الآيات من ٦٣ - ٧٧

(٢) سورة آل عمران الآيات من ١٩١ - ١٩٤ .

(٣) انظر التفسير .

(٤) سورة يونس آية : ٢٥ .

له (الوسيلة) - وهى اعلى منزلة فى الجنة - عقيب الاذان : حلت له شفاعته [1] - رواه مسلم -

وقال صلى الله عليه وسلم للذى قال : اما انى اسأل الله الجنة ، واستعيذ به من النار ، ولا احسن دندنتك ولا دندنة معاذ ، قال عليه الصلاة والسلام : (انا ومعاذ حولها ندندن) .

اى ان دعائنا يدور حول سؤال الله الجنة والاستعاذة به من النار .

وروى الامام البخارى عن ابى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، من حديث الملائكة - السيارة وسؤال الله لهم عن عباده - وهو اعلم منهم - وفيه : قال (يقول : فما يسألونى ؟ قال : يسألونك الجنة ، قال يقول : وهل رأوها ؟ قال يقولون : لا والله يارب ما رأوها . . قال فيقول : فكيف لو انهم رأوها ؟ قال يقولون : لو انهم رأوها كانوا اشد عليها حرصا ، واشد لها طلبا ، واعظم فيها رغبة ، قال فمم يتعوذون ؟ قال يقولون : من النار ، قال يقول : وهل رأوها ؟ قال يقولون : لا والله يارب ما رأوها ، قال يقول : فكيف لو رأوها ؟ قال يقولون : لو رأوها كانوا اشد منها هربا واشد لها مخافة ، قال فيقول : اشهدكم انى قد غفرت لهم ، قال يقول ملك من الملائكة ، فيهم فلان ليس منهم انما جاء لحاجة ، قال : هم الجلساء لا يشقى جليسهم) [2]

---

(١) انظر النووى (٤/ ٨٥) ، باب استحباب القول مثل ما يقول المؤذن لمن سمعه .

(٢) انظر الفتح (١١/ ٢٠٨) كتاب الدعوات .

ففي هذا دليل على جواز سئوال الله الجنة والأستعاذه به من النـــار ، وان هذا الفعل عبادة من العبادات ، التى امر المسلم بتأديتها للـــه تعالى ،و محبوب للرب مرضى له ، بل لقد ورد فى السنة ما يفيد :

جواز القيام بالعمل من اجل دخول الجنة كما فى حديث الوضـــوء وفيه (ان من احسن الوضـــوء ثم قال : " اشهد ان لا اله الا الله واشهد ان محمدا عبده ورسوله" فتحت لـه ابواب الجنة الثمانية فيدخل من ايهـا شـــاء) (١) - رواه مسلم - ، ومن قال : " سبحان الله وبحمده غرست له نخلة فى الجنـة " ، فهل من المعقول ان يحرض المسلم على مطلـــب

لايجوز او ناقص وغيره اولى منـه ثم هل من الممكن تجريد شعـــــور المسلم اثناء عبادتـه ربـه من تصور ما وعد الله به عباده الطائعين مـــن النعـيم الأبـدى ،و ما اوعـد به الكافرين والعصاة والفاسقين من العـذاب الألـيم ؟ لا اعتـقد ان ذلك ممكنا ، ولا اعتقد ان يقول بهذا رجـــل عالم بمقاصد الشريعة الاسلامية ويسرها .

لذا فأن المسلم يعبد الله لأن عبادة ربه هى الغاية من وجـــوده (و ما خلقت الجن والأنس الا ليعبدون) ،والمسلم يعبد الله امتثـــالا لأ مره و نهـيه (يا ايها الناس اعبدوا ربكم) و يعـبد ربـه لأنه خالقـــه و رازقـه بالنعم الظاهرة والباطنة ، وبيده ملكوت كل شئ ، ويعـبـــد

---

(١) انظر النووى (٣/ ١١٨) باب الذكر المستحب عقب الأذان .

الله حبا له و تقديسا لكماله وجلاله وعظمته ، و يعبده ابتغاء مرضاته و طلبا لمنزلة القرب منه ،ويعبده طمعا فى جنته وخوفا من ناره واليم عقابه وايضا الأنسان بطبيعة مفتقر الى نوع الخير وهو كل ما يلتذ به والهرب من المؤلم العاجل والآجل فعبادة الله بين الخوف والرجاء فمن منع عبادة الله على هذا الأساس فقد حجر واسعا ،وخالف الشرع والواقع ، وطالب الناس بما لا يستطيع هو تطبيقه على نفسه .

اما ما ذكروه من الآيات القرآنية فليس فيه دليل لما زعموه وذلك ان الآيات تنص على درجتين او نوعين من الجزاء والثواب : احدهما مادى وهو دخول الجنة والخلود فى بحبوحة نعيمها ،وثانيهما وهو اعظمهما جزاء معنوى لا يعلم مدى تأثيره على نفسية المؤمن الا الله وهو تقريب الله لأهل الجنة ، و تمتعهم بالنظر الى وجهه الكريم ، واضفاء رضوانه عليهم وهذا عام لجميع اهل الجنة ، الا انهم قد يتفاوتون فى صفة هذا التكريم .

قال صلى الله عليه وسلم : (اذا دخل اهل الجنة الجنة ; يقول الله تبارك و تعالى : (تريدون شيئا ازيدكم ؟ فيقولون : الم تبيض وجوهنا الم تدخلنا الجنة ؛ و تنجينا من النار ؟ فيكشف الحجاب فما اعطوا شيئا احب اليهم من النظر الى ربهم) (١)

---

(١) رواه احمد انظر الفتح الربانى (٢٤ / ٢١٠)

وعن ابى سعيد الخدرى رضى الله عنه : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ان الله عز وجل يقول لأهل الجنة : يا اهل الجنة فيقولون : لبيك ربنا وسعديك والخير فى يديك ، فيقول : (هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يا رب وقد اعطيتنا ما لم نعط احدا من خلقك : فيقول الا اعطيكم افضل من ذلك ؟ فيقولون : يارب واى شيء افضل من ذلك ؟ فيقول احل عليكم رضوانى فلا اسخط عليكم بعده ابدا) (١) - رواه مسلم -

هذا ويرى الأمام ابن القيم ان الجنة اسم لدار النعيم المطلق وان اعظم نعيمها التمتع بالنظر الى وجه الله الكريم ، وسماع كلامه ،والقرب منه وبرضوانه ، حيث قال رحمه الله (والتحقيق ان يقال : الجنة ليست اسما للأشجار والفواكه ،والطعام والشراب والحور العين ،والأنهار والقصور ، واكثرالناس يغلطون فى مسمى الجنة ، فأن الجنة اسم لدار النعيم المطلق الكامل و من اعظم نعيم الجنة التمتع بالنظر الى وجه الله الكريم وسماع كلامه وقرة العين بالقرب منه وبرضوانه فلا نسبة للذة ما فيها من المأكول والمشروب والملبوس والصور الى هذه اللذة ابدا ، فأيسر يسيره من رضوانه اكبر من الجنان وما فيها من ذلك كما قال تعالى : ((ورضوان من الله اكبر)) .. وفى الحديث حديث الرؤية - فوالله

---

(١) رواه مسلم - انظر النووى (١٧ / ١٦٨) كتاب الجنة وصفة نعيمها واهلها .

ما اعطاهم الله شيئا احب اليهم من النظر الى وجهه) وفى حديث آخر انه سبحانه اذ تجلى لهم ورأو وجهه عيانا نسوا ماهم فيه من النعيم وذهلوا عنه ، ولم يلتفتوا اليه .

ثم قال : (وهذا والله هو العلم الذى شمر اليه المحبون واللواء الذى امه العارفون وهو روح مسمى الجنة وحياتها وبه طابت الجنة وقامت فكيف يقال : لا يعبد الله طلبا لجنته ولا خوفا من ناره ؟

فمطلوب الأنبياء ، والمرسلين ، والصديقين ، والشهداء ، والصالحين : هو الجنة ، و مهربهم من النار .[1]

و هكذا نرى ان قولهم يجب على العبد ان يعبد الله لمجرد الامتثال و لطلب القرب والمنزلة من الله ، لا طلبا لجنته ولا خوفا من ناره ،

نرى مما تقدم وغيره من الأدلة الشرعية ان هذا قول ساقط لا اعتداد به لمخالفته للأدلة و لهديه صلى الله عليه وسلم ، و مخالفته للفطرة البشرية التى جبل الخلق عليها .

بالأضافة الى ان مسمى الجنة - كما قال الأمام ابن القيم - يطلق على النعيم المادى والمعنوى وان النعيم المعنوى - وهو رضوان الله ، و لذة النظر الى وجهه الكريم - اعظم نعم الجنة على الأطلاق .

فالعبد عندما يسأل الله الجنة انما يسأله هذه المقاصد مجتمعة ، وقد بينها الله له ودعاه اليها ، فى كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) راجع مدارج السالكين جـ / ٢ ص ٧٦ ، ٨٠ ، ٨١ ، فى كل ما ذكر فى هذا الموضوع .

(المبحث السادس)

فى بيان ان من لم يعبد الخالق عبد المخلوق

خلق الله الأنسان محتاجا الى جلب ما ينفعه ، ودفع ما يضره ، لذا فأنه لا يزال يبحث عن قوة تملأ فراغ قلبه و تطمئن اليها نفسه ، يتقدم اليها بشتى القربات و انواع العبادات ، ويطلب منها العون والنصرة وكشف الكربات .

فأذا لم تكن وجهته الى الخالق سبحانه ، فلابد وان يتجه الى غيره من المخلوقات للحصول على مراده و تحقيق مطلبه (فالأنسان له ارادة دائما ، وكل ارادة لابد لها من مراد تنتهى اليه ، فلابد لكل عبد من مراد محبوب هو منتهى حبه وارادته فمن لم يكن الله معبوده و منتهى حبه وارادته ، بل استكبر عن ذلك فلابد ان يكون له مراد محبوب يستعبده ويستذله غير الله ، فيكون عبدا ذليلا لذالك المراد المحبوب) (١) .

و ما يؤمله العبد ويسعى اليه من سعادة وطمأنينه وراحة بال لا يتم له الا بأن يكون الله هو مولاه : فلا يعبد الا اياه ، ولا يستعين الا به ، ولا يتوكل الا عليه ، اما غيره من الآلهة - المزعومة - التى يعبدها كثير من الناس فأشركوها مع الله فى العبادة فأنها محتاجة فقيرة لا تستغنى بنفسها فضلا من ان تملك نفعا او ضرا لعابديها .

---

(١) انظر كتاب العبودية لشيخ الاسلام ابن تيمية ص ٤٨ .

كما قال تعالى :

((قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا))[١] .

اى ان الذين تدعونهم من دون الله ضعفاء محتاجون مثلكم وليس في مقدورهم رفع البلاء النازل بكم او صرفه عنكم ، وانما القادر على ذلك هو الله الذى بيده ملكوت كل شئ .

فبعبادة الله وحده والاستعانة به يستغنى العبد عن اى معبود آخر ، اما اذا تعلق قلب العبد بغير الله ؛ فلن يتم له ما يريد (فلن يزول فقر العبد و فاقته الا بالتوحيد فأنه لابد له منه واذا لم يحصل له لم يزل فقيرا محتاجا معذبا فى طلب ما لم يحصل له ، والله تعالى : (لا يغفران يشرك به) واذا حصل مع التوحيد استغفار حصل له غناه وسعادته وزال عنه ما يعذبه ،والعبد مفتقر دائما الى التوكل على الله ، والأستعانه به كما هو مفتقر الى عبادته فلابد ان يشهد دائما فقره الى الله و حاجته فى ان يكون معبودا له وان يكون معينا له)[٢] .

هذا وان عبادة من دون الله قد تتخذ اشكالا عدة

---

(١) سورة الاسراء الاية : ٥٦ .

(٢) انظر الفتاوى لشيخ الأسلام ابن تيمية جـ ١ ص ٥٦ .

اولا : قد تكون العبادة بالطاعة كما قال تعالى :

((الم اعهد اليكم يا بنى آدم ان لا تعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين)) [(١)] .

فعبادة الشيطان : هى طاعته بحيث يصرف عن الله كليا و اتباعه فيما يوسوس به و يزينه من المعاصى الى حد الاشراك بالله و تقديم انواع العبادات ـ كالدعاء ، والذبح ، والنذر ـ للجن ومن يظن بهم الصلاح والتقوى من الأموات وغيرهم ـ ومن هذا القبيل طاعة العلماء والأحبار والحكام فيما يأمرون به من غير سند من عند الله او دليل صحيح من سنة رسوله صلى الله عليه وسلم كالتحليل والتحريم وغيره من تشريعات البشر و قوانينهم فأن طاعتهم فى ذلك عبادة لهم كما قال تعالى :

((اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما امروا الا ليعبدوا الها واحدا لا اله الا هو سبحانه عما يشركون)) [(٢)]

وقد جاء فى حديث عدى بن حاتم انه لما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ هذه الاية فقال عدى (انهم لم يعبدوهم) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (بلى انهم حرموا عليهم الحلال ، واحلوا لهم الحرام فأتبعوهم ، فذلك عبادتهم اياهم) وقال ابن عباس رضى الله عنه لم يأمروهم

---

(١) سورة يس الاية : ٦٠ .

(٢) سورة التوبة الاية : ٣١ .

ان يسجدوا لهم ولكن امروهم بمعصية الله فأطاعوهم فسماهم الله بذلك اربابا (١) .

ففي هذا دليل على ان طاعة العلماء والحكام فيما لم يأذن به الله عن رضا و طواعية ؛ عبادة لهم من دون الله ومن ذلك اتباع الهوى و هو عند اطلاقه ما تهواه النفس مما هو خلاف الحق و طاعته فيما لم يرض به الله كما قال تعالى : ((ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله)) (٢)

وقد دل القران الكريم على ان من اطاع هواه و اعرض عن ذكر الله ؛ فقد اتخذ هواه الها و عبده من دون الله ..

قال تعالى : ((افرأيت من اتخذ الهه هواه واضله الله على علم و ختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله ؟ افلا تذكرون)) (٣) .

فالعبد اذا اسرف في اتباع الهوى بحيث لا يهوى شيئا الا اتبعه حتى ولو كان فيه سخط الله و مقته ،ولا يكره شيئا الا تركه حتى ولو كان فيه رضا الله وطاعته فقد عبد هواه و شهوته من دون الله .

ثانيا : العبادة بمعنى التأله : وهو الاعتقاد بأن الأنبياء والعلماء

---

(١) انظر التفسير للامام ابن جرير الطبري .

(٢) سورة ص ، آية : ٢٦ .

(٣) سورة الجاثية اية : ٢٦ .

والأولياء قادرون على الإعانة الغيبية ، وكشف الضر وجلب النفع، وغير ذلك من صفات الألوهية ، ثم القيام بين أيديهم أو على قبورهم أو استحضارهم ذهنيا وتقديم صفات التعظيم لهم : من خضوع ، وذل وانكسار وذبح ونذور الى غير ذلك ، ثم سؤالهم والشكوى اليهم وطلب الإعانة وقضاء الحاجات منهم وغير ذلك مما لا يقدر عليه الا الله ، وقد أخبر الله في كتابه بأن جميع مدعوات الغير دونه لا تملك لدعاتها شيئا ، بل ولا علم لهم بما يطلب منهم .

ولو قدر لهم - على سبيل الافتراض - انهم يعلمون شيئا من ذلك فإنه ليس بمقدورهم الاستجابة لهم بل سوف يتبرؤن منهم يوم القيامة ومن عبادتهم اياهم .

كما قال تعالى : ((ذلكم الله ربكم له الملك ، والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير[(١)] ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ، ولو سمعوا ما استجابوا لكم ، ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير))[(٢)] .

وقد أخبر الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم ان من مات وهذه حاله دخل النار ففي صحيح البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (من مات وهو يدعو من دون الله ندا دخل النار) .. رواه البخاري ..[(٣)]

---

(١) القطمير : قشرة النواة .

(٢) سورة فاطر آية : ١٣ .

(٣) انظر الفتح (١٧٦/٨) كتاب التفسير باب (ومن الناس من يتخذ من دون الله اندادا) .

نعوذ بالله من سوء الخاتمة .. هذا وسوف يأتي مزيد بيان لهذا الموضوع انشاء الله في الفصل المتعلق بأمور الشرك .

ثالثا : شدة الحرص على الرئاسة والمال حتى ينسى الآخرة :

لقد جبل الانسان في هذه الحياة على السعي للكسب وجمع المال وعلى حب التملك والادخار ، وقد لاحظ الشارع الحكيم هذا التركيب الغريزي للانسان ، فلم يحظر عليه جمع المال والتمتع به ، بل حث على السعي في الأرض لطلب الرزق وشجع عليه ، وذلك بالطبع ضمن الضوابط والحدود الواردة في الشرع بخصوص مصادر جمع المال وطرق انفاقه .

فقال تعالى : ((واحل الله البيع وحرم الربا)) (١) وقال تعالى : ((فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون)) (٢) .

وقال تعالى : ((وهو الذي جعل لكم الأرض ذلولا ، فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور)) (٣)

ومن السنة المطهرة ما رواه البخاري عن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لأن يأخذ احدكم حبله

---

(١) سورة البقرة الاية ٢٧٦ .

(٢) سورة الجمعة الاية : ١٠ .

(٣) سورة الملك الاية : ١٥ .

فيأتى بحزمة الحطب على ظهره فيبيعها فيكفّ الله بها وجهه خيرا له من ان سأل الناس اعطوه او منعوه) [(١)] .

وقال صلى الله عليه وسلم ايضا : (ما اكل احد طعاما قط خيرا من ان يأكل من عمل يده) .. الخ الحديث [(٢)] ـ رواه البخارى .

وقد كان صلى الله عليه وسلم قبل البعثة يرعى الغنم لأهل مكة على قراريط تدفع له .

وقال صلى الله عليه وسلم لسعد بن ابى وقاص انك ان تذر ورثتك اغنياء خير من ان تتركهم عالة يتكففون الناس) [(٣)] .. رواه مسلم

فهذه النصوص وما كان فى معناها من كتاب الله الكريم وسنة رسوله المطهرة حث على السعى فى الأرض وطلب الرزق الحلال وعدم التواكل والأخلاد الى الكسل وترك الاسباب المشروعة .

غير ان المسلمين نهوا عن الاسترسال والانسياق وراء شهوات النفس والحرص الشديد والتنافس على المادة ، لما فى ذلك من التقاطع والتدابر فيما بينهم وصرفهم عن مهمتهم الأساسية ،ودورهم الرئيسى فى هذه الحياة ، الى حياة المادة والتكالب عليها .. ومن ثم يكون مصيرهم الى الهلاك والدمار ، شأنهم فى ذلك شأن الأمم السالفة .

---

(١) انظر الفتح (٣/ ٣٣٥) كتاب الزكاة .

(٢) الفتح (٤/ ٣٠٣) كتاب البيوع .

(٣) انظر النووى جـ ١١ ص ٧٦ من كتاب الوصية .

فمن قصة حديث قدوم ابي عبيدة رضي الله عنه الى المدينة من البحرين تجمع الناس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم لما علموا ذلك فقال لهم عليه الصلاة والسلام : (ابشروا واملوا ما يسركم ، فوالله ما الفقر اخشى عليكم ، ولكن اخشى عليكم ان تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها (وتهلكم كما اهلكتهم) [1] .. متفق عليه ..

وعن ابي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر وجلسنا حوله فقال : (ان مما اخاف عليكم بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها) [2] .. رواه مسلم ..

وروى الترمذي عن كعب بن عياض وقال حديث حسن صحيح قال : (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (ان لكل امة فتنة ، وفتنة امتي المال) [3] .

فاذا كان هم العبد في هذه الحياة هو طلب المادة والحصول عليها من كل وجه ، بحيث تملك عليه حسه ومشاعره ، وتسري محبتها في كيانه سريان دمه في جسمه وتصبح المادة هي سر رضاه وسخطه فقد اعتبره رسول الله صلى الله عليه وسلم : عابدا والمال معبودا له -

---

(١) انظر الفتح جـ ١١ ص ٢٤٣ كتاب الرقاق .

(٢) انظر النووي (٧/١٤٣) .

(٣) وانظر تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي (٦/٦٣٠) .

فعن ابى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (تعس عبد الدينار ، وعبد الدرهم ، وعبد الخميصة [١] ، ان اعطى رضى وان لم يعط سخط ، تعس وانتكس [٢] ، واذا شيك فلا انتقش [٣]) - رواه البخارى [٤] -

ففى هذا الحديث اخبار بهلاك وشقاوة عابد المادة سواء اكانت نقدية ام عينية : ودعاء عليه بأن لا يفلح ولا ينجو من شرا لا ووقع فيما هو اعظم منه حتى تتردى حالته وتنحط الى درجة انه (اذا شاكته شوكة فلا يقدر على اخراجها بالمنقاش ولا يجد من يخرجها عنه ، واذا وقع فى البلاء لا يترحم عليه ، وبذلك يسقط عن الحركة ، والسعى فى مصالح الدنيا التى صار عبدا لها ، وبذلك تعظم مصيبته ، لما كان ذلك هو مقصوده الذى عمل له وسعى فى تحصيله حتى صارت نيته مقصورة عليه ، يغضب ويرضى له وصار عبدا له [٥] وما اكثر هذا الصنف ممن ينسبون الى الأسلام وهم عن هديه معرضون ، اولئك الذين لا هم لهم فى هذه الحياة سوى التفكير والعمل على جمع الأموال وتكديسها ، وسواء اكان من طريق مشروع او غير مشروع فأن الامر عندهم سيان ، بل ويعدون الأبتزاز والمكر والخداع والحيل

---

(١) الخميصة : ثوب صوف اوخز معلم وكانت من لباس الناس قديما .

(٢) انتكس : اى عاوده المرض او انقلب على رأسه وهو دعاء عليه بالخيبة والخسران .

(٣) اى اذا اصابته شوكة فلا يقدر على اخراجها ولا يخرجها منه احد .

(٤) انظر الفتح (٦/ ٨١) كتاب الجهاد .

(٥) انظر تيسير العزيز الحميد ص ٥٣٨ - ٥٤٠ .

المطوية من المهارات التى يجب ان يتصف بها رجل الأعمال الناجح]]

ونتيجة لذلك فأن احدهم يعيش فى دوامة من القلق والأرهاق الجسمى النفسى

وتنتابه نوبات الغضب والأرتياح تبعا لأرتفاع العملات الدولية وانخفاضها

ولرواج هذا الصنف من البضاعة او كساده - لذا فأنه يحاول البحث

عن السعادة ومن خيبة أمله وسوء ظنه يظنها تكمن فى تلبية شهواته

واقتحام محارم الله ، فبينما تكون يده مقبوضة عن اخراج حق الله فى

مال الله والانفاق فى اوجه البر التى تعود بالخير على العباد والبلاد .

اذ به ينثر الأموال الطائلة تحت اقدام المومسات وفى الملعونة

من المشروبات ويعرض نفسه الى الهوان والى مقت الله وسخطه ، كل

ذلك بحثا عن السعادة المفقودة واستجابة لأيحاءات سيده وشيطانه

وصنف آخر قد نالهم نوع من الحرمان ولم يكن عنده عاصم من

ايمان وارتابت قلوبهم واظهروا السخط من اقدار الله وتعلقت قلوبهم

به بما فى ايدى الناس والتهبت نيران الحقد فى صدورهم واذا ما نالهم

شيء من حطام الدنيا ارتاحت نفوسهم وتطلعوا الى المزيد

وتمنوا على الله الأمانى .. فهذا الصنف ينطبق عليه قول الله

تبارك وتعالى : ((ومن الناس من يعبد الله على حرف فان اصابه خير

اطمأن به وان اصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة)) (1) .

---

(1) سورة الحج ايه : ١١ .

فهذان الصنفان من الناس هم عبيد للمادة فهي المحرك الأساسي لمشاعرهم و متعلق الرضا و الغضب عندهم ، ولم يسلموا لله و يجاهدوا انفسهم في طاعته فأصبحوا عبيدا لما تعلقت به قلوبهم ، واستشرفت اليه نفوسهم .

(وكذلك كل من امتنع ان يذل لله او يبذل ماله في مرضاته او يتعب نفسه وبدنه في طاعته لا بد ان يذل لمن لا يسوى و يبذل ماله و يتعب نفسه وبدنه في طاعته ومرضاته عقوبة له) [1] .

و للناس فيما يعشقون مذاهب :

وهناك صنف آخر من الناس قد غزاهم الشيطان عن طريق حب الرئاسة والشرف والتعاظم على الخلق فكما ان اولئك يكون رضاهم و سخطهم متعلق بالمادة .

فان هذا الصنف من الخلق تعلق قلبه بحب الثناء وبالكلمة البراقة ، تقال عنه ، وبالمنصب والوجاهة في المجتمع ، فهو يرضى و ترتاح نفسه و تأخذه النشوة لكلمة مدح أو تأييد له ولو بالباطل ويغضب ويتعالى و يعادي من ينقده ولو بالحق ، و يبذل كل ما امكنه للحصول على الصدارة و المكانة المرموقة في امته ، لا لشيء سوى حب الرئاسة

---

(١) انظر اغاثة اللهفان لابن القيم جـ ٢ ص ١٩٢ .

والشرف و الظهور ،ولا شك ان هذا مرض خطير اذا تمكن من القلب واتصف به العبد افسد عليه دينه .

روى الأمام احمد والترمذى عن كعب بن مالك وقال حديث حسن صحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال : (ما ذئبان جائعان ارسلا فى غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه) (١)

(فبين صلى الله عليه وسلم ان الحرص على المال والشرف فى أفساد الدين لا ينقص عن افساد الذئبين الجائعين لزريبة الغنم ، وذلك بين ، فأن الدين السليم لا يكون فيه هذا الحرص وذلك ان القلب اذا ذاق حلاوة عبوديته لله ومحبته له لم يكن شئ احب اليه من ذلك حتى يقدمه عليه) (٢)

وهكذا ندرك ان الانسان اذا لم يعبد الله ،وينصاع لأوامره ونواهيه ،وخلا قلبه من الحب الحقيقى لمولاه الذى خلقه فسواه ، فلابد وان تتجاذبه الشياطين والأهواء ،وحب هذه الحياة التى كتب عليها الفناء .

وبالتالى يعيش عيشة نكد وشقاء لا راحة معها ولا هناء .

وصدق الله اذ يقول(: فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ،ومن اعرض عن ذكرى فأن له معيشة ضنكا و نحشره يوم القيامة اعمى)) (٣)

والله الهادى الى سواء السبيل) .

---

(١) انظر الفتح الربانى (١٩ / ٢٤٧) وتحفة الاحوذى (٧/ ٤٦) .

(٢) انظر العبودية لشيخ الأسلام ابن تيمية ص ٦٣ .

(٣) سورة طه آية : ١٢٤ .

الفصل الرابع

(الفصـــل الرابـــــع)

في بيان ان الغلو اعظم اسباب الشرك و اوسع
ابـواب الابتداع في الديــــــــن

وفيـــــه :

تمهـيد في معنى الغلو والنهي عنه و مبحثان :ـ

المبحث الأول : في بيان ان الغلو في الاشخاص بداية انحراف البشرية عن ملة التوحــــيد

المبحث الثاني : في بيان ان الغلو في الأعمال اكبر عوامـــــل الابتداع في الدين .

[تمهيد في معنى الغلو والنهي عنه]

الغلو في اللغة :

هو المبالغة في الشيء وتجاوز الحد فيه ، يقال : غلا في الأمر غلوا أي جاوز فيه الحد [1] .

والغلو في الشرع :

هو : الأفراط في القول ، والعمل ، والاعتقاد وتجاوز الحد المشروع في ذلك ، كأطراء الأنبياء والصالحين وتعظيمهم بالألفاظ ، والأفعال ورفعهم فوق منازلهم التي انزلهم الله اياها ، وكالأمتناع من التمتع بالمباحات والمسنونات بنية العبادة والتقرب الى الله ، وكغلو الجهمية والمعتزلة في نفيهم اسماء الله وصفاته بدعوى تنزيه الرب عن مشابهة المخلوقين فخالفو بذلك نصوص الكتاب الصريحة والسنة الصحيحة .

فالغلو اول خطوات الأنحراف عن الدين القويم والوقوع في الشرك العظيم ، كما حدث لقوم نوح عليه السلام ، وكما فعل اليهود مع العزير ، والنصارى مع المسيح ، وكما هو الواقع بالنسبة لكثير من المسلمين ، حيث دب فيهم هذا الوباء القاتل والمرض المدمر من قرون ولم يزل شره في ازدياد حتى جهل المعنى الحق (للاله) ومعنى العبادة

---

(1) انظر مادة (غلا) جـ ٦ من الصحاح للجوهري و جـ ٤ من القاموس المحيط .

و معنى الشرك فوقع كثير من المسلمين فيه بسبب الغلو و مجاوزة الحد المشروع ، ولقد نهى الشارع عن الغلو و حذر منه - (كما سيأتى) لما له من آثار سيئة على الدين ولما فيه من منافاة لعقيدة التوحيد بصفة عامة و توحيد العبادة بصفة خاصة .

ولقد اتم الله علينا النعمة واختار لنا دينا كاملا شاملا لا افراط فيه ولا تفريط كما قال تعالى : -

((اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا))(1) - وارسل لنا رسولا امينا ناصحا ما من خير يقرب من الله الا و دل امته عليه و ما من شر يباعدها منه الا و حذرها عنه ، وقد امرنا الله باتباعه وطاعته فيما امر به ونهى عنه كما قال تعالى :

((قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله)) (2)

و قوله : ((و ما آتاكم الرسول فخذوه و ما نهاكم عنه فانتهوا)) (3) ..

فتركنا صلى الله عليه وسلم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها الا هالك .

ولما كان الغلو يقع فى الأشخاص و يكون فى الأعمال فأن الكلام فيه ينحصر فى مبحثين :-

(المبحث الأول)

في بيان ان الغلو في الأشخاص بداية انحراف البشرية عن ملة التوحيد

و لنبدأ الكلام عن الغلو في الأشخاص فهو الطامة الكبرى والبلية العظمى التي جنحت بالبشرية عن جادة الحق والصواب الى ظلمات الشرك والضلال باتخاذ الأنداد لله من خلقه واعتقاد انها تملك شيئا من خصائص الألهية ، قال ابن القيم رحمه الله : (ومن اسباب عبادة الأصنام الغلو في المخلوق و اعطاؤه فوق منزلته حتى جعل فيه حظ من الألهية ، و شبهوه بالله سبحانه وهذا التشبيه الواقع في الأمم هو الذي ابطله الله سبحانه و بعث رسله وانزل كتبه بأنكاره والرد على أهله)[1] .

لقد قرر اهل العلم بهذا الشأن ان مبدأ شرك قوم نوح تعظيم اشخاص صالحين فلما ماتوا اقاموا تماثيل لهم على قبورهم و اهتموا بها وعظموها حتى اذا هلك ذلك الجيل و توالت الأجيال تدرج الحال بهم الى اتخاذها آلهة مع الله و عبدت من دونه .

روى الأمام البخاري في كتاب التفسير في باب قوله تعالى : ((ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا)) عن ابن عباس رضي الله عنهما انها :

---

(١) انظر اغاثة اللهفان جـ ٢ ص ٢٢٢ .

(اسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا اوحى الشيطان الى قومهم ان نصبوا الى مجالسهم التى كانوا يجلسون انصابا ، وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى اذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت) وفى رواية (وينسى العلم) .

قال فى الفتح : وقال بعض الشراح محصل ما فى هذه الأصنام قولان : احدهما انها كانت فى قوم نوح والثانى انها كانت اسماء رجال صالحين الى آخر القصة .

قلت - اى صاحب الفتح - بل مرجع ذلك الى قول واحد وقصة الصالحين كانت مبتدأ عبادة قوم نوح هذه الأصنام ثم تبعهم من بعدهم على ذلك [1] .

قلت - وهذا يتفق مع قول ابن عباس فى اول هذه القصة - وهو قوله : (صارت الأوثان التى فى قوم نوح فى العرب بعد) ... الخ

قال فى قرة عيون الموحدين : (وكل ما عبد من دون الله من قبر او مشهد او صنم او طاغوت فالأصل فى عبادتهم هو الغلو كما لا يخفى على ذوى البصائر .

ثم استعرض رحمه الله ما حل ببعض بلدان المسلمين من غلو فى بعض من يعتقد فيهم الصلاح والتقوى وان لهم كرامات ووجاهة عند الله

---

(١) انظر الفتح جـ ٨ ص ٦٦٧ - ٦٦٩ .

مثل الشيخ عبد القادر الجيلانى ، واحمد البدوى الذى لا يعرف له اصل ولا فضل ولا علم ولا عبادة فاعتقدوا انه يتصرف فى الكون ويطفىء الحريق وينجى الغريق وانه يسمع من دعاه ويجيبه من مكان بعيد ، وذلك ما يعتقده بعض المسلمين فى ابن عربى امام اهل الوحدة و حامل لواء الزندقة .. وغير ذلك مما يفعله بعض المنتسبين الى الأسلام من عبادة الطواغيت والقبور والجن والأصل فى ذلك كله الغلو الذى سرى الى المسلمين بواسطة وحى الشيطان و تزيينه) (١) بتصرف .

اذا فلا غرابة ان يكون الغلو فى الاشخاص هو اصل شرك الأولين و الآخرين وهو الباب الواسع لتلك الهاوية والخطوة الأولى فى هذا الضلال ، حيث استدرج الشيطان عباد القبور من سىء الى اسوأ حتى اوقعهم فى الشرك الذى نصبه لهم ، فقد زين لهم تعظيم الصالحين بأقامة المشاهد على قبورهم ثم زين لهم ان دعاء الله عند صاحب القبر ابلغ فى الأجابة حتى تطور الحال بهم الى دعاء وسؤال صاحب القبر نفسه والنذر له والذبح عنده وهذا هو الشرك الذى لا يغفره الله ولا يقبل فيه شفاعة - قال فى تيسير العزيز الحميد : (وبالجملة فالغلو اصل شرك الأولين والآخرين الى يوم القيامة وقد امرنا الله تعالى بمحبة أوليائه وانزالهم منازلهم

---

(١) انظر مجموعة التوحيد ص - ٩٢ .

من العبودية وسلب خصائص الألهية عنهم وهذا غاية تعظيمهم
وطاعتهم ، ونهانا عن الغلو فيهم فلا نرفعهم فوق منزلتهم ولا نحط
منها لما يعلم تعالى فى ذلك من الفساد العظيم فما وقع الشرك الا
بسبب الغلو فيهم) الخ .. كلامه رحمه الله (١) .

فلما ينطوى عليه الغلو من الشر العظيم ولما يعلمه صلى الله عليه وسلم من منزلته فى قلوب المؤمنين فقد خشى صلى الله عليه وسلم ان يدفعهم حبهم وتعظيمهم له صلى الله عليه وسلم الى رفعه فوق منزلته وتشريكه مع الله فى بعض ما هو حق لله فقد حذر صلى الله عليه وسلم امته من الغلو فى شخصه بأساليب مختلفة لقطع ذريعة التشريك ودفع وسيلة التعظيم فتارة بأسلوب النهى الصريح وبدعائه ربه والتجائه اليه تارة بأن لا يتحول قبره الى وثن يعبد وتارة بلعنه الغلاة الذين يتخذون من قبور انبيائهم مساجد لعبادة الله .

واليك احاديث ثلاثة ذات اساليب مختلفة غير ان غايتها واحدة ومعانيها متحدة الا وهو التحذير من الغلو ونهى الأمة من المبالغة فى رفع الخلق الى منزلة لا يرضى عنها الخالق .

روى الأمام البخارى رحمه الله فى كتاب احاديث الأنبياء عن ابن عباس انه سمع عمر رضى الله عنه يقول وهو على المنبر: (سمعت النبى صلى

---

(١) انظر كتاب تيسير العزيز الحميد ص ٣٤٥ .

الله عليه وسلم يقول : (لا تطرونى كما اطرت النصارى ابن مريم فأنما انا عبده فقولوا عبد الله ورسوله)[1] .

وروى الأمام مالك عن عطاء بن يسار ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (اللهم لا تجعل قبرى وثنا يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور انبيائهم مساجد)[2] .

كما روى البخاري ومسلم ايضا عن عائشة وابن عباس رضى الله عنهما قالا : (لما نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم طفق يطرح خميصة على وجهه فاذا اغتم كشفها عن وجهه ، فقال وهو كذالك : لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور انبيائهم مساجد .. يحذر ما صنعوا)[3] .

وهذه الأحاديث وما كان فى معناها هى المنطلق والأساس الذى يعتمده عادة الباحثون فى هذا الجانب من دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، واليك بعضا من تعليقاتهم وتحليلاتهم وما تهدف اليه .

قال فى تفسير العزيز الحميد فى معرض كلامه على حديث النهى عن الأطراء : (الأطراء مجاوزة الحد فى المدح والكذب فيه ،

---

(١) انظر الفتح جـ ٦ ص ٤٧٨ .

(٢) انظر باب جامع الصلاة جـ ١ ص ٣٥١ بشرح الزرقانى .

(٣) انظر الفتح جـ ٦ ص ٤٩٤ من كتاب احاديث الأنبياء .

اى لا تمدحونى فتغلوا فى مدحى كما غلت النصارى فى عيسى فادعوا فيه الربوبية ، وانما انا عبد الله فصفونى بذلك كما وصفنى به ربى و قولوا عبد الله ورسوله فأبى عباد القبور الا مخالفة لأمره وارتكابا لنهيه وناقضوه اعظم المناقضة ، وظنوا انهم اذا وصفوه بأنه عبد الله ورسوله وانه لا يدعى ولا يستغاث به ولا ينذر له ولا يطاف بحجرته وانه ليس له من الأمر شيء ولا يعلم من الغيب الا ما علمه الله ان فى ذلك هضما لجنابه و غضا من قدره ،فرفعوه فوق منزلته وادعوا ما ادعته النصارى فى عيسى او قريبا منه فسألوه مغفرة الذنوب وتفريج الكروب)[1] .

وهذا صاحب كتاب مصرع الشرك والخرافة نجده بعد ان تكلم عن خطر الشرك الذى لا يدانيه خطر وكيف ان النبى صلى الله عليه وسلم سد جميع المنافذ المؤدية اليه ،يقول : ولما كان الشرك المدمر هو اظلم الظلم وافسد المفاسد فقد اولاه الأسلام كل اهتمامه وسد ابوابه وكل الذرائع المفضية اليه ليكون المجتمع فى مأمن من هذا الداء العضال والوباء المعدى والشلل الفتاك الذى ما اصاب امة من الأمم الا تودع منها وخسرت بذلك دنياها وآخرتها ،فنجد النبى صلى الله عليه وسلم يرفض فى شدة وصراحة كل مبالغة فى تعظيمه يظهره فى غير مظهر العبودية لله التى لا يفخر بغيرها ،فيقول لأصحابه

---

(١) انظر كتاب تيسير العزيز الحميد ص ٣١٤ .

لا تطروني كما اطرت النصارى عيسى بن مريم) .. الخ (١)

ولما كان تقديس المقابر و الأضرحة والغلو فيهما وفي اصحابهما : ضربا من الوثنية و عملا من اعمال الجاهلية تجده صلى الله عليه وسلم يتوجه الى ربه و مولاه بأن لا يجعل قبره من بعده وثنا ومعبدا يعبده الناس يلهجون عنده بأنواع الدعاء ويتقدمون اليه بشتى اساليب التعظيم فقال صلى الله عليه وسلم : (اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد)

قال في تيسير العزيز الحميد : (دل الحديث على ان قبر الرسول صلى الله عليه وسلم لو عبد لكان وثنا فما ظنك بقبر غيره من القبور التي عبدت هي واربابها من دون الله ؟) (٢) .

تنبيه :

يرى بعض العلماء ان الله تبارك و تعالى قد استجاب لدعاء رسوله صلى الله عليه وسلم فلم يجعل قبره وثنا يعبد ، كما قال ابن القيم في نونيته :

فأجاب رب العالمين دعاءه - وأحاطه بثلاثة من الجدران ..

و كما قال في تفسير العزيز الحميد : وقد استجاب الله دعاء رسوله صلى الله عليه وسلم ومنع الناس من الوصول الى قبره لئلا يعبد استجابة لدعاء رسوله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) انظر كتاب مصرع الشرك والخرافة .

(٢) انظر كتاب تيسير العزيز الحميد ص ٣٤٠ .

قلت : ولعل من رأى بعينه وسمع بأذنه ما يقوله ويفعله كثير من المسلمين عند قبره صلى الله عليه وسلم خاصة ايام الحج و مواسم الزيارات المبتدعة ،لعل من شاهد ما يجرى وسمعه يتردد كثيرا فى قبول دعوى ان الله استجاب دعاءه صلى الله عليه وسلم .

اذ ما معنى قول بعضهم عند قبره صلى الله عليه وسلم : (يابو ابراهيم فلان ظلمنى فخذلى حقى منه) (يابو القاسم احنا قصدناك من مكان كذا فلا تردنا خائبين) ، (يابو فاطمة وجد الحسن والحسين انا قاصد بابك والعارف ما يعرف والشكوى لأهل البصيرة عيب) .. الخ

و ماذا نقول عن التمسح بالحيطان و الحديد المحيط بقبره صلى الله عليه وسلم وقبرى صاحبيه رضى الله عنهما .

والتعلق بالحديد والتهام الأتربة التى لها صلة بالحجرات ، و بماذا نسمى ذرف الدموع و العويل وكتابة الشكاوى وطلب الحاجات وقذفها من منافذ الشبابيك الى قبره صلى الله عليه وسلم .

اليست هذه الأستفهامات كافية فى جعل المسلم المتبصر فى دينه فى حل من اعتقاد عدم استجابة هذا الدعاء مطلقا .

اما كون البناء الحائط بقبره صلى الله عليه وسلم على هذه الهيئة بحيث لا يتمكن احد من استقباله استقبالا تاما اثناء الصلاة فهذا مشاهد وملموس .

قال الأمام النووى رحمه الله : ولما احتاجت الصحابة رضوان الله عليهم

اجمعين ،والتابعون الى الزيادة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين كثر المسلمون وامتدت الزيادة الى ان ادخلت بيوت[١] امهات المؤمنين فيه ومنها حجرة عائشة رضى الله عنها مدفن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصاحبيه ابى بكر وعمر رضى الله عنهما بنوا على القبر حيطانا مرتفعة مستديرة حوله لئلا يظهر فى المسجد فيصلى اليه العوام ويؤدى الى المحذور) .

ثم بنوا جدارين من ركنى القبر الشماليين و حرفوهما حتى التقيا حتى لا يتمكن احد من استقبال القبر ،ولهذا قال فى الحديث : لولا ذلك لابرز قبره غير انه خشى ان يتخذ مسجدا والله تعالى اعلم بالصواب)[٢].

قلت ان وجود الحائط على هيئة خاصة تمنع استقبال القبر فى الصلاة ، لا يمنع حدوث مظاهر التعظيم الاخرى التى نهى عنها صلى الله عليه وسلم ودعا ربه ان لا تحدث عند قبره .

هذا وان من شدة حرصه صلى الله عليه وسلم على ايصاد باب الغلو ومن رحمته بأمته من ان تقع فيما وقع فيه غيرها من الأمم السالفة فيحل بها ما حل بغيرهم من غضب الله وسخطه بسبب الغلو فى الأنبياء والصالحين ورفعهم فوق منازلهم التى يستحقونها :

---

(١) (اى بعد عصر الصحابة رضى الله عنهم) .

(٢) انظر النووى جـ ٥ ص ١٣-١٤ .

نجده صلى الله عليه وسلم وقد حان اجله و يوشك ان يودع الدنيا ويلحق بالرفيق الأعلى نجده يحذر امته من اتخاذ قبره مسجدا يحذرها بلعنة اليهود والنصارى الذين فعلوا ذلك بقبور انبيائهم و يخبر بأن هذا العمل مدعاة لغضب الله وسخطه فقد روى الشيخان في صحيحهما عن عائشة وابن عباس رضى الله عنهما قالا : (لما نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم) الخ الحديث .. وقد مر ذكره في هذا البحث وفيه (لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور انبيائهم مساجد .

قال الأمام النووى رحمه الله (انما نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن اتخاذ قبره وقبر غيره مسجدا خوفا من المبالغة في تعظيمه والافتتان به فربما ادى ذلك الى الكفر كما جرى لكثير من الأمم الخالية[1] .

نعم كما قال رحمه الله فربما ادى الغلو في الأشخاص الى الكفر كالحال بالنسبة للأمم السالفة ، وكما فعلت اليهود والنصارى مع العزير والمسيح فاستحقوا غضب الله ومقته .

قال الشيخ يوسف القرضاوى : (وكل هذا احتياط من النبى صلى الله عليه وسلم لأمته فالقليل يجر الى الكثير و الصغير يدفع الى الكبير فربما تدرج بهم الأمر الى تلك القبور فعظموها مع الله واصبحت شبيهة بالأصنام تبركا و تمسحا بها و طوافا حولها وتقبيلا لجوانبها التماسا للبركات عندها او منها كما يفعل ذلك اليوم بعض الضالين من المسلمين

---

(١) انظر النووى جـ ٥ ص ١٣ .

ويعتذر لهم بعض الخادعين او المخدوعين) [(١)] .

فهو صلى الله عليه وسلم لم يألو جهدا في تحذير الأمة من هذا الشر المستطير فقد نهى ان يتخذ قبره عيدا يعتاده الناس ولعن زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج ونهى ان يصلى الى المقابر وحذر من رفع القبور والبناء عليها .

وقال للذى قال له (ما شاء الله وشئت) اجعلتني لله ندا بل ما شاء الله وحده ، فرفض صلى الله عليه وسلم هذا اللفظ الموهم أن يكون له مع الله نصيب في المشيئة .

كل هذا وما كان في معناه هو تحذير لأمته صلى الله عليه وسلم من الأفراط في تعظيمه وتعظيم آثاره من بعده او تعظيم من يظن فيهم الصلاح والتقوى فأن ذلك يجر الى الوقوع فيما وقعت فيه الأمم السالفة فانطمست معالم دينها وحلت عليها لعنة الله وغضبه .

* * *

(١) انظر العبادة في الاسلام ص ١٤٣ .

(المبحث الثاني)

في بيان ان الغلو في الأعمال اكبر عوامل الابتداع في الدين

وكما نهى الشارع عن الغلو في الأشخاص، فقد نهى عن الغلو في الأعمال وهو مجاوزة الحد المشروع فيها كمّا وكيفا ، او التعبد بما لم يجعله الشارع طاعة لله ، وذلك بقصد الأكثار من الأعمال الصالحات والترقي في درجات التقوى .

وكما ان الغلو في الأشخاص اعظم اسباب الشرك ، فكذلك الغلو في الأعمال هو الخطوة الأولى الى الأبتداع في الدين ، فالشيطان قد يتدرج بالعبد عن طريق الغلو في الأشخاص حتى يوقعه في الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله ، وهو ايضا يسول للعبد ويتوغل به في متاهات الغلو في الأعمال حتى يوقعه في الأبتداع في الدين ومن ثم يزين له ان بدعته افضل ما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم والسلف الصالح فيمرق من الدين كما يمرق السهم من الرمية .

لذا فقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم الأمر بالتزام حدود الشرع في الأعمال والنهي عن الغلو فيها بتجاوز ما شرعه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم واخبر أن الغلو في الدين هو سبب هلاك الأمم السالفة

قال الأمام ابن خزيمة رحمه الله في صحيحه : (باب قدر الحصى

الذى يرمى به الجمار والدليل على ان الرمى بالحصى الكبار من الغلو فى الدين .. ثم قال : فى خبر ابن عباس: (بأمثال هؤلاء واياكم والغلو فى الدين)[١] .

قلت : اما حديث ابن عباس رضى الله عنه فقد رواه ابن ماجه بتمامه فى سننه فى باب: (قدر حصى الرمى) قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (غداة العقبة وهو على ناقته (القط لى حصى) فلقطت له سبع حصيات هن حصى الخذف فجعل ينفضهن فى كفه ويقول : (امثال هؤلاء فارموا) : (يا ايها الناس اياكم والغلو فى الدين فأنه اهلك من كان قبلكم الغلو فى الدين)[٢] .

وهكذا نجده صلى الله عليه وسلم يوصد الباب امام هذا الشر الخفى فى اول بوادره عندما حاول الشيطان فتح هذا الباب على المسلمين عن طريق بعض الأوائل مستغلا حسن نياتهم وتطلعهم الى حياة كريمة عند خالقهم بتكلفهم بعض الأعمال التى ليست هى من هدى النبوة كما فى قصة النفر الثلاثة الذين سألوا عن عبادة النبى صلى الله عليه وسلم فلما اخبروا بها كأنهم فقالوها ، فكان مما اوصلهم اليه اجتهادهم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر اما هم فحالهم يختلف عن حاله فهى تستدعى الزيادة فى العمل والأنقطاع

---

(١) انظر جـ ٤ ص ٢٧٦ .

(٢) انظر سنن ابن ماجه جـ ٢ ص ١٠٠٨ .

الى العبادة حيث عزم احدهم على الأمتناع عما احله الله له وهو الزواج من النساء وخالف في ذلك الفطرة البشرية وما لا بد منه لبقاء الجنس البشرى بنية العبادة .

واما صاحباه فقد عزما على تكليف نفسيهما بما لا يطاق الأستمرار فيه حيث عزم احدهما على قيام الليل كله وعزم الآخر على صيام الدهر ، فرد عليهم صلى الله عليه وسلم هذه المبالغة وهذا الغلو في الدين واخبر ان هذا الفعل وشبهه جنوح عن سننه ورغوب عنها في هذا المجال فمن كان هذا شأنه لم يكن على هديه صلى الله عليه وسلم فقال عليه الصلاة والسلام رادا عليهم تبرير فعلهم (اما والله انى لأخشاكم لله واتقاكم له لكن اصوم وافطر واصلى وارقد واتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى)[1] .

ومن جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم وما يحسن الأستدلال به في هذا المعنى : ما رواه الأمام البخارى في صحيحه عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من احدث في امرنا هذا ما ليس منه فهو رد)[2] .

فهذه قاعدة عامة وهى ان كل عمل خارج عن حدود الشرع بما فيه

---

(١) رواه البخارى انظر الفتح جـ ٩ ـ كتاب النكاح ص ١٠٤ .

(٢) انظر الفتح جـ ٥ ص ٣٠١ (كتاب الصلح)

الغلو في الدين لا يعتد به وهو مردود على صاحبه .

قال ابن رجب رحمه الله في تعليقه على هذا الحديث : وان اعمال العالمين كلهم ينبغي ان تكون تحت احكام الشريعة ، فتكون احكام الشريعة حاكمة عليها بأمرها ونهيها فمن كان عمله جار تحت احكام الشريعة موافقا لها فهو مقبول ، ومن كان خارجا عن ذلك فهو مردود على عامله) (١) .

وهكذا نلحظ ان الغلو بنوعيه : يشكل خطرا على عقيدة المسلم وعمله ، واذا فتح هذا الباب وولجته الأمة واصبحت عبادة الله مجالا لأهواء الناس وعقولهم فسوف يتلاشى دينها و تتطمس معالمه ، فتستحق الامة بذلك غضب الله ومقته فتهلك كما هلكت الأمم السابقة .

فواجب المسلم اذا الأمتثال لأمر الله ونهيه وعدم صرف شيء من خصائص الله لأحد من خلقه وان يطلب الفوز والنجاة بالوقوف عند حدود ما شرعه الله ورسوله من اعمال كما قال تعالى :

((لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا)) (٢)

---

(١) انظر جامع العلوم والحكم ص ٥٢ .

(٢) الاحزاب آية : ٢١

فان الضلال كل الضلال في مخالفة شرع الله وهديه كما قال تعالى :

((وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله امرا ان يكون لهم الخيرة من امرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا)) .(١)

والله الهادي الى سواء السبيل .

* * *

---

(١) الأحزاب آية : ٣٦

الفصل الخامس

(الفصـــل الخامـــس)

في بيان ان من مقتضيات التوحيد عدم الابتداع في الدين

وذكر نماذج من البدع القادحة في التوحيد ...

و يشتمل على تمهيد في معنى البدعة و مبحثين :

المبحث الأول : الأبتداع في الدين : قادح في التوحيد وذاهب بكمالـه الواجـب .

المبحث الثاني : في ذكر نماذج من البدع القادحة في التوحيد الـتي حدثت في المسلمين وهي :

اولا : الـبدع الاعتقادية وتشمل :

أـ بدعة الكلام في القدر .

ب ـ بدعة الكلام في اسماء الله تعالى وصفاته .

جـ ـ بدعة القول بخلق القرآن

ثانيا : الـبدع العمليـة .

* * *

تمهيد في معني البدعة :

تأتى مادة (بدع) للأختراع على غير مثال سابق ومنه قوله تعالى : ((بديع السموات والأرض)) . . اى مخترعهما على غير مثال متقدم وقوله لمحمد صلى الله عليه وسلم : (قل ما كنت بدعا من الرسل) اى ما كنت اول من ارسله الله الى الخلق بل تقدمنى كثير من الرسل .

ويقال ابتدعت الشئ : اى اخترعته على غير مثال سابق[1] .

فالبدعة : عبارة عن طريقة فى الدين مخترعة تشابه الطريقة الشرعية من غير ان تكون فى الحقيقة كذلك ، يقصد بالسلوك عليها المبالغة فى التعبد لله سبحانه[2] .

وهى : ما احدث على خلاف الحق المتلقى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من علم او عمل او حال بنوع شبهة او استحسان وجعل دينا قويما وصراطا مستقيما[3] .

فالبدعة اذا : ما احدث فى الدين بعد الأكمال[4] فكل ما احدث من اعتقاد او قول ، او عمل ليس عليه دليل فى الشرع يدل عليه ،فهو

---

(١) انظر مادة (بدع) فى الصحاح للجوهرى
، والقاموس المحيط للفيروز ابادى .

(٢) كتاب الأعتصام للشاطبى ج١ ص ٣٦ - ٣٧ .

(٣) الأبداع فى مضار الأبتداع للشيخ على محفوظ ص ٢٦ .

(٤) انظر الصحاح للجوهرى

ابتداع فى الدين وما كان كذلك فهو سعى ضائع ومجهود هدر ، لأنـــه خلاف الحق المتلقى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . . هذا وســوف يكون الكلام فى هذا الموضوع الخطير فى مبحثين اساسيين وهما :_

(المبحث الأول)

في بيان

ان الابتداع في الدين قادح في التوحيد وذاهب بكماله الواجب

لما كان مدار العبادات كلها في الباطن على الاخلاص لله تعالى ، ومدارها في الظاهر على ما شرعه نبي الله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، فانه يجب على كل مسلم ان يعرض قوله وفعله وما ينطوي عليه صدره من اعتقاد ، على ما جاء في كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، فلا يتقرب الى الله بشيء من الطاعات حتى يعلم انه مرضي لله وموافقا لهدى رسوله صلى الله عليه وسلم .. قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله : (ولا يجوز ان يكون الشيء واجبا او مستحبا الا بدليل شرعي يقتضي ايجابه واستحبابه ،والعبادات لا تكون الا واجبة او مستحبة فما ليس بواجب او مستحب فليس بعبادة)(١)

لذا فقد ورد في الكتاب والسنة الأمر بسلوك صراط الله المستقيم ، والتحذير من الابتداع في الدين لما للبدع من مفاسد عظيمة ومخاطر جسيمة على عقائد المسلمين وعباداتهم .

فقال تعالى مرشدا عباده الى سلوك سبيل الحق والهداية والرشاد ،

---

(١) انظر الفتاوى (١/ ٢٦٥) .

ومحذرا لهم من سلوك سبل الغواية والضلال الصارفة عن اتباع صراطه المستقيم ودينه القويم :((وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله))[(١)] قال الأمام الطبرى رحمه الله فى معنى هذه الاية :

(يعنى طريقه ودينه الذى ارتضاه لعباده : قويما لاعوجاج به عن الحق ،فاعطوا به واجعلوه لأنفسكم منهاجا تسلكونه ولا تسلكون طريقا سواه ،ولا تركبوا منهجا غيره ،ولا تتبعوا دينا خلافه من اليهودية ، والنصرانية ،والمجوسية ،وعبادة الأوثان وغير ذلك من الملل فانها بدع وضلالات ، فيتشتت بكم ان اتبعتم السبل المحدثة التى ليست لله بسبل ولا طرق ولا اديان اتباعكم اياها عن طريقه ودينه الذى شرعه لكم وارتضاه وهو الأسلام الذى وصى به الأنبياء وامر به الأمم قبلكم .

وذكر عن ابن عباس ومجاهد فى معنى (السبل) انها الضلالات والبدع والشبهات .

ثم ذكر حديث عبد الله ابن مسعود رضى الله عنه قال : خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا وخط خطوطا عن يمينه وشماله ثم قال : هذا سبيل الله وهذه سبل على كل سبيل منها شيطان

---

(١) سورة الأنعام : ١٥٣ .

يدعو اليه ثم قرأ (وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه) الآية[١] ..

ففي هذا الحديث يضرب صلى الله عليه وسلم مثلا للطريق المؤدي الى الله بالخط المستقيم الذي لا اعوجاج فيه ، ومثلا للسبل الأخرى بخطوط متفرقة لا يمكن ان تجتمع بالخط المؤدي الى الله ابدا .

ولا شك ان المقصود من ضرب الأمثلة في هذا الحديث التحذير من مغبة الانحراف عن شرع الله وهدى رسوله صلى الله عليه وسلم الى متاهات البدع والأهواء .

وفي هذا الحديث الشريف ايضا نقطة هامة يجب التنبه لها وهي : ان كل بدعة مهما كانت مبرراتها والدافع اليها انما هي من عمل الشيطان وتزيينه .. بدليل قوله صلى الله عليه وسلم (وهذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو اليه) .

فالشيطان داعية كل ضلالة واصل كل انحراف عن المنهج المستقيم .

ومما ورد في هذا الباب امره صلى الله عليه وسلم عند الاختلاف والافتراق بلزوم سنته وسنن خلفائه من بعده والابتعاد عن محدثات الأمور فهي بدع وضلالات .

فمن حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه قوله صلى الله عليه وسلم

---

(١) انظر تفسير الطبري جـ ٨ ص ٨٧- ٨٨ .

: (فعليكم بسنتي و سنة الخلفاء الراشدين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ ، واياكم ومحدثات الأمور فأن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة)[١] .

قال ابن رجب رحمه الله : فقوله صلى الله عليه وسلم (كل بدعة ضلالة) من جوامع الكلم لا يخرج عنه شئ .. وهو اصل عظيم من اصول الدين ، وهو شبيه بقوله صلى الله عليه وسلم : (من احدث في امرنا هذا ما ليس منه فهو رد) فكل من احدث شيئا و نسبه الى الدين ولم يكن له اصل في الدين يرجع اليه فهو ضلالة والدين برئ منه وسواء في ذلك مسائل الاعتقادات او الأعمال او الأقوال الظاهرة والباطنة[٢] .

فواجب المسلم ان يلتزم بهدى الكتاب وان ينهج نهج المصطفى صلى الله عليه وسلم فهذان شرطان اساسيان لقبول العمل والأثابة عليه .

كما عليه ان يعلم ان حسن النية وتلمس المبررات لا يعطى عمله المبتدع صفة القبول عند الله .

---

(١) انظر مختصر ابى داود للحافظ المنذرى باب لزوم السنة جـ٣ص١١

(٢) انظر جامع العلوم والحكم ص ٢٣٣ .

البدع تضعف التوحيد أو تزيله

=

فمما لا شك فيه ان الشارع لا ينهى عن شيء الا لما يترتب على المنهى عنه من مضرة تلحق بالمسلم ، وان اعظم مضرة وافدحها هو ما يصيب المسلم فى دينه وان مضار الأبتداع وآثاره السيئة على عقائد المسلمين تكاد تفوق الحصر .

كذلك شدد الشارع فى الأمر باتباع ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، ليحفظ على المسلمين دينهم و يصونه من التحريف والتبديل والزيادة والنقصان الذى حدث فى الأديان السالفة بسبب الأبتداع فيها و لأن التشريع من خصائص الله جل وعلا و المتبدع اما ان يكون قد نافى التوحيد ببدعته او قدح فيه ونقص توحيده .

و كما ان لكل شر مقدمات و بوادر ، فأن الابتداع مقدمة الشرك و بوادره فبسبب الأبتداع اعتقد كثير من الناس و نسبوا الى ذات الله او نفوا عنه ما ليس لهم به علم ، بل خلاف ما جاءهم من الحق .

وبسبب الأبتداع حدث الشرك فى عبادة الله فعبد من دون الله او مع الله ما لم ينزل به سلطانا . . وعن طريق الأبتداع جاء الغلو فى الدين واخترع الناس الوانا من العبادات التى ليس لها مستند شرعى مما جاءت به الرسل وبسبب الأبتداع حدث التحريف والتبديل للأديان السماوية السابقة .

كما حدث التحليل لما حرم الله والتحريم لما احل الله ، افتراء على الله .

كما ان حب البدعة والعمل بها لا يجتمع وحب السنة والمحافظة عليها ، فبقدر ما تتورط الأمة فى الأمور البدعية ، تكون اضاعتها للسنن الشرعية .

ومصداق ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : (ما احدث قوم بدعة الا رفع مثلها من السنة)[1] - رواه الأمام احمد -

بل ان الحال قد يتدرج بصاحب البدعة الى ما هو ابعد من ذلك فمن شدة حبه لبدعته وتعلقه بها ، يتولد عنده جفاء للتوحيد واعراض عنه وكراهية لأهله ، وهذا المعنى قد اوضحه شيخ الأسلام ابن تيمية بقوله : (واهل العبادات المبتدعة يزين لهم الشيطان تلك العبادات ، ويبغض اليهم السبل الشرعية حتى يبغضهم فى العلم والقرآن والحديث ، فلا يحبون سماع القرآن والحديث ولا ذكره .. الى أن قال : وكثير من هؤلاء ينفر ممن يذكر الشرع او القرآن ، او يكون معه كتاب او يكتب وذلك انهم استشعروا ان هذا الجنس فيه ما يخالف طريقتهم ، فصارت شياطينهم تهربهم من هذا كما يهرب اليهودى او النصرانى ابنه ان يسمع كلام المسلمين حتى لا يتغير اعتقاده

---

(١) انظر الفتح الربانى (١ / ١٩٤) وقال : رجح الحافظ ابن حجر رجال الاسناد وقال فى الفتح اسناده جيد .

فى دينه ، وكما كان قوم نوح يجعلون اصابعهم فى آذانهم ، ويستغشون ثيابهم لئلا يسمعوا كلامه ولا يروه ... وهم من ارغب الناس فى السماع البدعى وسماع المعازف ومن ازهدهم فى السماع الشرعى)[1] .

وشيخ الأسلام عندما يقول هذا الكلام انما يقوله عن علم وتجربة ، فقد عاش حياته حاملا للواء التوحيد ، مدافعا عن الكتاب والسنة ومجاهدا اعداء الأسلام بالعلم والسنان واللسان ، ولقد لقى العنت والمشقة من عامة المنحرفين على اختلاف درجاتهم وتباين نياتهم ، فلا غرابة فيما قاله عنهم ، فالرجل قد خبر القوم وسبر اغوارهم ولا ينبئك مثل خبير .

بل ان ما قاله شيخ الأسلام عن اصحاب البدع والأهواء هو ديدن عامة المنحرفين قديما وحديثا .. فكم سمعنا عن اناس معاصرين (مع الاسف الشديد) يبغضون العلماء وطلاب العلم ويكرهون دور العلم الشرعى ويصفون اهله بشتى الألقاب السيئة وينسبون اليهم ما هم منه براء ، وماذلك الا لما لمسوه من مخاطر تتهدد بدعهم التى توارثوها كابرا عن كابر ونشروها بين السذج من الناس كى يستدروا منهم اكبر قدر ممكن من المال ، ويتبوءا عندهم منزلة زائفة مزورة ..

نسأل الله لنا ولهم الهداية وحسن الأتباع .

---

(١) انظر مجموعة الرسائل والمسائل جـ ٥ ص ٩٨-٩٩ .

صاحب البدعة مأزور غير مأجـــور

هذا وان صاحب البدعة مهما تعب واجهد نفسه و تعبد بمـــا لم يأذن به الله ، فأن الله لا يقبل عمله البدعى ولا يثيبه عليه ،كمـــا فى صحيح البخارى عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول اللـــه صلى الله عليه وسلم : (من احدث فى امرنا هذا ما ليس فيه فهو رد) .

فقد وضع صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث : قاعدة عامة وهى ان كـــل عمل خارج حدود الشرع لا يعتد به وبالتالى فهو مردود على عامله .

قال فى الفتح (وهذا الحديث معدود من اصول الأسلام و قاعـــدة من قواعده فأن معناه : من اخترع فى الدين ما لا يشهد له اصل من اصولـه ، فلا يلتفت اليه)[1] اى فهو باطل غير معتد به .

وهذا من اولويات عقوبات صاحب البدعة وهو رد عمله وعدم قبولـــــه فعقوبة المبتدع ليست قاصرة على رفض عمله البدعى بل هو آثم و مــــأزور غـير مأجـور وقد اثبت الله براءة رسوله صلى الله عليه وسلم من كل مبـــتدع خارج على شـرع الله فى بدعته فقال تعالى : ((ان الذين فرقوا دينهـــم وكانوا شيعا لست منهم فى شئ .))[2]

---

(١) انظر الفتح جـ ٥ كتاب الصلح ص ٣٠١-٣٠٢ .

(٢) سورة الأنعام اية : ١٥٢ .

قال ابن كثير رحمه الله : والظاهر ان الآية عامة فى كل من فارق دين الله وكان مخالفا له ، فأن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ،وشرعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق فمن اختلف فيه (وكانوا شيعا) اى فرقا كاهل الملل والنحل والأهواء والضلالات ..

فأن الله تعالى : قد برأ رسوله صلى الله عليه وسلم مما هم فيه .

و روى الأمام البخارى عن انس رضى الله عنه قال : جاء ثلاثة رهط الى بيوت ازواج النبى صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبى صلى الله عليه وسلم فلما اخبروا كأنهم تقالوها ، فقالوا : واين نحن من النبى صلى الله عليه وسلم قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه و ما تأخر .

فقال احدهم اما انا فأنا اصلى الليل ابدا ، قوال آخر انا اصوم الدهر ولا افطر ، وقال آخر انا اعتزل النساء فلا اتزوج ابدا .

فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : انتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ اما والله انى لأخشاكم لله واتقاكم له ، لكنى اصوم وافطر واصلى وارقد ، واتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى)(١) .

فقوله صلى الله عليه وسلم : (فمن رغب عن سنتى فليس منى) يدل على براءته من كل مبتدع فى الدين معرض عن شرع الله القويم حتى ولو كان ذلك يحسن فيه وبنوع من التأويل وهذا يدل على خطر البدعة

---

(١) الفتح جـ ٩ كتاب النكاح ص ١٠٤ .

وعلى عظم اثم صاحبها اذ هو واقع بين امرين احلاهما مر .

فهو اما ان يكون ابتدع بحسن قصد وبنوع من التأويل (كما هو حال كثير من العوام)

ففى هذه الحالة يكون عمله مردود عليه ويكون آثما لخروجه عن حدود الشرع واما ان يكون ابتداعه ناتج عن اعتقاده بأن فعله هو الأفضل والأكمل ، ويعرض عن كل ما خالفه من ادلة الشرع .

ففى هذه الحالة قد يتدرج به الأمر الى الخروج من الملة والعياذ بالله .

قال ابن حجر : وقوله (فليس منى) ان كانت الرغبة ضرب من التأويل يعذر صاحبه فيه : فمعنى (فليس منى) اى على طريقتى ولا يلزم ان يخرج عن الملة ، وان كان اعراضا وتنطعا يفضى الى اعتقاد ارجحية عمله فمعنى (فليس منى) ليس على ملتى لأن اعتقاد ذلك نوع من الكفر (١) .

هذا وقد اخبر صلى الله عليه وسلم ان صاحب البدعة يلحقه من الأثم بقدر ما يلحق العاملين ببدعته من آثام لكونه الأصل فى احداثها .

ففى صحيح مسلم عن ابى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من دعا الى هدى كان له من الأجر مثل اجور من تبعه

---

(١) انظر الفتح ج ٩ ص ١٠٦ .

لا ينقص ذلك من اجورهم شيئا ، ومن دعا الى ضلالة فأن عليه من الأثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا [(١)] .

وهذا مصداق قوله تعالى : (ليحملون اوزارهم كاملة يوم القيامة ومن اوزار الذين يضلونهم بغير علم) [(٢)] .

ولا شك ان هذا من شوم البدعة وآثارها السيئة على صاحبها .

<u>تنبيه :</u>

قد يقال بأن هذا خاص بمن دعا الى بدعته ، اما من لم يدع اليها فليس عليه اثم وانما تكون عقوبته برد عمله فقط .

والواقع ان المبتدع آثم سواء دعا الى بدعته او لم يدع وذلك من وجوه :

<u>أولا :</u> لقوله تعالى : ((ليحملون اوزارهم كاملة يوم القيامة ومن اوزار الذين يضلونهم بغير علم)) .

فذكر ان لهم آثاما مقابل اعمالهم وآثاما اخرى مقابل اضلالهم الاخرين وهذا عام فى كل ما يتعلق بأمور الدين .

<u>ثانيا :</u> ان براءة رسول الله صلى الله عليه وسلم من صاحب البدعة ، دليل على عظم فعله واثمه .

---

(١) كتاب العلم جـ ١٦ ص ٢٢٧ - نووى .

(٢) سورة النحل اية : ٢٥ .

ثالثا : كون عمل المبتدع مردود عليه دليل على انه غير مرضي لله ، وما كان كذلك فهو معصية و مرتكب المعصية آثم .

رابعا : ليس في حديث ابي هريرة الآنف الذكر ما ينفي الآثم من المبتدع وانما فيه زيادة يقصد بها التحذير . . وهو ان اثم المبتدع ليس قاصرا على فعله فقط وانما يلحقه من الآثام بقدر ما يلحق العاملين ببدعته .

ومن حديث جرير بن عبد الله (عند مسلم) ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من سن في الأسلام سنة حسنة فعمل بها بعده كتب له مثل اجر من عمل بها ، ولا ينقص من اجورهم شيء ومن سن في الأسلام سنة سيئة فعمل بها بعده كتب عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من اوزارهم شيء[1] ففي هذا الحديث دليل على ان الأقتداء بالفاعل الأول كاف لأثابته أو عقوبته نتيجة لما يلحقه من افعال المقتدين به وليس فيه اشتراط الدعوة الى فعله .

هذا وقد ترجم الأمام البخاري رحمه الله بما يؤدي معنى حديث ابي هريرة وحديث جرير بقوله :

(باب اثم من دعا الى ضلالة ، او سن سنة سيئة ،لقول تعالى :

((ومن اوزار الذين يضلونهم بغير علم))

ثم ذكر حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : ليس من نفس تقتل ظلما الا كان على ابن آدم الأول

---

(١) كتاب العلم جـ ١٦ ص ٢٢٦ .

كفل منها - وربما قال سفيان من دمها - لأنه سن القتل اولا)[١]

قال فى الفتح :

ووجه التحذير ان الذى يحدث البدعة قد يتهاون بها لخفة امرها فى اول الأمر ولا يشعر بما يترتب عليها من مفسدة وهو ان يلحقه اثم من عمل بها من بعده ولو لم يكن هو عمل بها بل لكونه كان الأصل فى احداثها[٢] .

فجمع حديث ابى هريرة مع حديث جرير مع الاشارة الى صنيع الأمام البخارى رحمه الله ونقل ما قاله الأمام بن حجر فى الموضوع نكون قد ختمنا ما تقدم بما يزيل الالتباس ،ويرفع الأشكال .

والله الهادى الى سواء السبيل .

* * *

---

(١) كتاب الأعتصام بالكتاب والسنة جـ ١٣ ص ٣٠٢ - الفتح

(٢) انظر الفتح جـ ١٣ ص ٣٠٢ .

(المبحث الثاني)

في ذكر نماذج من البدع القادحة في التوحيد التي حدثت في المسلمين

ان بوادر الانحراف وضلال البدع - خاصة البدع الأعتقادية - قد تسلل الى المسلمين في عصر مبكر من عصور الأسلام ، وما فتئت الأجيال تتناقل ما حدث وتتقبل ما يحدث من البدع في الدين وكلما بعد العهد بهدى الكتاب والسنة ازدادت البدع واحدث الناس في دين الله ما لم يكن محدثا من قبل ، وساعد على ذلك انشغال الحكام المسلمين بالقضاء على الفتن الداخلية ومحاربة الخارجين على الدولة الأسلامية ، فانتهز الفرصة اصحاب النوايا السيئة الذين تسللوا الى المسلمين واندسوا في صفوفهم من طريق اتساع الفتوحات الاسلامية حيث اظهروا الاسلام وابطنوا ما من شأنه افساد عقائد المسلمين وعباداتهم .

ولما كان هذا الموضوع - موضوع البدع - انما هو جزء مكمل للبحث فقط ، ولما كانت الأحاطة بكل اطرافه من الصعوبة بمكان : فقد اقتصرت فيه على ذكر نماذج للأمور البدعية التي حدثت في المسلمين - وهي بدع اعتقادية وعملية - نتيجة عدم التزامهم الكامل بهدى كتاب الله الكريم والسنة النبوية المطهرة .

م : البدع الأعتقاديـــــة :

لقد عاش المسلمون فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم والعهـــــد الراشـــدى مهتديـن بهدى الكتاب والسنة بعيدين عن التنطـع فـــى الديـن والخوض فيما لا يعـــنى .

و ما حدث من امور تتعلق بهذا الجانب لم تعد كونها استفســــارا و طلـبا للحـق المقـرر فى الشـــرع .

حتى اذا كثر اتصال المسلمين بغيرهم ،ودخل فيهم من كانـــت غايتـه هـدم الأسـلام وافساد عقائد المسلمين ،و ترجمة الفلسفات الأ جنبية و اتخذ ها المغرضون والمخدوعـون سـلما للخروج على هدى الحنيفيـة السمحـة الميسـرة ، فلهذا او لغيره كـثر الخوض فى مسائل الاعتقـــاد والأمـور الغيبــه ، فطرحــت النصوص الشرعية جانبا وارخيت للأنفس الأعنـــة وكثر القيل والقال و محاولة التعمق المفـرط فى هـذا البـــاب بدعوى تنزيـه الرب سبحانه و تعالى عما لا يليق بجلالـه و كماله ، ودعوى تقوية الايمان بأدراك الأسـرار الغيبية و الوقوف على الحكمة الألهيـــة فى كـل صغـيرة و كـبيرة مما يتعلق بهذا الجانب ، ولقـد اكتفيـــت من ذلك بالتعرض لثلاث مسائل فقـط وجعلت هدفى الأساسى هو معرفـة اعتقــاد السلف فيها المبـ[illegible] على الفهم الصحيح منهم لما دل عليه الكـتاب والسـنة وهذا حـ[illegible]بنا و كافينا وهو ما امرنا باعتقاده والتزامه والرضى بـــــه

والتسليم بما اشكل علينا فيه لمراد الله جل وعلا ومراد رسوله صلى الله عليه وسلم وهذه المسائل هي : مسألة الكلام في القدر ، واسماء الله سبحانه وصفاته ، وكلام الله تبارك وتعالى :

فهي كبريات المسائل التي كثر الجدال والخوض فيها بين المسلمين ، وهي اخطر الأمور الأعتقادية التي عانا ويعاني منها المسلمون قديما وحديثا .

. . . .

وجوب الايمان بالقدر :

ان الأيمان بالقدر جزء من الأمور التي امر المسلم ان يؤمن بها فقد قال تعالى في كتابه الكريم : ((وخلق كل شيء فقدره تقديرا))(١) وقال : ((انا كل شيء خلقناه بقدر))(٢) وقال : ((وكان امر الله قدرا مقدورا))(٣) وقال سبحانه : ((الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى))(٤) .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قصة حديث جبريل عليه السلام

---

(١) سورة الفرقان آية : ٢ .

(٢) سورة القمر آية : ٤٩ .

(٣) سورة الاحزاب آية : ٣ .

(٤) سورة الأعلى آية : ٣ .

انـه قال للنبى صـلى الله عـليه وسلم : اخبرنى عن الايمان : قال صـلى الله عليه وسـلم : الأيمان : ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، واليـوم الاخـر ، وتؤمـن بالقـدر خيره وشـره) (١)

وعن سهل بن سعد الساعدى رضى الله عنه ان رسول الله صلى اللـه عليه وسلم قال : ان الرجل ليعمل عمـل اهل الجنة فيما يبدو للناس وهو مـن اهل النار ، وان الرجل ليعمل عمل اهل النار فيما يبدو للناس وهو مـن اهل الجنة (٢) .

ومن حديث عبد الله بن مسعود ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قـال فأن الرجل منكم ليعمل حتى ما يكون بينه وبين الجنة الا ذراع فيسـبـق عليه كتابه ، فيعمل بعمل اهل النار ، ويعمل حتى ما يكون بينه وبـين النار الا ذراع فيسـبق عليه الكتاب فيعمل بعمل اهل الجنة فيدخلها) (٣)

وعن على بن ابى طالب رضى الله عنه قال كـنا فى جنازة فى بقيـع الغرقـد : فأتانا رسول الله صـلى الله عليه وسلم فقعـد وقـعدنـا حولـه ومعه مخصـرة فنكس رأسه ينكت بمخصرته ثم قال : ما من نفـس منفوسـة الا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار والا قد كتبت شقيـة

---

(١) رواه مسلم ـ انظر النووى كتاب الايمان جـ ١ ص ١٥٦

(٢) رواه البخارى ومسلم

(٣) رواه البخارى ومسلم انظر الفتح (٦/ ٣٠٣) كتاب بدء الخلق

او سعيدة قال : فقال رجل يا رسول الله : افلا نتكث على كتابنا

وندع العمل ؟ فقال من كان من اهل السعادة فسيصير الى عمل اهل

السعادة ،ومن كان من اهل الشقاوة فسيصير الى عمل اهل الشقاوة ،

ثم قال : اعملوا فكل ميسر لما خلق له اما اهل السعادة فييسرون

لعمل اهل السعادة و اما اهل الشقاوة فييسرون لعمل اهل الشقاوة (١)

ثم قرأ : (فأما من اعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى

واما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى (٢) .

فأهل السنة قديما وحديثا مجمعون على الأيمان بما ورد فى كتاب

الله والأيمان بهذه الآثار وغيرها مما يتعلق بهذا الموضوع واعتقادها

وترك المجادلة فيها .

معنى القدر عند السلف :

القدر : علم الله بمقادير الأشياء قبل وقوعها ،و تقديره

لما سبق فى علمه ،وايجاده حسب تقديره ، ووفق مشيئته تبارك و تعالى ،

فهو علم الله وقدرته ،وكتابه ،و مشيئته عز وجل .

قال فى الفتح : والقدر مصدر تقول قدرت الشئ بتخفيف الدال

وفتحها اقدره بالكسر والفتح قدرا و قدرا : اذا احطت بمقداره ،

والمراد ان الله تعالى علم مقادير الأشياء ،وازمانها قبل ايجادها ،

---

(١) متفق عليه انظر الفتح (٣/ ٢٢٥)

(٢) رواه البخارى ومسلم .

ثم اوجد ما سبق فى علمه انه يوجد ، فكل محدث صادر عن علمه ، وقدرته ، وارادته ، هذا هو المعلوم من الدين بالبراهين القطعية وعليه كان سلف الصحابة وخيار التابعين الى ان حدثت بدعة القدر فى اواخر زمن الصحابة [(١)] .

وقال الأمام النووى رحمه الله : "واعلم ان مذهب اهل الحق اثبات القدر ، ومعناه ان الله تبارك وتعالى : قدر الأشياء فى القدم وعلم سبحانه انها ستقع فى اوقات معلومة عنده سبحانه وتعالى ، وعلى صفات مخصوصة فهى تقع على حسب ما قدرها سبحانه وتعالى [(٢)] .

بدعة الكلام فى القدر :

لقد علم ان سلف الأمة وخيارها يؤمنون بما جاء فى الكتاب والسنة فى موضوع القدر ، ويعتقدون ذلك ويسلمون به دون الخوض فيه ، وذلك لقناعتهم التامة بأن القدر سر من اسرار الله التى لم يشأ ان يطلع عليها احدا من خلقه .

وما وحدث من امر فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم وعهد الخلفاء الراشدين يتعلق بالقدر لم يعد كونه استفسارا وطلبا للحق المقرر فى شرع الله بهذا الخصوص .

---

(١) الفتح جـ ١ ص ١١٨ .

(٢) النووى جـ ١ ص ١٥٤ .

غير انه - ومع الأسف - بدأ الخوض والجدل والكلام في هذه المسألة في زمن مبكر وكان الذي تولى كبر هذه البدعة وجهر بنفي القدر رجل من اهل البصرة يقال له معبد بن خالد الجهني حيث قال بنفي القدر وان العبد حر في تصرفاته ومشيئته مطلقة وكان ذلك في اواخر زمن الصحابة رضي الله عنهم فأنكروا ذلك عليه كما انكره عليه عامة التابعين فقد روى الأمام مسلم في صحيحه من حديث يحيى بن يعمر و حميد بن عبد الرحمن الحميري انهما لما سمعا بمقالة معبد الجهني ومن وافقه في القدر بالبصرة ، التقيا بعبد الله بن عمر في الحج واخبراه بمقالة معبد الجهني ومن وافقه في القدر وانهم يزعمون انه لا قدر وان الأمر أنف ، فقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : فإذا لقيت اولئك فأخبرهم اني بريء منهم وانهم برآء مني والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو ان لأحدهم مثل احد ذهبا فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر ، ثم قال : حدثني ابي عمر بن الخطاب - وذكر حديث جبريل - وفيه قال : فأخبرني عن الأيمان : قال : ان تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الأخر ، و تؤمن بالقدر خيره وشره[1] .

وقيل لأبن عباس رضي الله عنهما : ان رجلا قدم علينا يكذب بالقدر فقال دلوني عليه - وهو يومئذ قد عمي - فقالوا له ما تصنع به ؟ فقال والذي

---

(١) النووي ج ١ ص ١٥٦ - كتاب الايمان .

نفسى بيده لأن استمكنت منه لأعضن انفه حتى اقطعه ،ولأن وقعت رقبته بيدى لأدقنها ،الى ان قال : والذى نفسى بيده : لينتهين بهم سوء رأيهم حتى يخرجوا الله من ان يقدر الخير كما اخرجوه من ان يقدر الشر (١) .

هذا وقد ضل فى هذه المسألة طائفتان من الطوائف المنتسبة للاسلام وهما القدرية المعتزلة ، والجبرية الجهمية .

وذلك ان عمرو بن عبيد - زعيم المعتزلة - اخذ بمقالة معبد الجهنى فى القدر و تبعه خلق من اهل البصرة فتبنى المعتزلة هذا الرأى وقالوا : بنفى القدر وان العبد لا يعمل ضمن حدود القدر وانما هو حر طليق وفعله الشر منشأوه مشيئته و اختياره هو وحده وليس لله عليه مشيئة البتة وقد ستروا هذا الرأى تحت كلمة (العدل) وهو احد الأصول الخمسة التى بنوا عليها مذهبهم فقالوا : ان الله عادل لا يخلق الشر ولا يقضى به اذ لو خلقه ثم يعذبهم عليه لكان ذلك جورا والله عادل لا يجور ،وزعموا ان الله شاء الأيمان من الكافر ولكن الكافر شاء الكفر . . وكذلك العاصى شاء المعصية وخالف مشيئة الله ، ولازم هذا القول الفاسد : ان الله تعالى يكون فى ملكه مالا يريد ،ووصفه تعالى بالعجز اذ ان مشيئة الكافر والعاص غلبت مشيئته حيث وقعت

---

(١) شرح الطحاوية ص ١٩٦ .

مشيئة العبد دون مشيئته وهذا من اقبح الاعتقاد تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

ومنشأ ضلالهم في هذا انهم شبهوا افعال الله بأفعال عباده وجعلوا ما يحسن من العباد يحسن منه و ما يقبح من العباد يقبح منه وقالوا : يجب عليه ان يفعل كذا ولا يجوز له ان يفعل كذا وهم مشبهة الأفعال[1] .

و كما جنح المعتزلة عن طريق الحق والصواب بنفيهم للقدر ، فقد ضل كذلك الجبرية الجهمية ، حيث وقفوا في الطرف المقابل للمعتزلة فقالوا : ليس للعبد ارادة ، ولا مشيئة ولا اختيار ، بل هو مجبور في تصرفاته وافعاله ، وان حركاته كحركة الأشجار و الأوراق وكلونه وقصره و طوله ، وان نسبة الفعل للعبد : كقولنا تحركت الشجرة وطلعت الشمس، وغاب القمر .

فجاء مذهب كل من الطائفتين مخالف للحق والصواب ، حيث غلت الجبرية في اثباتهم للقدر بهذه الكيفية ونفيهم ان تكون للعبد مشيئة او ارادة ، كما غلت القدرية - النفاة - في نفيهم للقدر وزعمهم ان للعبد مشيئة مطلقة خارجة عن مشيئة الله .

---

(١) انظر شرح الطحاوية ٤٦٨ .

سبب ضلال الطائفتين ومنشوءه :

هذا وان سبب ضلال الطائفتين في هذه المسألة ومنشوءه هو تسويتهم بين مشيئة الله وارادته ، وبين محبته ورضاه ، فسوى بينهما الجبرية والقدرية ثم اختلفوا فقالت الجبرية الكون كله بقضاء الله وقدره فكل ما يحدث فيه يكون محبوبا مرضيا له .

وقالت القدرية - النفاة - ليست المعاصي محبوبة لله ولا مرضية له فمن ثم فهي ليست مقدرة ولا مقضية وهي خارجة عن مشيئته[1] .

مذهب السلف وسط بين الجبر والنفي :

والمذهب الحق الذي عليه سلف الأمة ان كل شيء بقضاء الله وقدره ، وان الله خالق افعال العباد - كما قال تعالى : (انا كل شيء خلقناه بقدر) ، وقوله : (وخلق كل شيء فقدره تقديرا) .. وان للعبد مشيئة تعمل في حدود المشيئة الألهية كما قال تعالى : ((وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر انا اعتدنا للظالمين نارا احاط بهم سرادقها)[2]

وقوله تعالى : ((وما تشاؤن الا ان يشاء الله ان الله كان عليما حكيما))[3]

---

(١) شرح الطحاوية ص ١٩٨-١٩٩ .

(٢) سورة الكهف : ٢٩ .

(٣) سورة الانسان اية : ٣٠ .

وقوله : ((ما كانوا ليؤمنوا الا ان يشاء الله)) و ((ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا))

وقال صلى الله عليه وسلم (لا تقولوا : ما شاء الله وشاء فلان ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء فلان) [١] .

ففى هذه الأدلة اثبات لمشيئة للعبد تأتى بعد مشيئة الله تبارك وتعالى فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ولا يكون فى ملكه سبحانه ما لا يشاء .

والارادة فى كتاب الله نوعان : ارادة قدرية كونية خلقية وهى المشيئة الشاملة لجميع الحوادث كقوله تعالى :

((ومن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام)) [٢] .

وقوله تعالى عن نوح عليه السلام : ((ولا ينفعكم نصحى ان اردت ان انصح لكم ان كان الله يريد ان يغويكم)) وقوله : ((ولكن الله يفعل ما يريد)) وارادة دينية امرية شرعية وهى المتضمنة للمحبة والرضا كقوله تعالى : ((يريد الله بكم اليسرى ولا يريد بكم العسر)) [٣] وقوله ((يريد الله ليبين لكم)) [٤] وقوله : ((ولا يرضى لعباده الكفر)) [٥] .

---

(١) رواه ابو داود بسند صحيح .

(٢) سورة الأنعام الاية : ١٢٥ .

(٣) سورة هود الاية : ٣٤ .

(٤) سورة النساء اية : ٢٦

(٥) سورة الزمر اية رقم : ٧

وقوله : ((والله يريد ان يتوب عليكم)) [1] . فالله تبارك و تعالى يريد الكفر من الكافر ويشاؤه ، لكنه لا يرضاه ولا يحبه ولا يأمر به فهو يشاؤه كونا وقدرا ولا يرضاه ولا يحبه دينا وشرعا [2] .

وبهذا يتضح خطأ من سوى بين المشيئة والأرادة ، والمحبة والرضا فالقول بأن الكفر والمعاصي غير مشاءة لله ولا مقدرة لأنها غير محبوبة له ولا مرضية والقول بأن كل تصرفات العبد محبوبة لله مرضية له ، وان العبد مسلوب الارادة مجبور بحكم القدر هما رأيان مخالفان :-

للحق والصواب ، اذ لازم القول الأول ان يحدث في ملك الله ما لا يريده ولا يشاؤه وهذا باطل ، ولازم القول بالجبر ، مطالبة العبد بما لا قدرة له على فعله ونهيه عما لا قدرة له على تركه واجتنابه ، لأنه مسلوب الأرادة والمشيئة على زعمهم .

ولهذا قال علماء السلف : الأرادة في كتاب الله نوعان : ارادة كونية قدرية وهي المشيئة العامة التي لا يمكن ان تتخلف ، والعبد له مشيئة وارادة فيما يأتي ويذر من الأعمال في اطار المشيئة الألهية العامة التي تعني علم الله وقدره وكتابه .

---

(١) سورة النساء اية : ٢٧

(٢) انظر شرح الطحاوية ص ١٩٦ .

وارادة : دينية امرية شرعية وهي تعني المحبة والرضا ، فالله لا يريد للعبد بهذا المعنى ولا يأمره الا بما فيه سعادته وفلاحه وهذه الأرادة يجوز ان تتخلف فمن اعانه الله ووفقه لعمل الخير فقد تحققت فيه الأرادتان الكونيه ، والشرعية .

ومن لم يرد ان يعينه ووكله الى نفسه فقد تحققت فيه الأرادة الكونية الأزلية فتفصيل حكمة المولى جل شأنه في خلقه وامره تعجز عن معرفتها والأحاطة بها عقول البشر فواجب المسلم الوقوف عند ما دل عليه الكتاب والسنة في هذا الباب ، وعدم محاولة ادراك ذلك بمحض العقل ، فأن القدر سر الله في خلقه وهيهات لمخلوق ضعيف ان يكشف سره واليك هذه النقول لبعض العلماء الذين ادركوا خطورة الخوض في هذا الباب ، وان سبيل معرفته التوقيف من الكتاب والسنة و ما عليه السلف الصالح

قال ابو المظفر بن السمعاني : سبيل معرفة هذا الباب التوقيف من الكتاب والسنة دون محض القياس والعقل فمن عدل عن التوقيف فيه ضل وتاه في بحار الحيرة ولم يبلغ شفاء العين ولا ما يطمئن به القلب ، لأن القدر سر من اسرار الله تعالى اختص العليم الخبير به وضرب دونه الأستار ، وحجبه عن عقول الخلق ومعارفهم لما علمه من الحكمة ، فلم يعلمه نبي مرسل ولا ملك مقرب ، و قيل ان سر القدر ينكشف لهم اذا دخلوا الجنة ولا ينكشف لهم قبل دخولها . (١)

---

(١) انظر الفتح ج ١١ ص ٤٧٧ .

وعن وهب بن منبه انه قال : نظرت فى القدر فتحيرت ثم نظرت فيه فتحيرت ، ووجدت اعلم الناس بالقدر اكفهم عنه ، واجهل الناس بالقدر انطقهم به[1] .

وهذا الأمام الطحاوى يوضح فى عقيدته ان القدر سر الله ستره عن خلقه و يحذر من النظر فيه و يؤكد ان من اولع قلبه بالخوض فى القدر لن يكون نصيبه من وراء ذلك سوى الريب والظنون والشكوك .

حيث قال رحمه الله :

واصل القدر سر الله فى خلقه لم يطلع على ذلك ملك مقرب ولا نبى مرسل ، والتعمق والنظر فى ذلك ذريعة الخذلان ، وسلم الحرمان ، ودرجة الطغيان ، فالحذر كل الحذر من ذلك نظرا وفكرا ووسوسة فأن الله تعالى طوى علم القدر عن انامه ونهاهم عن مرامه كما قال تعالى فى كتابه ((لا يسئل عما يفعل وهم يسئولون)) فمن سأل لم فعل فقد رد حكم الكتاب ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين الى ان قال رحمه الله : فويل لمن صار قلبه فى القدر قلبا سقيما ، لقد التمس بوهمه فى فحص الغيب سركتيما ، وعاد بما قال فيه افاكا اثيما .[2]

اللهم ارنا الحق حقا وارزقنا اتباعه ، وارنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه ولا تجعله ملتبسا علينا فنضل .

---

(١) شرح الطحاوية ١٦/٦

(٢) شرح الطحاوية (١٩٥-٢٢٠) .

ب : بدعة الكلام فى اسماء الله تعالى وصفاته

ان مسئلة اعتقاد ان لله سبحانه وتعالى اسماء وصفات ذات دلالة ومعانى تدل عليها ، من الأمور التى كثر الخوض فيها بين المسلمين قديما .

وطريقة سلف الأمة وائمتها المهتدين ، الأيمان بأسماء الله وبما وصف به نفسه ووصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم من صفات الجلال والكمال ، وكذا نفى ما نفاه عن نفسه ونفاه عنه رسوله صلى الله عليه وسلم من صفات لا يجوز ولا يليق ان تكون له سبحانه وتعالى ، وعمدتهم فى ذلك الأدلة الشرعية الواردة فى كتاب الله الكريم والثابتة من سنة رسوله الأمين صلى الله عليه وسلم من غير تكييف[1] ولا تمثيل[2] ومن غير تحريف[3] ولا تعطيل[4] .

---

(١) التكييف : هو تعيين الكنه يقال : كيف الشيء اى جعل له كيفية معلومة .

(٢) التمثيل هو التشبيه اى لا يشبه احدا من خلقه ولا يشبهه منهم احد .

(٣) التحريف : هو تفسير النصوص بالمعانى الباطلة كقولهم : استولى بدل (استوى) .

(٤) التعطيل هو نفى المعنى الحق الذى دل عليه الكتاب والسنة للصفات الألهية عن الله وانكار قيامها بذاته او انكار بعضها .

حيث قال الله تعالى : ((الله لا اله الا هو الحى القيوم)) (١)

((هو الله الذى لا اله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون)) (٢) ، هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له مافى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم) (٣) .

وقال تعالى : ((ان الله بالناس لروءف رحيم (٤))) ((والله يسمع تحاوركما ان الله سميع بصير)) (٥) ، ((وان الله على كل شىء قدير)) (٦) ((ان الله بكل شىء عليم)) (٧) ((فعال لما يريد)) (٨) ((ان ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة ايام ثم استوى على العرش)) (٩) ((الرحمن على العرش استوى)) (١٠)

---

(١) سورة البقرة اية : ٢٥٥ .
(٢) سورة الحشر اية : ٢٣ .
(٣) سورة الحشر اية : ٢٤ .
(٤) سورة البقرة اية : ١٤٣ .
(٥) سورة المجادلة اية : ١ .
(٦) سورة البقرة اية : ٢٨٤ .
(٧) سورة المجادلة اية : ٧
(٨) سورة البروج اية ١٦ .
(٩) سورة الأعراف اية : ٥٤ .
(١٠) سورة طه اية : ٥ .

((وكلم الله موسى تكليما)) [1] ((وناداهما ربهما)) [2] ((يد الله فوق ايديهم)) [3] ((ولتصنع على عيني)) [4] ((رضى الله عنهم ورضوا عنه)) [5] ((وغضب الله عليهم ولعنهم)) [6] ((فلما آسفونا انتقمنا منهم)) [7] .

الى غير ذلك من الآيات الواردة فى هذا الباب الدالة على اسماء الله تعالى واتصافه بصفات لا يجوز انكارها او تحريفها عن معانيها ، فلايمان بالله الذى هو اساس الأيمان العام - يستلزم الأيمان بكل ما ثبت له من الأسماء الحسنى والصفات العليا ، قال شيخ الأسلام ابن تيمية رحمه الله : (والأصل فيه - اى فى توحيد الأسماء والصفات - ان يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسله عليهم الصلاة والسلام - نفيا واثباتا فيثبت لله ما اثبته لنفسه و ينفى عنه ما نفاه عن نفسه وقد علم ان طريقة سلف الأمة وائمتها اثبات ما اثبته من الصفات من غير تكييف ولا تمثيل

---

(١) سورة النساء آية : ١٦٤ .

(٢) سورة الأعراف اية : ٢٢ .

(٣) سورة محمد اية : ١٠ .

(٤) سورة طه اية : ٣٩ .

(٥) سورة المائدة اية : ١١٩ .

(٦) سورة الفتح اية : ٦ .

(٧) سورة الزخرف اية : ٥٥ .

ومن غير تحريف ولا تعطيل ، وكذلك ينفون عنه ما نفاه عن نفسه مع اثبات ما اثبته من الصفات من غير الحاد[1] لا في اسمائه ولا في آياته فان الله ذم الذين يلحدون في اسمائه وآياته كما قال تعالى : ((ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في اسمائه سيجزون ما كانوا يعملون))[2] وقال تعالى : ((ان الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا افمن يلقى في النار خير ام من يأتي آمنا يوم القيامة))[3] فطريقتهم تتضمن اثبات الاسماء والصفات مع عدم مماثلة المخلوقات اثباتا بلا تشبيه[4] وتنزيها بلا تعطيل كما قال تعالى : ((ليس كمثله شيء وهو السميع البصير))[5] ففي قوله : ((ليس كمثله شيء)) رد للتشبيه والتمثيل وفي قوله ((وهو السميع البصير)) رد للالحاد والتعطيل))[6] هذا هو الحق الذي جاءت به الأدلة الشرعية فمن حاد عنه فقد خاب فهمه وزلت به قدمه وتعثر في ظلمات بعضها فوق بعض ،ولا ينجيه الا الرجوع الى هدى الكتاب والسنة والايمان بما آمن به سلف الأمة وفضلاؤها وان يسعه في هذا الباب ما وسعهم ، (وقد كان السلف يكرهون الخوض

---

(١) الالحاد هو الميل والانحراف ،وهو في اسماء الله : ومعانيها عن الحق الثابت لها .

(٢) سورة الاعراف اية : ١٨٠ .

(٣) سورة فصلت اية : ٤٠ .

(٤) التشبيه هو التمثيل يقال فلان يشبه فلانا اى مثله فالله لا يشبه احدا من خلقه ولا يشبهه احد من خلقه .

(٥) سورة الشورى اية : ١١ .

(٦) الرسالة التدمرية لشيخ الاسلام ابن تيمية ص ٤-٥ .

وكثرة التعمق في هذا القسم من اقسام التوحيد ويعدون ذلك من البدع المنهي عنها ويبنون التحدث في هذا الجانب على ثلاثة اسس

احدهما : تنزيه الله تبارك وتعالى ان يشبه شيء من صفاته شيئا من صفات المخلوقين ويدل على هذا قوله تعالى : ((ليس كمثله شيء)) وقوله ((ولم يكن له كفوا احد))

الثاني : الأيمان بما وصف الله به نفسه وبما وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم لأنه لا يصف الله اعلم بالله من الله ولا يصف الله بعد الله اعلم بالله من رسوله صلى الله عليه وسلم .

الثالث : عدم محاولة ادراك الكيفية لأن ادراك الكيفية مستحيل [1] لعدم ادراك كيفية الذات فمعرفة الصفات فرع عن معرفة الذات .

فهذا امر غيبي والأمور الغيبية لا تدرك حقائقها وكيفياتها بالأفتراضات العقلية خاصة وانها متعلقة بذات الرب سبحانه وتعالى فالواجب الذي كلفنا به وامرنا باعتقاده هو الألتزام بما جاءت به الأدلة الشرعية ونهينا عن تجاوز ذلك والخوض فيما لا علم لنا به ولا يمكننا ادراكه والوقوف على كنهه وحقيقته قال الله تعالى : ((ولا يحيطون به علما)) [2] ((هل تعلم له سميا)) [3]

---

(١) من محاضرة بعنوان : (منهج ودراسة لآيات الصفات) لفضيلة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله .

(٢) سورة طه اية : ١١٠ .

(٣) سورة مريم اية : ٦٥ .

غير ان بعض الطوائف الأسلامية التى تأثرت بفلسفة الهنود واليونان فى الألهيات لم يقفوا عند حدود الشرع ولم يذعنوا للأدلة الشرعية ، ولم يسعهم ما وسع خيار هذه الأمة واصفياءها ، فأطلقوا لعقولهم العنان وراحوا يخوضون فيما لا علم لهم به ، ولا يمكنهم ادراكه ، فساقتهم شبهاتهم الى متاهات وضلالات لا نهاية لها .

فقالت طائفة - وهم الجهمية - بنفى اسماء الله وصفاته وقالوا ان ما ورد من ذلك مجاز فهى اسماء وصفات لبعض مخلوقاته .

وقالت طائفة اخرى - وهم المعتزلة - بنفى الصفات دون الأسماء وقالوا : ان اثبات الصفات يقتضى تشبيها او تجسيما .

وقالت طائفة ثالثة - وهم الأشاعرة - بأثبات الأسماء وبعض الصفات دون بعض وما اثبتوه منها هو سبع صفات فقط وهى : الحياة ، والعلم والقدرة ، والسمع والبصر ، والكلام - على ما قالوه فى معنى الكلام - والأرادة - وقالوا هذه الصفات لابد منها للذات الألهية وما عدا ذلك فهو مجاز يقصد به لازمه . . فدعوى الجميع ان فى اثبات ما نفاه كل منهم تشبيه للخالق بالمخلوقين ، وهذه دعوى باطلة وزعم مردود لأمور منها :

١) ان نفى ما اثبته الله لنفسه وما اثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم من الأسماء الحسنى والصفات العليا ، مجافاة للأدلة الشرعية واعراض عنها ، وهذا امر لا يجوز مهما كان الهدف من النفى او التأويل .

٢) ليس فيها اثبته الله لنفسه و ما اثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم مشابهة للمخلوقين ، اذ لا يصف الله اعلم بالله من الله ولا يصف الله بعد الله اعلم بالله من رسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

٣) ان ذات الله تبارك و تعالى مغايرة لذوات المخلوقين قطعا فكذلك تكون صفاته مغايره لصفاتهم .

(فالقول فى الصفات كالقول فى الذات ، فأن الله ليس كمثله شىء لا فى ذاته ولا فى صفاته ،ولا فى افعاله ،فاذا كان له ذات حقيقية لا تماثل الذوات فالذات متصفة بصفات حقيقية لا تماثل سائر الصفات ،فاذا قال السائل :ـ

كيف استوى على العرش ؟ قيل له كما قال ربيعة ومالك وغيرهما رضى الله عنهم ((الأستواء معلوم ،والكيف مجهول ،والأيمان به واجب ،والسؤال عن الكيفية بدعة)) لأنه سؤال عما لا يعلمه البشر ،ولا يمكنهم الأجابة عنه ، وكذلك اذا قال : كيف ينزل ربنا الى السماء الدنيا ؟ قيل له : كيف هو ؟ فاذا قال : لا اعلم كيفيته ، قيل له : ونحن لا نعلم كيفية نزوله اذ العلم بكيفية الصفة يستلزم العلم بكيفية الموصوف وهو فرع له وتابع له ...)[1]

وكذلك القول فى سائر الصفات مثل : الوجه ، والكلام ، واليد

---

(١) انظر الرسالة التدمرية لشيخ الأسلام ابن تيمية ص ١٧ـ ١٨ .

والغضب والرضى ... الخ فهى معلومة المعانى مجهولة الكيفية ، فكما ان ذات الله تعالى لا تشبه ذوات خلقه فكذلك صفاته لا تشبه صفاتهم ،وبهذا تنتفى دعوى المشابهة التى فسروا نفيها بزعمهم.

علما بأن نفاة الصفات او بعضها جاؤا بقول متناقض اذ يلزمهم فيما نفوه القول فيما اثبتوه .

كما ان نفاة الأسماء والصفات وقعوا فيما فروا منه بزعمهم حيث شبهوا الله بالمعدومات اذ لا يتصور وجود ذات مجردة من الأسماء والصفات.

قال شيخ الأسلام ابن تيمية رحمه الله : (القول فى بعض الصفات كالقول فى بعض فأن كان المخاطب ممن يقول : بأن الله حى بحياة ، عليم بعلم ،قدير قدرة ، سميع بسمع ،بصير ببصر ، متكلم بكلام ، مريد بأرادة ، ويجعل ذلك كله حقيقة ، وينازع فى محبته ورضاه ،وغضبه وكراهته ، فيجعل ذلك مجازا او يفسره اما بالأرادة ، واما ببعض المخلوقات من النعم والعقوبات فيقال له : لا فرق بين ما نفيته وبين ما اثبته بل القول فى احدهما كالقول فى الآخر ، فأن قلت : ان ارادته مثل ارادة المخلوقين فكذلك محبته ورضاه وغضبه وهذا هو التمثيل ،وان قلت ان له ارادة تليق به كما ان للمخلوق ارادة تليق به قيل لك : وكذلك له محبة تليق به وللمخلوق محبة تليق به وله رضا وغضب يليق به وللمخلوق رضا وغضب يليق به .....

وان كان المخاطب ممن ينكر الصفات ويقر بأسماء ،كالمعتزلى الذى يقول : انه

حى عليم قدير ويتكر ان يتصف بالحياة ، والعلم والقدرة ، قيل له : لا فرق بين اثبات الأسماء واثبات الصفات فأنك ان قلت : اثبات الحياة والعلم والقدرة يقتضى تشبيها او تجسيما لأنا لا نجد فى الشاهد متصفا بالصفات الا ما هو جسم قيل لك : ولا نجد فى الشاهد ما هو مسمى حى عليم قدير الا ما هو جسم .. فأن نفيت ما نفيت لكونك لم تجده فى الشاهد الا للجسم ، فانف الأسماء بل وكل شىء لأنك لا تجده فى الشاهد الا للجسم ، ثم قال رحمه الله : وان كان المخاطب من الغلاة نفاة الأسماء والصفات وقال : لا اقول هو موجود ولا حى ولا عليم ولا قدير ، بل هذه الأسماء لمخلوقاته اذ هى مجاز لأن اثبات ذلك يستلزم التشبيه بالموجود والحى العليم .. قيل له وكذلك اذا قلت: ليس بموجود ولا حى ولا عليم ولا قدير كان ذلك تشبيها بالمعدومات ، وذلك اقبح من التشبيه بالموجودات .... الخ كلامه رحمه الله (١) .

وهكذا نرى كيف جاءت نتائج خوضهم منقوضة ومردودة شرعا وعقلا ، الأمر الذى يؤكد ان طريقة السلف دائما وابدا هى اعلم واسلم ، اعلم لأنها مبنية على احترام النصوص الشرعية ، وعدم مجاراة الهوى .. وتصيد الشبهات فهم هنا اثبتوا لله ما اثبته لنفسه وما اثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم من صفات الكمال والجلال ونفوا عنه ما نفاه عن نفسه او نفاه عنه رسوله صلى الله عليه وسلم اثبات بلا تشبيه ونفى بلا تعطيل

---

(١) الرسالة التدمرية ص ١٣ - ١٥ .

على حد قوله تعالى : ((ليس كمثله شئ وهو السميع البصير)) [1] .

وطريقتهم اسلم ؛ لأنهم تجنبوا الخوض ومحاولة التعمق في امور غيبية لا يمكن ادراك كيفياتها وكنهها بالأفتراضات العقلية التي آلت باصحابها الى اطراح النصوص الشرعية .. ومحاكاة نظريات وفلسفات الأمم السالفة عن الأمور الألهية .

ولم يسعهم ما وسع خيار هذه الأمة واصفياءها .

والله الهادى الى سواء السبيل .

* * *

---

(١) سورة الشورى اية : ١١ .

ج : (بدعة القول بخلق القـــــرآن)

الواقع ان الكلام فى هذه المسألة جزء من الكلام على الاسماء والصفات، غير ان الكلام فى هذه المسألة اخذ حيزا كبيرا من الخلاف ،بين اهل السنة والفرق الأخرى واتسعت دائرته واخذ شكلا متميزا بسبب تبنى الدولـــة العباســية ـ فى بعض عهودها ـ لفكـرة القول بخلق القران ، وبســبب ما وقع لعلماء السنة من امتحان وتعذيب لحملهم على القول بخلق القران .

لذا نلحظ ان العلماء ـ فى تأليفهم ـ اولو هذا الموضوع اهتمامــا كـبيرا و ميزوه على غيره عند الكلام على صفات الله تبارك و تعالى .

منشأ هذه البدعة والأطوار التي مرت بها :

اول من تولى كبر بدعة القول بخلق القران و فتح على المسلمـــين باب شـره رجل يقال له : الجعد بن درهم فى زمن صغار التابعـــين فى اوائل المائة الثانية ،وقد ضحى به خالد بن عبد الله القسرى بواسـط ، حيث خطب الناس فى عيد الأضحى وقال : ايها الناس ضحوا تقبل اللـــه ضحاياكم فانى مضحى بالجعد بن درهم ،انه زعم ان الله لم يتخذ ابراهيم خليلا ولم يكلــم موسى تكليما تعالى الله عما يقول الجعد علوا كبيـــرا ثم نزل فذبحه و كان ذلك بعد استفتاء علماء زمانه فشكروا له ذلك واثـــنوا عليه خيرا ثم اخذ هذه المقالة عنه الجهم بن صفوان السمرقندى وكـــان بخراسان وله اتصال ببعض الفلاسفة وبعض اليهود فقتله سلم بن حوز والـى

خراسان ـ والى الجهم هذا نسبت هذه المقالة التى عرفت بمقالة الجهمية [1] .

غير ان مقالته هذه لم تمت بموته حيث كانت قد فشت فتلقفها وتقلدها بعده المعتزلة ـ وهم عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء الغزال واصحابهما [2] فانتشرت هذه المقالة بأنتشار مذهبهم ،وفى اوائل المائة الثانية ـ فى زمن هارون الرشيد ـ دونوا أصول مذهبهم وبنوه على خمسة اصول ستروا تحتها ما يعتقدونه من الباطل المخالف لهدى الكتاب والسنة .

واصول مذهبهم هى :ـ

١) العدل : وستروا تحته القول بنفى القدر فقالوا ان الله لا يخلق الشر ولا يقضى به وان العبد خالق لجميع افعاله الأختيارية .

٢) التوحيد : وستروا تحته القول بخلق القرأن .

٣) انفاذ الوعيد : فقالوا : ان اوعد الله بعض عبيده فلا يجوز ان لا يعذبهم لأن ذلك خلف و الله لا يخلف الميعاد .

٤) المنزلة بين المنزلتين : فقالوا : ان مرتكب الكبيرة يخرج من الأيمان ولا يدخل فى الكفر .

---

(١) شرح الطحاوية ص ٢٤٠ .

(٢) سموا بذلك لأعتزالهم الجماعة بعد موت الحسن البصرى رحمه الله واتخاذهم مذهبا عرفوا به فيما بعد .

٥) الأمر بالمعروف : وقصدوا به الدعوة الى مذهبهم الفاسد .

كما قالوا : بجواز الخروج على الأئمة اذا جاروا .

وهم مشبهة الأفعال لأنهم قاسوا افعال الله على افعال عباده ، وجعلوا ما يحسن من العباد يحسن منه ، وما يقبح منهم يقبح منه ، وقالوا : يجب عليه ان يفعل كذا ولا يجوز له ان يفعل كذا [1] .

واشتهرت بدعة القول بخلق القرآن واستفحل شرها وقويت وقوى اصحابها فى اواخر عهد المأمون ـ احد حكام الدولة العباسية ـ وذلك فى عام ٢١٨ حيث استطاع اصحابها التأثير عليه حتى تبنى هذه الفكرة وامر بحمل الناس على اعتناقها قسرا ومن امتنع كان مصيره القتل او السجن وقد مات المأمون قبل ان يتم له ذلك (وعندما كتب المأمون وصيته عند وفاته ضمنها بالقول بخلق القرآن ومات وانقطع عمله وهو على ذلك ولم يرجع عنه واوصى اخاه المعتصم ـ وخليفته من بعده بأن يعتقد مايعتقده فى القران وان يدعو الناس الى ذلك كما اوصاه بشيوخ المعتزلة خيرا وان يقربهم ويشاورهم فى اموره [2] .

واشتدت المحنة على العلماء من السلف الصالح ، وكان على رأسهم امام السنة وقامع البدعة الامام احمد بن محمد بن حنبل الشيبانى

---

(١) الفتاوى جـ ١٢ (٥٠٢ - ٥٠٣) .
، شرح الطحاوية : ([illegible] ٤-٤٧٠) .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير : ١٢ : ص ٢٨٠ .

الذى كان امة وحده فى ذلك الموقف العصيب وقد ناله ما ناله من ضرب وسجن وعذاب دام ثمانية وعشرين شهرا حتى فرج الله تلك الغمة عن الاسلام والمسلمين فى عهد المتوكل عام ٢٣٤ هـ . بسبب ثبات ذلك الأمام الفذ واصراره على التمسك بما دل عليه الكتاب والسنة و ما عليه سلف الأمة فى هذه المسألة ، وافحامه للمبتدعة بالحجج القوية والأدلة التى لا لم يستطيعوا ابطالها رغم كثرتهم ومقدرتهم على التدليس و جرأتهم على كتاب الله ووقوف قوة السلطان بجانبهم .

فنصر الله اهل الأيمان والسنة عليهم واذلهم بعد العزة وخذلهم بعد النصرة واشتهر عند عامة الأمة ان القران كلام الله غير مخلوق وان من قال انه مخلوق فقد كفر .

واختفت تلك البدعة بعد العلانية و توارى اصحابها بعد الظهور فلله الحمد والمنة ، و جزا الله علماء السلف عن الدين واهله خيرا .

<u>اشهر الأقوال فى هذه المسألة)</u>

وقد كثرت الأقوال فى هذه المسألة ،وكان اشهرها ثلاثة :

<u>الأول :</u>

وهومذهب السلف الصالح : ان الله تعالى لم يزل متكلما اذا شاء و متى شاء وكيف شاء ، وبصوت يسمع ،وان كلامه صفة من صفاته ،وان نوع

الكلام قديما ، وان لم يكن الصوت المعين قديما ،وان القران كلام اللـــه حقيقـــة غير مخلوق .

وهذا هو القول الحق والأصل لمطابقته لما جاء فى الكتاب والسنة ، وانما اعتقبر قولا من الأقوال بالنسبة لجملة ما قيل فى هذه المسألة ولبيان مذهب السلف فيها .

والأدلة الشرعية على هذا كثيرة جدا :

اولا : من القران الكريـــــم :

قال الله تعالى : ((ومن اصدق من الله قيلا)) (١) ، ((ومن اصدق من الله حديثـــا)) (٢) ، ((واذ قال الله يا عيسى بن مريم)) (٣) ((وتمـــت كلمة ربك صدقا وعـــدلا)) (٤) ، ((وكلم الله موسى تكليما)) (٥) ، ((ولمـا جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه)) (٦) ، ((واذ نادى ربك موســـى ان ائت القوم الظالمين)) (٧)

---

(١) سورة النساء اية : ١٢٢ .

(٢) سورة النساء اية : ٨٧ .

(٣) سورة المائدة اية : ١١٦ .

(٤) سورة الأنعام اية : ١١٥ .

(٥) سورة النساء اية : ١٦٤ .

(٦) سورة الأعراف اية : ١٤٣ .

(٧) سورة الشعراء اية : ١٠ .

، ((و ناداهما ربهما الم انهكما عن تلكما الشجرة))[1] ، ((ويوم يناديهم فيقول ماذا اجبتم المرسلين))[2]،((وان احد من المشركين استجارك فاجره حتى يسمع كلام الله))[3] ، ((وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون))[4]،((يريدون ان يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل))[5] ،
((واتل ما اوحى اليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته))[6] .

ففى هذه الآيات الكريمات وما كان فى معناها : اثبات لصفة الكلام لله حقيقة ، على ما يليق بجلاله وعظمته ، واثبات ان القرآن العزيز ... كلام الله حقا لا تأليف ملك ولا بشر ولم يخلقه الله فى شجر او حجر او فى شىء من مخلوقاته الأخر .

ثانيا : من السنة المطهرة :

وهذه طائفة من الأحاديث النبوية الشريفة ، وهى تدل على الفرض

---

(١) سورة الأعراف اية : ٢٢ .
(٢) سورة القصص اية : ٦٥ .
(٣) سورة التوبة اية : ٦ .
(٤) سورة البقرة اية : ٧٥ .
(٥) سورة الفتح اية : ١٥ .
(٦) سورة الكهف اية : ٢٧ .

وتحمل نفس المعنى :

قال الأمام البخارى رحمه الله تعالى : باب قول الله تعالى :

((ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن اذن له ، حتى اذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلى الكبير)) ولم يقل ماذا خلق ربكم .

ثم اورد قول مسروق عن ابن مسعود : اذا تكلم الله بالوحى سمع اهل السماوات شيئا ، فأذا فزع عن قلوبهم وسكن الصوت عرفوا انه الحق ، ونادوا ماذا قال ربكم قالوا الحق ، ثم اورد رحمه الله جملة من الأحاديث تدل على اثبات صفة الكلام لله عز وجل منها :

عن عبد الله بن انيس قال سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : (يحشر الله العباد فيناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب : انا الملك انا الديان)(1) .

وعن ابى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : (يقول الله يا آدم فيقول لبيك وسعديك فينادى بصوت: ان الله يأمرك ان تخرج من ذريتك بعثا الى النار)

قال فى الفتح قال ابن بطال : استدل البخارى بهذا على ان قول الله قديم لذاته قائم بصفاته لم يزل موجودا به(2) ولا يزال كلامه لا يشبه

---

(1) اى المحاسب المجازى .

(2) مذهب السلف ان كلام الله صفة من صفاته قديم النوع متجدد الآحاد فهو سبحانه يتكلم متى شاء وكيف شاء .

المخلوقين ، ثم قال : وفيه انهم اذا ذهب عنهم الفزع قالوا لمن فوقهم ماذا قال ربكم ؟ فدل ذلك على انهم سمعوا قولا لم يفهموا معناه من اجل فزعهم فقالوا : (ماذا قال) ولم يقولوا ماذا خلق وكذا اجابهم من فوقهم من الملائكة بقولهم : (قالوا الحق) والحق احد صفتى الذات التى لا يجوز عليها غيره لأنه لا يجوز على كلامه الباطل ، فلو كان خلقا او فعلا لقالوا : خلق خلقا انسانا او غيره ، فلما وصفوه بما يوصف به الكلام لم يجز ان يكون القول بمعنى التكوين) (1) .

ومعنى قوله : (حتى اذا فزع عن قلوبهم) : اى حتى اذا جلى عن قلوبهم وكشف عنها الفزع وذهب . . ذكره ابن جرير عن ابن عباس وقتاده .

والمراد بهم الملائكة ، وانما فزع عن قلوبهم من غشية تصيبهم عند سماعهم الله بالوحى (2) .

كما أورد الأمام البخارى رحمه الله جملة من الأحاديث تحت قوله : باب قول الله تعالى : (يريدون ان يبدلوا كلام الله) .

منها حديث ابى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة الى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول : من يدعونى فأستجيب له ، من يسألنى فأعطيه ، من يستغفرنى فأغفر له) .

---

(1) الفتح جـ ١٣ ص ٤٥٣ ـ ٤٥٤ .

(2) انظر التفسير جـ ٢٢ تفسير سورة سبأ .

وعنه ايضا : عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال : قال الله اعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا اذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر) .

الى غير ذلك من الاحاديث التى تدل على ان كلام الله صفة له قائمة بذاته وان كلامه لا يختص بالقران فأنه يلقيه على من يشاء من عباده بحسب حاجتهم فى الاحكام الشرعية وغيرها من مصالحهم (١) .

وقال البخارى رحمه الله : باب ما جاء فى قوله عز وجل : (وكلم الله موسى تكليما) :

ومما أورد فيه حديث ابى هريرة رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال : (احتج آدم وموسى ، فقال موسى : انت آدم الذى اخرجت ذريتك من الجنة ، قال آدم : أنت موسى الذى اصطفاك الله برسالاته وكلامه ثم تلومنى على امر قد قدر على من قبل ان اخلق فحج ادم وموسى) (٢)

فهذا توافق ظاهر بين ماجاء فى القرآن الكريم والسنة المطهرة ، على اثبات صفة الكلام لله عز وجل ، وهذه الآية التى استشهد بها الامام البخارى رحمه الله وصدر بها هذا الباب اقوى حجج اهل السنة لاثبات صفة الكلام لله عز وجل ، وان القرآن كلام الله غير مخلوق .

<u>تنبيــــــه :</u>

لقد تكلم الناس على معنى هذا الحديث كلاما كثيرا ، اورد اقوالهم شيخ الاسلام ابن تيمية ثم افاض وتوسع فى ايضاح المعنى الحق للحديث وقد فهمت من كلامه رحمه الله :
ان موسى عليه السلام انما لام آدم عليه السلام لكونه صار سببا فى اخراج ذريته من الجنة دار النعيم الخالص وتحولهم الى الدنيا دار المتاعب والمصائب لا لأجل ان تارك الأمر مذنب عاص ، حتى يقال ان آدم برر فعله بالقدر كما انه لم يكن قد ظلم اولاده ظلما يوجب ملامه لأنهم انما جاؤا بعد خروجه من الجنة ، فحياتهم ومعيشتهم على الارض امر قدره الله عليهم لا ذنب لآدم عليه السلام فيه ، وذنبه بمخالفته امر ربه قد تاب منه فتاب الله عليه .

وموسى كان اعلم من ان يلومه على معصية قد علم انه تاب منها
وكذلك آدم اعلم من ان يحتج بالقدر فى عدم لوم المذنب على فعله (٣)
والله اعلم .

---

(١) انظر الفتح (٤٦٤ — ٤٦٧) .
(٢) تقدم الكلام على ما يتعلق بمسألة القدر فى هذا الباب .
(٣) انظر الفتاوى جـ ٨ ص ٣١٩ — ٣٢١ .

قال فى الفتح : قال الأئمة : هذه الاية اقوى ما ورد فى الرد على المعتزلة ، قال النحاس - والكلام لصاحب الفتح - اجمع النحويون على ان الفعل اذا اكد بالمصدر لم يكن مجازا فاذا قال : ((تكليما)) وجب ان يكون كلاما على الحقيقة التى تعقل ... الخ كلامه رحمه الله[(١)] .

((نماذج من اقوال بعض الأئمة فى هذه المسألة))

لقد عرفنا موقف الأمام احمد رحمه الله من هذه المسألة - بدعة القول بخلق من محنته التى ابلى فيها بلاء حسنا و خرج منها ظافرا منتصرا معلنا على رؤس الاشهاد (ان القران كلام الله غير مخلوق) كما اتضح لنا مذهب الأمام البخارى من ثنايا الأحاديث التى اوردها فى صحيحه مما يتعلق بهذه المسألة .

وهذه بعض النقول عن بعض الأئمة عبروا من خلالها عما يعتقدونه فى هذا الموضوع ويعتقده السلف الصالح قاطبة :-

قال الأمام ابو حنيفة رحمه الله - فى الفقه الأكبر -: والقران فى المصاحف مكتوب وفى القلوب محفوظ ،وعلى الألسن مقروء ،وعلى النبى صلى الله عليه وسلم منزل .

والقران غير مخلوق ، و ما ذكر الله فى القران عن موسى عليه السلام وغيره وعن فرعون وابليس ،فأن ذلك كلام الله اخبارا عنهم ،وكلام موسى

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص (٤٧٧ - ٤٧٩) وكل ما ذكر من احاديث فى هذا الموضوع اوردها البخارى فى كتاب التوحيد جـ ١٣ .

وغيره من المخلوقين مخلوق ، والقرآن كلام الله لا كلامهم ، وسمع موسى عليه السلام كلام الله تعالى ، فلما كلم موسى كلمه بكلامه الذى هو من صفاته ولم يزل ، وصفاته كلها خلاف صفات المخلوقين ، يعلم كعلمنا ويقدر لا كقدرتنا ، ويرى لا كرؤيتنا ، ويتكلم لا ككلامنا [١] .

فهو يرى رحمه ان القرآن الكريم سواء اكتبه الناس ام حفظوه فى صدورهم ام تلفظوا به بألسنتهم وسواء اكان ذلك انشاء ام اخبارا ؛ فأنه لا يخرج عن كونه كلام الله غير مخلوق ، وان موسى عليه السلام سمع كلام الله حقيقة كما قال تعالى : ((ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه)) ((وكلم الله موسى تكليما)) .

وكما ان صفاته تعالى لا تشبه صفات المخلوقين : فكذلك كلامه الذى هو صفة من صفاته لا يشبه كلام احد من خلقه .

وقال الأمام الطحاوى [١] فى عقيدته : وان القرآن كلام الله منه بدا [٢] بلا كيفية قولا ، وانزله على رسوله وحيا ، وصدقه المؤمنون

---

(١) انظر الفقه الأكبر مع شرحه للملا على القارى ص ٢٣ .

(٢) هو احمد بن محمد بن سلامة الأزدى الطحاوى المصرى ، فقيه محدث ولد حوالى سنة ٢٣٧ وتوفى سنة ٣٢١ من مصنفاته احكام القرآن واختلاف الفقهاء وشرح معانى الاثار ـ انظر معجم المؤلفين ٢/ ١٠٧ والاعلام ١/ ٢٠٦ .

(٣) اى تكلم الله به .

على ذلك حقا ،وايقنوا انه كلام الله تعالى بالحقيقة ،ليس بمخلوق ككلام البرية ، فمن سمعه فزعم انه كلام البشر فقد كفر ، وقد ذمه الله وعابه واوعده[1] بسقر ، حيث قال تعالى : ((سأصليه بسقر فلما اوعد الله بسقر لمن قال : (ان هذا الا قول البشر) - علمنا وايقنا انه قول خالق البشر ،ولا يشبه قول البشر.

قال الشارح رحمه الله[2] : فى مستهل كلامه على هذا (هذه قاعدة شريفة واصل كبير من اصول الدين ضل فيه طوائف كثيرة من الناس ،وهذا الذى حكاه الطحاوى رحمه الله هو الحق الذى دلت عليه الأدلة من الكتاب والسنة لمن تدبرها وشهدت به الفطرة السليمة التى لم تتغير بالشبهات والشكوك والآراء الباطلة[3] .

اما رأى شيخ الأسلام ابن تيمية رحمه الله ومعتقده فى هذه المسألة : فقد بثه فى كتبه وكتاباته عند كل مناسبة تتعلق بهذا الموضوع .

ويمكننا الأكتفاء بما ضمنه هذه الأسطرالجامعة الشاملة ، وقد ذكر انه معتقد السابقين واللاحقين من أئمة هذا الدين : فقال رحمه الله :

---

(١) اى من قال انه كلام البشر .

(٢) الراجح ان اسمه : على بن على بن ابى العز الحنفى تولى القضاء بمصر ثم دمشق وامتحن كغيره من علماء السلف ولد سنة ٧٣١هـ وتوفى سنة ٧٩٢ هـ من مصنفاته التنبيه على مشكلات الهداية ، والنور اللامع ، وهذا الشرح النفيس فى معتقد السلف .
— انظر الدرر الكامنة ٣/ ١٥٩ والأعلام ٤/ ٣٠٣

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص ١٠٦ .

والصواب الذى عليه سلف الأمة ـ كالأمام احمد والبخارى صاحب الصحيح ، فى ((كتاب خلق افعال العباد)) وغيره ،وسائر الأئمة قبلهم وبعدهم ـ اتباع النصوص الثابتة واجماع سلف الأمة ،وهو : ان القران جميعه كلام الله حروفه ومعانيه ،ليس شىء من ذلك كلاما لغيره ولكن انزله على رسوله ، وليس القران اسما لمجرد المعنى ولا لمجرد الحرف بل لمجموعهما وكذلك سائر الكلام ليس هو الحروف فقط ولا المعانى فقط كما ان الانسان المتكلم الناطق ليس هو مجرد الروح ولا مجرد الجسد بل مجموعهما ، وان الله تعالى يتكلم بصوت كما جاءت به الأحاديث الصحاح ،وليس ذلك أصوات العباد ، لا صوت القارىء ولا غيره ،وان الله ليس كمثله شىء لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى افعاله فكما لا يشبه علمه وقدرته وحياته علم المخلوقين وقدرتهم وحياتهم، فكذلك لا يشبه كلامه ـ كلام المخلوق ،ولا معانيه تشبه معانيه ،ولا حروفه يشبه حروفه ولا صوت الرب يشبه صوت العبد ، فمن شبه الله بخلقه فقد الحد فى اسمائه وآياته ومن جحد ما وصف به نفسه فقد الحد فى اسمائه وآياته (١) .

---

(١) الفتاوى ج ١٢ : (٢٤٣ ـ ٢٤٤) .

((شبه المعتزلة والرد عليهـــا))

وليس لهم فيما ذهبوا اليه مستند شرعى ولا قول سلفى وهم مقـــرون بذلك معترفون بـه ـ قال فى شرح الطحاوية : (ولا شك ان مشايخ المعتزلة وغيرهم من اهل البدع مقرون بأن اعتقادهم فى التوحيد ، والصفات ،والقدر : لم يتلقوه لا عن كتاب ولا سنة ولا عن ائمة الصحابة والتابعين لهـــم باحســـان ،وانما يزعمون ان العقل دلهم عليه وانما يزعمون انهم تلقوا من الأئمة الشـــرع [(١)] .

غير انهم اوردوا بعض الشبه التى يزعمون انها تدعم مذهبهم وتؤيـده و مجملهـــا فيمـــا يلـــى :

قالوا :

١) ان اثبات صفة الكلام لله يقتضى تشبيها او تجسيما ، لأنا لا نجـــــد فى الشاهد متصفا بالصفات الا ما هو جســـم .

٢) دخول القرآن فى عموم (كل) فى قوله تعالى : ((الله خالق كل شئ)) والقرآن شئ فيكون مخلوقا .

٣) قوله تعالى : (انا جعلناه قرآنا عربيا) فجعل هنا بمعنى خلق .

٤) قوله تعالى : ((فى البقعة المباركة من الشجرة)) يدل على ان اللـــه خلق الكلام فى الشجرة فسمعه موسى منها .

ـ هذا مجمل شبههم فى دعواهم ان القرآن مخلوق ،وقد اجـــاب العلماء على هذه الشبه بما مؤداه :

---

(١) انظر شرح الطحاوية ص ١١٥

اولا : بالنسبة للشبهة الأولى :

ان الذى دفعهم الى ذلك التصور هو تشبيههم الخالق بالمخلوق اولا ثم فروا من التشبيه الى التعطيل ففروا من سئ الى اسوأ .. هذا ويمكن ان يقال لهم - من باب الالزام - (ولا نجد فى الشاهد ما هو سميع حى ، عليم ،قدير ، الا وهو جسم ، فأن نفيت ما نفيت لكونك لم تجده فى الشاهد الا للجسم ،فانف الأسماء بل وكل شئ لأنك لا تجده فى الشاهد الا للجسم) [1] هذا ودعوى التشبيه منفية لأن الله يتكلم كما يليق بجلالة وقد اخبر تعالى بأن الايدى تتكلم والأرجل تشهد وان الجلود تنطق وكذا ما ورد من تسبيح الحصى والطعام وتسليم الحجر كل ذلك بلا فم يخرج منه الصوت فنحن نؤمن بذلك ولا نعلم كيفيته) [2] .

ثانيا : بالنسبة للشبهة الثانية :

فالحق ان عموم كل فى كل موضع بحسبه ويعرف ذلك بالقرائن كما قال تعالى : ((تدمر كل شئ بأمر ربها)) فأصبحوا لا يرى الا مساكنهم)) وقوله عن بلقيس : ((واوتيت من كل شئ)) .

فأن مساكنهم شئ ولم تدخل فى عموم كل شئ دمرته الريح ، واوتيت بلقيس كل شئ يحتاجه الملك .

فيكون المراد من قوله : (خالق كل شئ) : اى كل شئ مخلوق ،

---

(١) الرسالة التدمرية

(٢) شرح الطحاوية (١٠٨)

وكل موجود سوى الله فهو مخلوق ، ولم يدخل فى العموم الخالق تعالى وصفاته ،ومنها صفة الكلام ..

فكلام الله صفة من صفاته وبه تكون الأشياء المخلوقة اذ بأمره تكون المخلوقات ، قال تعالى : ((والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره الا له الخلق والأمر)) .. ففرق بين الخلق والأمر فلو كان الأمر مخلوقا للزم ان يكون الأمر مخلوقا بامر آخر والآخر بآخر الى ما لا نهاية وكذلك للزم ان تكون كل صفاته مخلوقة كالعلم والقدرة فأنها اشياء واعتقاد ذلك كفر ومن تناقضهم ان افعال العباد عندهم غير مخلوقة لله تعالى وانما يخلقها العباد فأخرجوها من عموم كل وادخلوا كلام الله فى عمومها مع انه صفة من صفاته به تكون الأشياء المخلوقة .

ثالثا :

اما استدلالهم بقوله تعالى : ((انا جعلناه قرآنا عربيا)) فأن جعل اذا كان بمعنى خلق يتعدى الى مفعول واحد ، كقوله تعالى : ((وجعل الظلمات والنور)) وقوله ((وجعلنا من الماء كل شىء حى)) .. واذا تعدى الى مفعولين لم يكن بمعنى خلق كقوله تعالى : ((ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا)) ـ وقوله : ((الذين جعلوا القرآن عضين)) ، ومنه قوله تعالى : ((انا جعلناه قرآنا عربيا))

رابعـــــــا :

اما استدلالهم بقوله تعالى : ((في البقعة المباركة من الشجـــرة))
فهذا استدلال باطل وقد عموا عما قبل هذه الكلمة وما بعدها : فأن اللـــه تعالى قال : ((فلما اتاها نودى من شاطئ الوادى الأيمن)) والنـــــداء هو الكلام من بعـد فسمع موســى النـداء من حافـة الوادى ، ثم قال : ((في البقعة المباركة من الشجـرة)) - اى ان النداء كان في البقعـــة المباركة ،من عـند الشجرة ، كما يقول سمعت كلام زيد من البيت يكـــون من البيت لأبتداء الغاية لا ان البيت هو المتكلم ،ولو كان الكلام مخلو قـــا في الشجـرة لكانت الشجرة هي القائلـة : (يا موسى انى انا الله رب العالمين)) وهل قال ((انى انا الله رب العالمين)) غير رب العالمين ؟
ولو كان هذا الكلام بدا من غير الله لكان قول فرعون (انا ربكم الاعلى) - صدقا اذ كل من الكلامين عندهم مخلوق قد قاله غير الله .

ويلزم من ذلك ايضا ان ما حدثه من كلام في الحيوانات والجمـــادات كلامه سواء كان كذبا او كفرا تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

وعندما تستشهد الأسماع والأبصار والجلود على اصحابها بمـــا كانوا يعملون ويقولون لجلودهم لم شهدتم علينا تقول لهم : (انطقنا الله) ولم تقل نطق الله [1] والرسل الذين اخبروا الناس بأن الله قال ونـادى

---

(١) شرح الطحاوية (١٠٩ - ١١٣).

وناجى لم يفهموهم ان هذه مخلوقات منفصلة عنه بل الذى افهموهم اياه ان الله نفسه هو الذى تكلم والكلام قائم به لا بغيره وانه هو الذى تكلم به وقاله [1] .

هذا وان مما قاله المعتزلة ايضا : ان اضافة الكلام الى الله اضافة تشريف كبيت الله وناقة الله ، فقط وليس معنى : كلام الله ، انه هو المتكلم به :

وقد اجيب عن ذلك بأن المضاف الى الله معان واعيان : فأضافة الأعيان الى الله للتشريف وهى مخلوقة كبيت الله وناقة الله .

بخلاف اضافة المعانى : كعلم الله ،وقدرته ،وكبريائه ،وكلامه ،فأنها صفات له وما يمكن ان يكون شىء منها مخلوقا .

وما يذكر بالمناسبة فى هذا المجال : ان احد المعتزلة قال لأبى عمرو بن العلا : اريد ان تقرأ (وكلم الله موسى تكليما) بنصب اسم الله ليكون موسى هو المكلم لا الله فقال له ابو عمرو : هب انى قرأت هذه الآية كذا فكيف تصنع بقوله تعالى : ((ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه)) فبهت المعتزلى .

هذا وان فرقة المعتزلة من اخطر الفرق الضالة ،التى اوجدت

---

(١) شرح الطحاوية : ١١٧ .

البلبلة فى عقائد كثير من المسلمين و فتحت عليهم باب القيل والقال و نأت بهم عن منهل الشريعة الصافى الى رواسب الفلسفات العقلية والظنون الوهمية .

وان من اعظم ضلالهم واضلالهم هذة الفرية ـ فرية القول بخلق القرآن ـ ولكن ولله الحمد قد هيأ الله من تصدى لهم من العلماء وائمة الدين ففندوا كل مزاعمهم ودحضوا جميع شبههم بالحجة والبرهان ، وفى مقدمتهم امام اهل السنة وقامع البدعة الأمام احمد بن حنبل رحمه الله ،والأمام البخارى ، وابن خزيمة ،واللالكائى وشيخ الأسلام ابن تيمية ،والأمام ابن القيم ،والأمام ابو جعفر الطحاوى ،والقاضى على بن ابى العز الحنفى ـ وعبد العزيز الكنانى الذى كانت له معهم مواقف مباشرة وغيرهم كثيرون فيأ مكان من اراد البسط والمزيد مراجعة كتبهم .

فجزاهم الله عن الأسلام والمسلمين خير الجزاء .

* * *

القول الثالث: قول الكلابية[1] والأشعرية[2] ومن وافقهم:

فقالوا : ان كلام الله معنى واحدا قائم بذات الله هو الأمر بكل مأمور امر الله به والخبر عن كل مخبر اخبر الله عنه ، ان عبر عنه بالعربية كان قرآنا ،وان عبر عنه بالعبرية كان توراة ، وان عبر عنه بالسريانية كان انجيلا[3] .

وقد جاءت شهرة هذا القول من كثرة الأتباع بعد ما حدثت بدعة القول بخلق القرآن فى اوائل المائة الثانية ،حيث ارادوا التوسط به بين مذهب السلف ـ المشبهة فى اعتقادهم ـ ومذهب المعتزلة فى هذه المسألة ،وقد جاء قولهم هذا اشبه ما يكون بقول دعاة التقارب بين الأسلام والنصرانية ،وبين السنة والشيعة ،فدعاة التقارب والتفاهم مع النصرانية ينادون بعقد المؤتمرات واللقاءات والندوات معهم لقصد الوصول الى نقاط تكون محل اتفاق بين المسحية والأسلام . . فأذا قيل لهم هل تريدون من المسلم ان يعتقد بأن الله ثالث ثلاثة ؟ وان المسيح عليه السلام قتل ثم صلب ؟ وان يعتقد حل الربا ،واكل الميتة ولحم الخنزير ؟ يقولون : لا فأذا قيل لهم ما معنى التقارب اذا الذى تنادون به ؟ قالوا : المهم ان يكون هناك تفاهم وتقارب .

---

(١) وهم اتباع عبد الله بن سعيد بن كلاب .
(٢) يقال فى التعريف بالأشاعرة : هم الذين اخذوا بمذهب ابى الحسن الاشعرى فى الصفات قبل رجوعه الى العقيدة السلفية الصافية .
(٣) انظر شرح الطحاوية .

وكذا من ينادون بالتقارب بين السنة والشيعة فأنهم يقولون : لا بد من اتفاق المسلمين وتقاربهم وتوحيد كلمتهم ووحدة صفهم فلا داعي لهذه الفرقة وهذا الأنقسام : ، فاذا قيل لهم اتريدون من اهل السنة ان يعتقدوا نقصا ن القران ؟ ويطعنوا في اصحاب رسو ل الله صلى الله وسائر سلف الأمة وبالتالي ينتكروا لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم التي هي المصدر الثاني من مصادر التشريع و يطعنوا فيها ؟ وان يؤمنوا بقصة الأفك ويكذبوا القرآن في براءة ام المؤمنين رضي الله عنها ؟ يقولون : لا فاذا قيل لهم : ما معنى التقارب اذا ؟ قالوا : المهم التقارب والاتفاق و اجتماع الكلمة ،و يكفي انهم ينادون بأسم الأسلام.

وقد فاتهم جميعا قول الله تعالى : ((يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى اولياء بعضهم اولياء بعض ومن يتولهم منكم فأنه منهم ،وقوله تعالى : ((ولن ترضى عنك اليهود والنصارى حتى تتبع ملتهم)).

وقد فاتهم ايضا ان مذهب الشيعة واعتقادهم اليوم ما هو الا بند من بنود اخطر مؤامرة حيكت ضد الأسلام والمسلمين بدأت باستشهاد الخليفة الراشد الثاني امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه واستشهاد الخليفة الراشد الثالث امير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه ولا زال المسلمون يعانون من ويلات ذلك الأتفاق الثنائي بين المجوسية واليهود .

وقد فاتهم ايضا ان عدوا الله ابن سبأ كان اكبر متآمر ضد الأسلام وخليفة المسلمين كل ذلك تم تحت شعار الحرص على مصلحة الأسلام والمسلمين .

فليس فى مقدور دعاة التقارب الأفصاح عما يضمرون او ايضاح ما به يبادرون لأنهم يقولون ما لا هم يتصورون ، فلا غرابة ان لا يعقله عنهم الآخرون .

ولنعد الآن الى صلب الموضوع:

فالأشاعرة يقولون : كلام الله معنى واحد قائم بذات الله وهو صفة من صفاته - المقررة عندهم - غير مخلوق ، والقرآن الذى بأيدينا عبارة عن كلام الله وليس هو كلامه الحقيقى ، فكأنهم أرادوا بهذا القول : الوساطة والتقريب بين مذهب المعتزلة و مذهب المشبهة - بزعمهم - فقالوا : المراد بقولنا كلام الله الذى هو صفة من صفاته : كلام نفسى ليس له حرف ولا صوت ، وهو ضد السكوت والخرس وحقيقة القران واصله كلام الله النفسى ، والقرآن الذى بأيدينا عبارة عن كلامه النفسى ، فلم يسمع الملك منه حرفا ولا صوتا بل فهم معنى مجردا ثم عبر عنه .

لذا جاء قولهم هذا غير مفهوم ولا معقول فلا قالوا بقول السلف فأخذوا بهدى الكتاب والسنة ، ولا قالوا بقول المعتزلة فاستراحوا واراحوا - وان كان مآله اليه - يقول شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله : (واما ما يدعونه من (الكلام النفسانى) فذاك لا يعقل ان من خلاعته

كان ساكتا او اخرس ، فلا يدل بتقدير ثبوته على ان الخالق عنه يجب ان يكون ساكتا او اخرس وايضا : فالكلام (النفسانى) الذى اثبتوه لم تثبتوا ما هو ؟ ولا تصور تموه واثبات الشىء فرع تصوره فمن لم يتصور ما يثبته كيف يجوز ان يثبته ؟ ولهذا كان ابو سعيد بن كلاب ـ رأس هذه الطائفة واماما فى هذه المسألة ـ لا يذكر فى بيانها شيئا يعقل بل يقول هو معنى يناقض السكوت والخرس ، والسكوت والخرس انما يتصوران اذا تصور الكلام فالساكت هو الساكت عن الكلام والأخرس هو العاجز عنه او الذى حصلت له آفة فى محل النطق لتمنعه عن الكلام وحينئذ فلا يعرف الساكت و الأخرس حتى يعرف الكلام ولا يعرف الكلام حتى يعرف الساكت والأخرس ـ فبين انهم ـ والكلام له رحمه الله ـ لم يتصوروا ما قالوه ولم يثبتوه(١) .

فقولهم : ان القرآن عبارة عن كلام الله وليس هو كلام الله الحقيقى يلتقى مع قول المعتزلة (بخلق القرآن) غير ان المعتزلة قالوها صريحة من غير مبالاة ، اما هؤلاء فقد لبسوا الحق بالباطل فانخدع بقولهم الجماهير من المسلمين بأعتباره المذهب الحق المخالف لمذهب المعتزلة فكان ضرره اشد من ضرر مذهب المعتزلة فى هذه المسألة وذلك بالنسبة لانجذاب الناس اليه وانخداعهم به .

فالله سبحانه وتعالى يقول وقوله الحق : (وان احد من المشركين

---

(١) الفتاوى جـ ٦ (٢٩٥ - ٢٩٦)

استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله) ولا شك ان المقصود بكلام اللـــه هنا القرآن الكريم فالقول بان القرآن عبارة عن كلام الله وليس هو كـــلام الله حقيقــة محادة لله و مضادة لكلامه و مجافاة لنص القرآن .

قال فى شرح الطحاوية : (والآية تدل على فساد قول من قال : ان المسموع عبارة عن كلام الله وليس هو كلام الله ، فأنه تعالى قال : (حتى يسمع كلام الله) ولم يقل حتى يسمع ما هو عبارة عن كلام الله ، والأصل الحقيقـــة ومن قال ان المكتوب فى المصاحف عبارة عن كلام الله او حكايـــة كلام اللـــه وليس فيها كلام الله : فقد خالف الكتاب والسنة وسلف الأمة وكفى بذلـــك ضـــلالا .) [1]

والله سبحانه وتعالى : قد تحدى الجن والأنس مجتمعين ان يأتـــوا بمثل هذا القرآن الذى هو بين ايدينـــا فقال جل ذكره : (قـــل لئـــن اجتمعـــت الأنس والجـــن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثـــله ولو كان بعضهم لبعض ظهـــيرا) ولا شك ان الاشارة انما هـــى الى هذا القرآن المتلو المسموع ، وليست الى ما فى نفس الله اذ ان ما فـــى نفسه سبحانه لم يسمعوه ولم يعرفوه ولا حيلة لهم فى الوصول اليه ولا الـــى الوقوف عليه كما أخـــبر الله عن عيسى عليه السلام انه قال : ((تعلم ما فـــى نفســـى ولا اعلـم ما فـى نفســك)) [2] [3]

---

(١) شـرح الطحاوية ص ١٢٠ .

(٢) سـورة المائـــدة ١١٦

(٣) شـرح الطحاويـة

فكيف يقال ان معنى (حتى يسمع كلام الله) اشارة الى ما هو عبارة عن كلامه النفسي ؟

((شبهة اصحاب هذا القول والرد عليها))

هذا وليس (للنفسانيين) ادلة معقولة يستندون اليها ، وانما هي شبه لا يمكن اعتبارها ادلة مقنعة ،والسبب انهم لم ينظروا في الأدلة الشرعية اولا ثم يهتدوا بهداها و يستنيروا بنورها ،وانما راحوا يفترضون افتراضات عقلية ثم ذهبوا يلتمسون لها الأدلة الشرعية والأفتراضات العقلية في هذا الباب قد تصيب مرة ولكنها تخيب الف مرة و من باب التلبيس على الخلق جاؤ بشبه قالوا عنها ادلة لما ذهبوا اليه فكان من ابرزها ما يلي :

أولا :

قال (النفسانيون) ان المتكلم لا يسمع كلامه الا اذا كان ذا مخارج للحروف والأصوات وهذه صفة كلام المخلوقين ،فالقول بأن كلام الله بحرف وصوت : يقتضي تشبيه الله بخلقه ،والباري جل شأنه ليس بذى مخارج وكلامه ليس بحرف ولا صوت ،فاذا فهمناه ثم تلوناه بحروف واصوات محدثة مخلوقة لأنه ليس كلام الله الحقيقي بل هو عبارة عنه .

فحجتهم هذه حجة داحضة و شبهتهم شبهة واهية ،فقد اخبر سبحانه وتعالى بأن بعض مخلوقاته تتكلم وهي ليست من ذوات المخارج

قال الأمام احمد رحمه الله : (واما قولهم : ان الكلام لا يكون الا من جوف وفم وشفتين ولسان ، اليس الله قال للسموات والأرض: (ائتيا طوعا او كرها قالتا اتينا طائعين). وقال : (وسخرنا مع داود الجبال يسبحن) اتراها سبحت بجوف وفم ولسان وشفتين ؟ والجوارح اذا شهدت على الكافر فقالوا : (لم شهدتم علينا قالوا انطقنا الله الذى انطق كل شىء) اتراها انها نطقت بجوف وفم ولسان ، ولكن الله انطقها كيف شاء من غير جوف ، ولا فم ،ولا شفتين ،ولا لسان) (١) .

ولا شك ان الحامل لهم على النفى هو التشبيه والقياس على صفات المخلوقين وهو قياس فاسد فأن الله سبحانه و تعالى لا يشبهه احد لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى افعاله .

وقد ساق الأمام البخارى مجموعة من الأحاديث النبوية فى اثبات الكلام والصوت لله جل شأنه منها ما رواه عن جابر عن عبد الله بن انيس قال : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : (يحشر الله العباد فيناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب : انا الملك انا الديان) .

فقال ابن حجر رحمه الله فى معرض كلامه على الأحاديث المشار اليها ، و معقبا على احتجاج النفاة بالقياس على اصوات المخلوقين :

---

(١) الرد على الجهمية والزنادقة ص ١٣١ .

وحاصل الاحتجاج للنفى الرجوع الى القياس على اصوات المخلوقين لأنها التى عهد انها ذات مخارج ولا يخفى ما فيه ،اذ الصوت قد يكون من غير مخارج كما ان الرؤية قد تكون من غير اتصال اشعة ،وصفات الخالق لا تقاس على صفة المخلوق ، واذا ثبت ذكر الصوت بهذه الأحاديث الصحيحة وجب الأيمان به) [(١)] .

فمذهب السلف : ان الله تعالى يتكلم بصوت يسمع كما دلت على ذلك الأدلة الشرعية وان صوته لا يشبه اصوات خلقه كما ان ذاته لا تشبه ذواتهم .

قال الامام البخارى رحمه الله وان الله عز وجل ينادى بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب فليس هذا لغير الله جل ذكره ، قال ابو عبد الله : وفى هذا دليل ان صوت الله لا يشبه اصوات الخلق لأن صوت الله جل ذكره يسمع من بعد كما يسمع من قرب وان الملائكة يصعقون من صوته فاذا نادى الملائكة لم يصعقوا وقال عز وجل : (فلا تجعلوا لله اندادا)) فليس لصفة الله ند ولا مثل ولا يوجد شئ من صفاته فى المخلوقين) [(٢)] .

وبهذا وما كان فى معناه من الأدلة الشرعية واقوال السلف تسقط شبهة من شبه (النفسانيين) فى هذه المسألة .

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٤٥٨ من كتاب التوحيد .

(٢) خلق افعال العباد ص ٥٩ .

ثانيـــا :

قال النفسانيون : وردت ادلة تدل على ان الكلام يطلق على المعنى القائم بالنفس واحتجوا بقوله تعالى : (ويقولون فى انفسهم)[١] وقـــول امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه يوم السقيفة : (كنت قـــــد هيأت كلاما اعجبنى ،وفى رواية اخرى وكنت قد زورت مقالة اعجبـــــتنى حيث سمى تحضير الكلام وتهيئته فى نفسه كلاما قبل التلفظ به .

وقد اجاب علماء السلف عن هذا بجوابين :

احدهما : ان الكلام يأتى مطلقا و مقيدا فاذا كان مطلقا فأنما يـــــراد به اللفظ والمعنى جميعا وليس المعنى وحده ،اما اذا قيد الكـــــــلام بالنفس ونحوها : فأن دلالته خلاف دلالة المطلق ،وهنا قيد الكـــــــلام بالنفس فليس لهم فيه حجـــة)[٢] .

فلـــفظ "القول" و " الكلام و ما تصرف منهما انما يصرف فى القــرآن والسنة وسائــر كلام العرب اذا كان لفــظا و معنى ،ولم يكن فى مسمـــى الكـلام نزاع بين الصحابة والتابعين لهم بأحسان وانما حصل الـــنزاع بين المتأخرين من علماء هل البــدع ثم انتشــر "[٣]

الجواب الثانى : ورود احاديث تنفى ان يكون حديث النفس كلاما :ـ

---

(١) سورة المجادلة اية : ٥٨ .

(٢) انظر التفاوى جـ ١٥ ص ٣٥ .

(٣) شرح الطحاوية : ١٢٥ .

روى الامام البخارى فى صحيحه عن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال : (ان الله عز وجل يحدث من امره ما يشاء ، وان مما احدث ان لا تكلموا فى الصلاة) [(١)]

وقال صلى الله عليه وسلم : (ان صلاتنا هذه لا يصلح فيها شىء من كلام الناس) [(٢)] .

وروى البخارى فى صحيحه ايضا عن ابى هريرة رضى الله عنه قال : (ان الله تجاوز لأمتى عما وسوست او حدثت به انفسها ما لم تعمل به او تكلم) [(٣)] .

فهذا يرد قولهم ان الكلام هو المعنى القائم بالنفس وذلك انه ما من انسان الا وتخطر له بعض الخواطر فى صلاته ولو كان حديث النفس يعتبر كلاما لبطلت صلاته لمخالفته لأمر الله حيث نهى عن الكلام فى الصلاة .

فعندما اتفق العلماء على ان المصلى اذا تكلم فى الصلاة عامدا لغير مصلحتها بطلت صلاته ، واتفقوا كلهم على ان ما يقوم بالقلب من تصديق بأمور دنيوية وطلب لا يبطل الصلاة ، وانما يبطلها التكلم بذلك فعلم اتفاق المسلمين على ان هذا ليس بكلام) [(٤)]

---

(١) الفتح جـ ١٣ كتاب التوحيد ص ٤٩٦ باب قوله تعالى "كل يوم هو فى شأن ... الخ " .

(٢) رواه الامام مسلم .

(٣) الفتح جـ ١١ كتاب الأيمان والنذور ص ٥٤٨ - ٥٤٩ .

(٤) شرح العقيدة الطحاوية ص ١٢٥ .

وفى هذه الأحاديث ايضا اخبر صلى الله عليه وسلم ان اللـه لا يؤاخذ العبد بما يحدث به نفسه من الأمور المنهى عنها ما لم ينفذ ذلك فعلا او قولا (ففرق بين حديث النفس وبين الكلام) ،واخبر انه لا يؤاخذ به حتى يتكلم به ،والمراد حتى ينطق به اللسان باتفاق العلماء ،فعلم ان هذا هو الكلام فى اللغة لأن الشارع انما خاطبنا بلغة العرب) (1) .

و مما اخذه العلماء على (النفسانين) استدلالهم فى هذا الجانب الهام من امر العقيدة ببيت من الشعر ينسب الى الاخطل النصرانى زعموه دليلا على ان الكلام هو المعنى القائم بالنفس حيث قال :

ان الكلام لفى الفؤاد وانما ٭٭ جعل اللسان على الفؤاد دليلا

وهذا استدلال فاسد لمخالفته لمعنى الكلام فى القرآن والسنة وكلام العرب ـ وهو ان يكون من مجموع اللفظ والمعنى ـ وقد تقدم بيان ذلك من كلام العرب والأحاديث النبوية .

و مما يؤكد فساد هذا الأستدلال ان من لازمه ان يسمى الأخرس متكلما لقيام الكلام بقلبه وان لم ينطق به ولم يسمع منه ، فكيف يترك المعنى الصحيح الذى دل عليه الشرع واللغة ويؤخذ بقول نصرانى ،وقد علم ان النصارى قد ضلوا فى معنى الكلام حيث زعموا ان عيسى عليه السلام هو نفس كلمة الله وقالوا اتحد اللاهوت بالناسوت اى : شئ من الأله بشئ من الناس ولذا عاب عليهم ـ على النفسانيين ـ العلماء هذا التصرف

---

(1) المصدر السابق .

الخاطئ في الاستدلال .

فقال الإمام ابن القيم رحمه الله في نونيته عائبا على النفسانيين تصرفهم ، وموضحا مذهب النصارى وعقيدتهم في هذا الباب :

ودليلهم[1] في ذاك بيت قاله ∴ فيما يقال الأخطل النصراني ..

يا قوم قد غلط النصارى قبل في ∴ معنى الكلام وما اهتدوا لبيان

ولأجل ذا جعلوا المسيح إلههم ∴ إذ قيل كلمة خالق رحمن

ولأجل ذا جعلوه ناسوتا ولا ∴ هوتا قديما بعد متحدان[2]

ولنستمع إلى هذا التعقيب الجميل لشارح الطحاوية في معرض رده على النفسانيين في هذه النقطة بالذات حيث قال : (وهنا معنى عجيب وهو : أن هذا القول له شبه قوي بقول النصارى القائلين باللاهوت والناسوت ، فأنهم يقولون : كلام الله هو المعنى القائم بذات الله الذي لا يمكن سماعه ، وأما النظم المسموع فمخلوق .

فأفهام المعنى القديم بالنظم المخلوق يشبه امتزاج اللاهوت بالناسوت الذي قالته النصارى في عيسى عليه السلام ، فانظر إلى هذا الشبه ما أعجبه[3] .

---

(١) اي النفسانيين .

(٢) النونية مع شرحها للدكتور الهراس ص ١٠٠ .

(٣) شرح الطحاوية ص (١٢٤- ١٢٥) .

الشبهة الثالثة : قالوا ان قوله تعالى : (انه لقول رسول كريم) (1)

يدل على ان القرآن عبارة عن كلام الله وليس هو كلامه الحقيقى ، اذ ان اسناد القول الى الرسول دليل على انه هو الذى احدثه ،وهو اما جبريل عليه السلام واما محمد صلى الله عليه وسلم .

والواقع ان الآية لا تدل على ان الرسول هو الذى احدثه ،وانما تنفى ان يكون الرسول شاعرا او كاهنا او يكون تلقى القرآن عن شاعر او كاهن بل هو تنزيل من رب العالمين فالاضافة الى الرسول على معنى التبليغ لا على انه هو الذى احدثه .

يقول ابن كثير رحمه الله فى مستهل كلامه على هذه الآية وما بعدها من الآيات المتعلقة بها :(يقول الله تعالى : مقسما لخلقه بما يشاهدونه من آياته فى مخلوقاته الدالة على كماله فى اسمائه وصفاته ،وما غاب عنهم مما لا يشاهدونه من المغيبات عنهم ان القرآن كلامه ،ووحيه ،وتنزيله على عبده ورسوله الذى اصطفاه لتبليغ الرسالة واداء الأمانة يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم ،واضافته اليه على معنى التبليغ لأن الرسول من شأنه ان يبلغ عن المرسل ،فأضافه الله الى الرسول الملكى كما فى سورة التكوير واضافه هنا الى الرسول البشرى لأن كلا منهما مبلغ عن الله ما ستأمنه عليه من وحيه وكلامه ولهذا قال :

---

(1) سورة الحاقة ٤٠

((تنزيل من رب العالمين)) [1] .

قلت ويدل على هذا ايضا قوله تعالى : ((وانه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين [2] حيث ذكر ان مصدر القرآن وتنزيله منه تبارك وتعالى وان الذى نزل به وقام بتبليغه الى محمد صلى الله عليه وسلم هو رسول مؤتمن من قبل الله على ماارسله به ومحمد صلى الله عليه وسلم بدوره قام بتبليغه للناس كما انزل اليه من ربه فليس لمخلوق فيه كلمة ولا حرف من حروفه بل ولا عبارة تدل على معناه وعليه فيمكننا تلخيص الأجابة على هذه الشبهة فى النقاط التالية :

١) ان ذكر الرسول معرفا يدل على انه مبلغ عن مرسله لأنه لم يقل انه قول ملك او نبى فعلم انه بلغه عن ارسله به لا انه انشأه من جهة نفسه .

٢) الرسول فى احد الآيتين جبرائيل وفى الأخرى محمد صلى الله عليه وسلم : فأضافته الى كل منهما تبين ان الأضافة للتبليغ اذ لو احدثه احدهما لامتنع ان يحدثه الآخر .

٣) وصف الرسول بأنه امين دليل على انه لا يزيد فيما ارسل بتبليغه ولا ينقص منه .

---

(١) التفسير ج ٤ ص ٤١٧

(٢) سورة الشعراء : (١٩٢- ١٩٤) .

٤) الكلام كلام من قاله مبتدئا لا من قاله مبلغا)[1] فالقرآن كلام الله هو الذى قاله وهو الذى انزله ، ولم يكن لجبريل عليه السلام ولا لمحمد صلى الله عليه وسلم دور فيه سوى تبليغه .

تنبيه :

يزعم اصحاب هذا الرأى _ النفسانيين _ انهم يمثلون السلف فى اعتقادهم فى هذه المسألة .

وقد علم ان السلف يثبتون جميع ما ورد فى القرآن الكريم والسنة المطهرة من اسماء الله وصفاته على الحقيقة وعلى ما يليق بجلاله وعظمته ، على حد قوله تعالى : ((ليس كمثله شئ وهو السميع البصير)) ومن صفاته الكلام فهو يتكلم اذا شاء وبما شاء بصوت وحرف ويسمعه من شاء من خلقه ، والقرآن كلامه حقيقة منه بدأ واليه يعود .

اما اصحاب هذا الرأى فقد جزؤا الصفات فاثبتوا لله بعض صفاته ونفوا عنه البعض الأخر ، وقالوا ايضا : ان كلام الله معنى قائم بذات الله ليس بصوت ولا حرف ، والقرآن عبارة عن كلام الله

---

(١) انظر شرح الطحاوية ص ١١٤ .

وليس هو كلامه الحقيـــقى .

وبالمقارنة بين المذهبين يتبين الفرق الشاسع والبون الكبيـــــر بين مذهب السلف ومذهب الكلابية والأشاعرة فى باب الصفـــــات الأمر الذى يمنع ان يكون مذهبهم هو مذهب السلف وانما يمكـــــن اعتبـاره اقرب المذاهب الى مذهب السلـــف (١) .

والله اعلم بالصواب واليه المرجع والمآب .

* * *

---

(١) انظر ما قاله شيخ الأسلام ابن تيمية بهذا الشأن فى الفتاوى جـ ١٢ ص (١٣٤-١٣٥) . بتصرف

ثانيا : البدع الفعلية :

وكما حدثت في المسلمين بدع اعتقادية كانت سببا في خروج طوائف وفرق منهم على اصول الأسلام في كبريات الأمور الأعتقادية ، فكذلك ابتلى المسلمون بالبدع التي حدثت في الأمور التعبدية ، فكثير من المسلمين اليوم يتعبدون الله بعبادات لم يشرعها الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وذلك اما بسبب الجهل واما بسبب اتباع الهوى والأفكار المضللة ، فمن تلك البدع ما هو مشترك بين كثير من اوطان المسلمين ومنها ما هو خاص ببلد دون الآخر ، ومازاد الطين بله سكوت كثير ممن ينتسبون للعلم على هذه البدع وعدم انكارها ، بل ان بعضهم ـ ولأمر ما ـ يشجع على اقامتها وملازمتها ويشارك في احيائها بين الناس ، وقد فات هؤلاء جميعا :

ان واجب المسلم متابعة النبي صلى الله عليه وسلم ، واقتفاء اثره ، والسير على هديه ،وعدم مخالفة امره ونهيه ،كما قال تعالى :

((وما ارسلنا من رسول الا ليطاع بأذن الله)) (١) وقال : ((ومن يطع الرسول فقد اطاع الله)) (٢) وقال جل ذكره : ((قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله)) (٣) وقال : ((لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا)) (٤)

---

(١) النساء : اية : ٦٤ .

(٢) النساء : اية : ٨٠ .

(٣) آل عمران : اية : ٣١ .

(٤) الأحزاب : اية ٢١ .

فالأيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم ،وتصديقه فيما أخبر ،وطاعته فيما أمر ،واجتناب ما نهى عنه وزجر : هو الترجمة الحقيقية والتفسير الواضح المحدد لـ (شهادة ان محمدا رسول الله) فعبادة الله وطاعته لم تترك للأهواء والأفكار بل هي مقيدة باتباعه صلى الله عليه وسلم فيما شرعه لأمته ،وهذا هو الشرط الثاني لقبول العمل والأثابة عليه .

فلا يقبل الله من الأقوال والأفعال الا ما كان خالصا لله وموافقا لهدى رسوله صلى الله عليه وسلم (قال الفضيل بن عياض ـ رحمه الله ـ في معنى قوله تعالى : ((ليبلوكم ايكم احسن عملا))[1] قال اخلصه واصوبه . . قالوا : يا ابا علي ما اخلصه واصوبه ؟ قال : ان العمل اذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل ،واذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل ، حتى يكون خالصا صوابا ،والخالص ان يكون لله والصواب ان يكون على السنة ، وذلك تحقيق قوله تعالى : ((فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه احدا))[2] .

وكان امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول في دعائه : اللهم اجعل عملي كله صالحا واجعله لوجهك خالصا ،ولا تجعل لأحد فيه شيئا .)[3]

---

(١) سورة الملك : اية : ٢

(٢) الفتاوى جـ١ ص ٣٣٣ .

(٣) المصدر السابق ص ٣٣٤ .

وقد اخبر صلى الله عليه وسلم بأن كل عمل ليس له فى الشرع اصل : مردود على عامله وغير مقبول عند الله ، روى الأمام البخارى فى صحيحه عن ام المؤمنين عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من احدث فى امرنا هذا ما ليس فيه فهو رد) .

قال فى الفتح : وهذا الحديث معدود من اصول الأسلام وقاعدة من قواعده فأن معناه ، من اخترع فى الدين ما لا يشهد له اصل من اصوله فلا يلتفت اليه ، وفيه رد المحدثات وان النهى يقتضى الفساد لأن المنهيات كلها ليست من امر الدين فيجب ردها)[1] .

وقال الأمام النووى : هذا الحديث : مما ينبغى ان يعتنى بحفظه .. واستعماله فى ابطال المنكرات واشاعة الأستدلال به كذلك)[2] .

ورغم ذلك كله فقد ادخل بعض المسلمين فى الأمور الأعتقادية والعبادية ما ليس منها وسول لهم الشيطان ان ذلك حسنا وعملا يحبه الله ويرضاه ، والواقع انه جهل وضلال وخروج على طاعة سيد المرسلين ،وغير مرضى عند رب العالمين .

والأمور البدعية التى احدثها المسلمون فى هذا الباب = العبادات لا تحصى كثرة وليس المقصود الأحاطة بها وانما المقصود هو ذكر نماذج من ذلك .

---

(١) انظر الفتح : جـ ٥ (٣٠١ - ٣٠٢) كتاب الصلح .

(٢) المصدر السابق ص ٣٠٢ .

فكل ما احدث باسم الدين والدين منه برا' يعتبر بدعة ،وسعى ضائع ويعاقب صاحبه بحسب نوع بدعته وعظم جرمها .

(فمن دعا المخلوقين من الموتى والغائبين واستغاث بهم ـ مع ان هذا امر لم يأمر به الله ولا رسوله امر ايجاب ولا استحباب ـ كان مبتدعا فى الدين مشركا برب العالمين متبعا غير سبيل المؤمنين ،ومن سأل الله تعالى بالمخلوقين او اقسم عليه بالمخلوقين مبتدعا بدعة ما انزل الله بها من سلطان ، فأن ذم من خالفه وسعى فى عقوبته كان ظالما جاهلا معتديا)(١)

فالمتأمل فى احوال المسلمين يرى ويسمع انواعا والوانا من البدع التى احدثت فى الدين فمن ذلك مثلا :

١ـ رفع القبور وتعليتها :

فمن ذلك رفع القبور ـ وخاصة قبور من يظن فيهم الصلاح والتقوى ـ والبناء عليها وتعليتها ، وكسوتها بالستائر وغرس الأشجار والزهور حولها ، ورش تربتها بالعطور ، لا ستمالة قلوب ضعاف الأيمان وجهلة المسلمين وعوامهم ، ففتن الناس بهذه البدعة فتنة عظيمة اوردتهم المهالك واوقعت الكثير منهم فى حمأة الشرك الأكبر الذى لا يغفره الله .

ولقد نهى صلى الله عليه وسلم عن رفع القبور وامر بتسويتها ،تحسما لهذا الواقع المر الذى تعيشه كثير من اوطان المسلمين .

---

(١) الفتاوى لشيخ الاسلام ابن تيمية جـ ١ ص ٣١٢ .

فعن ابى الهياج الأسدى ـ حيان بن حصين ـ قال : قال لى على رضى الله عنه : الا ابعثك على ما بعثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ : ان لا تدع صورة الا طمستها ، ولا قبرا مشرفا الا سويته)[(١)]

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن : قوله : (الا ابعثك على ما بعثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ....) فيه تصريح بأن النبى صلى الله عليه وسلم بعث عليا لذلك اما الصور : فلمضاهاتها لخلق الله ، واما تسوية القبور : فلما في تعليتها من الفتنة بأربابها وتعظيمها ، وهو من ذرائع الشرك ووسائله ، فصرف الهمم الى هذا[(٢)] وامثاله من مصالح الدين ومقاصده وواجباته ، ولما وقع التساهل فى هذه الأمور وقع المحذور وعظمت الفتنة بأرباب القبور ، وصارت محطا لرحال العابدين المعظمين لها ، فصرفوا لها جل العبادة ، من الدعاء ، والأستعانة ، والأستغاثة ، والتضريح لها ، والذبح لها ، والنذور ، وغير ذلك من كل شرك محظور.[(٣)]

٢ ـ البناء على القبور واتخاذها مساجد :

ومن كبريات البدع العملية لدى كثير من المسلمين : البناء على قبور الصالحين واتخاذها مساجد ، وهذه البلية ايضا لا يكاد يخلو منها بلد من بلدان المسلمين ـ باستثناء هذه البلاد التى انقذها الله بعودة نور

---

(١) انظر النووى (٧/ ٣٦)

(٢) اى الى تسوية القبور وعدم رفعها .

(٣) انظر فتح المجيد ص ٤٣٩ .

التوحيد والعقيدة الصافية اليها ـ فقد بنيت المساجد على القبور تعظيما لصاحب القبر وقصدها كثير من المسلمين للتعبد فيها وتلمسا للثواب بالقرب من صاحب القبر ولقد نهى صلى الله عليه وسلم عن ذلك وحذر امته عنه ،ولعن من يفعله فعن عائشة وابن عباس رضى الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم : لما حضرته الوفاة جعل يلقى على وجهه طرف خميصة له ، فاذا اغتم كشفها عن وجهه وهو يقول : (لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور انبيائهم مساجد) تقول عائشة : (يحذر مثل الذى صنعوا) : متفق عليه (١) .

وروى الأمام احمد رحمه الله عن ابى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اللهم لا تجعل قبرى وثنا يعبد ،لعن الله قوما اتخذوا قبور انبيائهم مساجد) (٢) .

كما اخبر صلى الله عليه وسلم ان من يتخذ القبور مساجد من شرار الخلق عند الله ، فعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (ان من شرار الناس من تدركه الساعة وهم احياء ومن يتخذ القبور مساجد) (٣) ـ رواه ابن خزيمة فى صحيحه .

---

(١) انظر الفتح (١/ ٥٣٢) كتاب الصلاة ، والنووى (٥/ ١٣)

(٢) انظر الفتح الربانى (٨/ ١٥٣) باب النهى عن اتخاذ المساجد على القبور .

(٣) جـ ٢ ص ٧ بتحقيق د . محمد مصطفى الأعظمى .

وانما نهى صلى الله عليه وسلم عن ذلك ،ولعن فاعله واخبر انه من شرار الخلق عند الله لما فى هذا الفعل من فتنة للمسلمين واضلال لهم عن دين الله .

ومع هذا فقد خالف كثير من المسلمين نهى رسول الله صلى الله صلى الله عليه وسلم فعلا وقولا : فأشادوا البناء على القبور واتخذوها مواطن للصلاة ،وقصدوها دون غيرها من المساجد تعظيما للقبوريين وتبركا بهم .

واليك هذا الكلام الجميل للأمام العلامة محمد بن على الشوكانى حيث قال رحمه الله : فلا شك ولا ريب ان السبب الأعظم الذى نشأ منه هذا الأعتقاد فى الأموات هو ما زينه الشيطان للناس من رفع القبور ووضع الستور عليها وتجصيصها وتزيينها بأبلغ زينة وتحسينها بأكمل تحسن ،فأن الجاهل اذا وقعت عينه على قبر من القبور قد بنيت عليه قبة فدخلها ، ونظر على القبور الستور الرائعة ، والسرج المتلألئة وقد سطعت حوله مجامر الطيب : فلا شك ولا ريب انه يمتلئ قلبه تعظيما لذلك القبر ، ويضيق ذهنه عن تصور ما لهذا الميت من المنزلة ،ويدخله من الروعة والمهابة ما يزرع فى قلبه من العقائد الشيطانية التى هى من اعظم مكائد الشيطان للمسلمين واشد وسائله الى ضلال ما يزلزله عن الأسلام قليلا قليلا ،حتى يطلب من ذلك القبر ما لا يقدر عليه الا الله

سبحانه فيصير فى عداد المشركين الى آخر كلامه رحمه الله [(١)] .

لا شك ان ما قاله رحمه الله : هو النتيجة الحتمية لمخالفة نهى الرسول صلى الله عليه وسلم فقد يتدرج الحال ببعض الملازمين لبدعة رفع القبور واتخاذ المساجد عليها الى التورط فى الشرك ـ كما هو مشاهد من كثير من المسلمين ـ بصرف ما هو حق لله ، لأصحاب تلك القبور ، واشراكهم مع الله فيما لا يستحقه ولا يقدر عليه الا الله ، وهذا هو الشرك الأكبر الذى لا يغفره الله أبدا .

٣ ـ بدعة الأحتفال بالمولد :

ومن البدع المتفشية فى المسلمين بدعة الأحتفال بمولد النبى صلى الله عليه وسلم و موالد الأولياء والصالحين ، وكان اول من احدث هذه البدعة حكام الدولة الفاطمية بمصر فى القرن الرابع حيث ابتدعوا ستة موالد : المولد النبوى ، ومولد على بن ابى طالب رضى الله عنه ، ومولد فاطمة بنت النبى صلى الله عليه وسلم ، و مولد الحسن ، و مولد الحسين رضى الله عنهما و مولد الحاكم الحاضر [(٢)] .

وشأن بدعة الموالد شأن غيرها من البدع تبدوا صغيرة و محدودة الهدف والكيفية ، ثم لا تزال تكبر و تتطور ويستطير خطرها وشررها حتى تفسد على المسلمين جانبا من دينهم .

---

(١) شرح الصدور بتحريم رفع القبور ص ١٧ .

(٢) الخطط للمقريزى (١/ ٤٣٣) .

فقد توسع الناس فى بدعة المولد حتى شملت خلقا غفيرا ممن يقال عنهم اولياء وصالحين ، ولا شك ان عمل المولد لم يكن عليه امر النبى صلى الله عليه وسلم ، ولا فعله ، ولا تقريره ، لذا فهو عمل بدعى ومردود على عامله ، ان الأصل فى الأمور التعبدية التوقيف فلا يعبد الله الا بما رضيه وشرعه رسوله صلى الله عليه وسلم حيث قال صلى الله عليه وسلم : (من عمل عملا ليس عليه امرنا فهو رد) اى مردود على صاحبه كما انه ليس من عادة الصحابة رضى الله عنهم اجمعين الأحتفال بمولده صلى الله عليه وسلم وهو احب خلق الله اليهم وقد فدواه بأموالهم وانفسهم و ، وكذا سائر سلف الأمة من بعدهم لم يفعلوا ذلك ولم يشيروا بفعله ، فلو كان عملا مشروعا لسبقوا بفعله والواقع ان بدعة المولد انما احدثت لتكون سببا من الأسباب التى قصد بها الهاء الناس عن امور دينهم وشئون دنياهم .

فكم يحدث فى تلك المناسبات من الآثام والمفاسد الخلقية المنافية للشرع ، فمن ذلك مثلا : (خروج النساء متبرجات مع اختلاطهن بالرجال الى حد لا يؤمن معه وقوع الفاحشة ، واستعمال الأغانى وآلات الطرب على الوجه المحرم ، وغير ذلك مما يفسد اخلاق الأمة ، ويبعث فى نفوس الشباب روح العشق والميل الى الفجور (١) .

وينقل الأستاذ عبد الرحمن الوكيل عن الجبرتى قوله عن بعض ما يحدث فى الموالد (وسل الأمين تلك الموالد : عن عربدة الشيطان فى

---

(١) الأبداع فى مضار الأبتداع للشيخ على محفوظ ص ٢٥١ - ٢٥٣ .

باحـاتهـا ، وعن الاثم المهتوك فى حاناتها ، وعن جمم الشهـوات التى تتفجـر تحت سود ليلاتها) (١) .

مع ما يحدث فى هذه الاحتفالات من الاستهانة بالقرآن الكريم ، وبشخص النبى صلى الله عليه وسلم ، وما يحدث فيها كذلك من الرقص والتصفيـق ـ الذى يسمونه ذكرا ، وغير ذلك من الأفعال المنافية للشرع .

فهذه الأفعال والأقوال التى احدثت باسم الدين = والدين منهـا براء = انما قلد فيها المسلمون اعداء الأسلام ، وكم جر عليهم تقليدهـم لأعدائهم من ويلات وبـلاء افسد عليهم الكثير من عقائدهم وعباداتهـم واخلاقهـم .

فالى الله المشتكى من واقع المسلمين فى كافة شئونهم وعامة امورهـم وكمل ذلك بسبب خروجهم عن تعاليم دينهم ، وتقليدهم لأعدائهم واعـداء ملتهـم .

٤ ـ الأحتفال بليلة الأسراء (٢) وصيام رجب ، وصلاة ليلة المعراج ، وليلة النصف من شعبان :

ـ ومما احدث فى الدين احتفال بعض الناس بليلة الأسراء بالنبى صلـى الله عليه وسلم الى بيت المقدس والعروج به الى السمـاء .

---

(١) كتاب هذه الصوفية ص ١٦٠ .
(٢) ارجح الاقوال ان ذلك كان بعد البعثة بخمس سنين وهو قول الزهرى ،
(٢) وقال ابن اسحق اسرى به صلى الله عليه وسلم وقد فشا الاسلام بمكـة والقبائل ورجح النووى هذين القولين انظر النووى (٢/ ٢١٠)

لا شك ان الأسراء والمعراج حدث عظيم ومزية عظيمة للنبي صلى الله عليه وسلم حيث اطلعه ربه في تلك الليلة على كثير من آياته الكبرى ، وخاطبه فيها بدون واسطة وفيها فرضت الصلوات الخمس التي هي عماد الدين .

غيرانه لم يرد عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا عن احد من الصحابة رضي الله عنهم وسائر السلف الصالح خصوصية تلك الليلة بشيء من العبادة ، قال شيخ الأسلام ابن تيمية في صلاة ليلة سبع وعشرين من رجب واشالها : (فهذا غير مشروع باتفاق ائمة الأسلام كما نص على ذلك العلماء المعتبرون ،ولا ينشيء مثل هذا الا جاهل مبتدع ... الخ [1]

وقال الأمام ابن حجر : لم يرد في فضل شهر رجب ،ولا في صيامه ، ولا في صيام شيء منه معين ولا في قيام ليلة مخصوصة حديث صحيح يصلح للحجة [2] .

ومن ذلك ما يسمى بصلاة البراءة : ليلة النصف من شهر شعبان وهي الصلاة الألفية : مائة ركعة بالأخلاص عشرا عشرا بالجماعة ،واهتموا بها اكثر من الجمع والأعياد ، ولم يأت بها خبر ولا اثر الا ضعيف او موضوع [3].

والصلوات : البكرية ، الدردرية ،والميرغنية كلها ضلالات :

جاء في كتاب السنن والمبتدعات : فاعلم ان الصلوات البكرية ،والدردرية والميرغنية : كلها مخترعات ومبتدعات ،وكذا كتاب : افضل الصلوات على سيد

---

(١) انظر السنن والمبتدعات للشقيري ص ١٤٣ .

(٢) المصدر السابق ص ١٤١ .

(٣) السنن والمبتدعات ص ١٤٤ .

السادات ، وكتاب : صلوات الثناء على سيد الأنبياء للنبهانى ،وكتاب روضة الأسرار فى الصلاة على المختار ، وكتاب : التحفة الربانية بالصلاة على امام الحضرة القدسية ، و مفتاح المدد فى الصلاة على الرسول السند .... الخ كلامه (١)

فاقامة الأحتفالات ، والصوم واداء الصلاة بهذا التوقيت وبهذه الكيفية التى اعتاد بعض الناس فعلها : انما هى مما احدث فى الدين حيث لم يدل على مشروعية شىء منها دليل ثابت يعتمد عليه ،وانما يفعلها بعض الجهلة من المسلمين بحكم العاطفة الغير متزنة و مجاراة بغير شعور لسنن اصحاب الديانات السابقة وبعض الزنادقة الذين احدثوا هذه الأمور وغيرها لصرف المسلمين عن اساسيات دينهم وواجباته ، وبذلك ضيعت المطالب والمقاصد الأساسية للأسلام وشغل الناس بتلك المحدثات ، واعتبروها دينا واستكفوا بها عن سواها .. من امور الدين ومطالبه .

٥ ـ الرقص اثناء الذكر الجماعى :

و مما اعتاده كثير من الناس اقامة حلقات لما يسمى بالذكر الجماعى بمناسبة المولد النبوى او مولد احد المشائخ او لمناسبة اخرى ، وهو ما يسمونها (الحضرة (٢)) فتقام هذه الحلقات على الرقص والتمايل

---

(١) المصدر السابق ص ٢٤٦ .

(٢) يزعمون ان روح الشخص المحتفى بمولده تحضر ذلك المجلس .

والتطريب والغناء بالغزل والألفاظ الشركية ، بأصوات جماعية ،ويتمايلون يمنة ويسرة مصطحبين معهم الدفوف ،ويرددون خلف المنشد باصوات منكرة ما ينشده لهم من منكر القول .

ويزعمون ان هذا العمل مما يرضاه الله ورسوله

ولا شك ان هذا العمل خلاف السنة ، فهو من المهازل التى ابتلى بها المسلمون عن طريق التقليد السيئ .

فالسنة : ذكر الله بالمأثور عن النبى صلى الله عليه وسلم ،فى كل وقت وحين ، وبتدبر وخشوع ، وسؤال العبد ربه مايصلح حاله فى عاجل امره وآجله .

٦ ـ اعراض بعضهم عن بعض الأشياء المشروعة والمباحة بقصد التعبد :

ـ ان بعض من ينتسبون للطرق والزوايا ومن يسمون بالدراويش ، بل وبعض من ينتسبون للعلم من العباد : بعض هؤلاء درج على الزهد فيما احله الله وشرعه رسوله صلى الله عليه وسلم من النكاح ولذيذ المأكل وجمال المظهر والملبس والمكان ، فأعرضوا عن الطيبات التى انعم الله بها على عباده وهجروها تعبدا لله وتقربا اليه .

والله سبحانه وتعالى انما تعبدنا بطاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم بما شرع لنا من هذا الدين الكامل . ،ولذا رد رسول الله صلى الله

عليه وسلم هذه الفكرة الخاطئة من بدايتها كما فى قصة النفر الذين تقالوا ما أخبروا به من عبادة النبى صلى الله عليه وسلم ورأوا ان ذلك يتناسب مع كونه صلى الله عليه وسلم غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، اما هم فقد قرروا بأن يأخذوا انفسهم بالشدة لكونهم خلاف ذلك ، فعزم احدهم على ان يقوم الليل ولا ينام ، وعزم الآخر على ان يصوم الدهر ولا يفطر ، وقرر الثالث اعتزال النساء .

وذلك بقصد التفرغ للعبادة ، والانقطاع للطاعة ، فبين لهم صلى الله عليه وسلم ان عبادة الله وطاعته لا تكون بترك ما احله من الطيبات بل واغلظ لهم صلى الله عليه وسلم ولمن يتبنى هذه الفكرة الخاطئة من بعدهم بقوله : (اما والله انى لأخشاكم لله واتقاكم له ، لكنى اصوم وافطر ، واصلى وارقد ، واتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى) (1) .

والمراد : من ترك طريقتى واخذ طريقة غيرى فليس منى ، ولمح بذلك الى طريق الرهبانية فأنهم الذين ابتدعوا التشديد كما وصفهم الله تعالى وقد عابهم بأنهم ما وفوا بما التزموه ، وطريقة النبى صلى الله عليه وسلم : الحنفية السمحة فيفطر ليتقوى على الصوم ، وينام ليتقوى على القيام ، ويتزوج لكسر الشهوة واعفاف النفس وتكثير النسل ، وقوله فليس منى : ان كانت الرغبة بضرب من التأويل يعذر صاحبه فيه فمعنى : (فليس منى)

---

(1) — رواه البخارى فى كتاب النكاح — انظر الفتح جـ ٩ ص ١٠٤

اى على طريقتى ولا يلزم ان يخرج عن الملة وان كان اعراضا وتنطعا يفضى الى اعتقاد ارجحية عمله : فمعنى (فليس منى) ليس على ملتى لأن اعتقاد ذلك نوع من الكفر .)[1] والواقع ان العمل المخالف للسنة حتى ولو كان بضرب من التأويل فانه عمل مردود على صاحبه لأنه بدعة ردها رسول الله صلى الله عليه وسلم واخبر ببطلانها ، فقال صلى الله عليه وسلم (من عمل عملا ليس عليه امرنا فهو رد)[2] .

تلك نماذج من البدع الأعتقادية والتعبدية التى حدثت فى المسلمين ، ولا شك ان هذا باب واسع ينتظم الشرك الأكبر والأصغر ، كما ينتظم الغلو بنوعية ، وكل ما احدث من الأقوال والأفعال التى هى خلاف ما جاء فى دين الله وشرعه .

اسأل الله الكريم رب العرش العظيم ان يبصر المسلمين بأمور دينهم وان يردهم اليه ردا جميلا ، كى تعود لهم عزتهم ويصدوا كيد اعدائهم ويحرروا مقدساتهم واوطانهم بعد ان يكونوا حرروا انفسهم من ذل العبودية لغير الله ومن كل تبعية لغير رسوله صلى الله عليه وسلم .

* * *

---

(١) انظر فتح البارى ج ٩ (١٠٥ - ١٠٦)

(٢) رواه مسلم - ورواه البخارى فى كتاب العلم بلفظ آخر عن عائشة رضى الله عنها .

الفصل السادس

(الفصل السادس)

في ذكر النهي عن الشرك ، وبيان اسباب انحراف العرب عن ملة ابراهيم عليه السلام ، وذكر نماذج للأعمال الشركية لدى بعض المنتسبين للاسلام

وفيه مباحث :

المبحث الأول : في معنى الشرك ، وانواعه والنهي عنه .

المبحث الثاني : في بيان ان الشرك اعظم الذنوب عند الله ، وانه محبط لأعمال العباد .

المبحث الثالث : في بيان اسباب انحراف العرب عن ملة ابراهيم عليه السلام ، وذكر اشهر معبوداتهم من دون الله

المبحث الرابع : في سبب اتخاذ المشركين القدامى معبودات من دون الله ، وبيان ضعف الشركاء وعجزهم .

المبحث الخامس : في ذكر نماذج للأعمال الشركية لدى بعض المنتسبين للاسلام .

المبحث السادس : مقارنة اعمال عباد القبور والأولياء بأعمال عباد الأوثان .

المبحث السابع : في بيان اسباب مظاهر الشرك في المسلمين .

*** * ***

(المبحث الأول)

(في معنى الشرك و انواعه والنهي عنه)

الشرك :

هو الجزء والنصيب يكون في الشيء ، سواء اكان ذلك حسا او معنى .

قال تعالى : ((و جعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا))(١)

وقال تعالى : ((قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير))(٢) .

واخبر عن قول موسى قوله ((واشركه في امري))(٣)

والأشراك بالله :

هو ان يتخذ العبد ندا لله يشركه فيما يجب ان يكون حقا خالصا لله ، كالدعاء ، والنذر ، والطاعة ، والمحبة ، وسائر انواع العبادة . ولقد شدد الأسلام في النهي عن الشرك ، واعتبره اكبر جريمة عرفتها البشرية على الأطلاق ، لذا كان محور دعوة جميع انبياء الله ورسله هو دعوة الخلق الى عبادة الله وحده ، والبراءة من الشرك

---

(١) سورة الأنعام الاية : ١٣٦

(٢) سورة سبأ الاية : ٢٢

(٣) سورة طه الاية : ٣٢

بكافة الوانه وصوره .

كما قال تعالى : ((ولقد بعثنا في كل امة رسولا ، انعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت))[1] ، والطاغوت مشتق من الطغيان وهو مجاوزة الحد ، قال في المفردات : طغوت وطغيت طغوانا وطغيانا ، واطغاه كذا حمله على الطغيان وذلك تجاوز الحد في العصيان والطاغوت عبارة عن كل متعبد وكل معبود من دون الله ويستعمل في الواحد والجمع .

هذا وقد أورد الأمام الطبرى في تفسيره عدة اقوال للسلف في معنى الطاغوت ؛ فذكر عن عمر رضى الله عنه ومجاهد وقتادة والسدى والشعبى انه الشيطان ، وعن ابى العالية انه الساحر ، وعن سعيد بن جبير انه الكاهن ، وعن جابر رضى الله عنه انه قال : هى كهان ينزل عليها الشيطان .

ثم قال : اى ابن جرير - والصواب من القول عندى في الطاغوت : انه كل ذى طغيان على الله فعبد من دونه ، اما بقهر منه لمن عبده ، واما بطاعة من عبده له ، انسانا كان ذلك المعبود او شيطانا ، او وثنا ، او صنما ، او كائنا ما كان من شئ[2] .

وقال الأمام مالك : الطاغوت كل ما عبد من دون الله - قال في تيسير العزيز الحميد : وهو الصحيح لكن لا بد فيه من استثناء من لا يرضى

---

(١) سورة النحل اية : ٣٦ .

(٢) انظر التفسير جـ ص ١٩ .

بعبادته .

اما الأمام ابن القيم رحمه الله فقد تكلم عن معنى الطاغوت بطريقته الخاصة المعهودة عنه الدالة على سعة افقه وقوة بيانه و غيرته القوية على جناب التوحيد ، فأوضح هذا المعنى بما يشفى ويكفى فقال رحمه الله : (الطاغوت : ما تجاوز به العبد حده من معبود او متبوع او مطاع ، فطاغوت كل قوم من يتحاكمون اليه غير الله ورسوله ، او يعبدونه من دون الله او يتبعونه على غير بصيرة من الله ، او يطيعونه فيما لا يعلمون انه طاعة لله ، فهذه طواغيت العالم اذا تأملتها وتأملت احوال الناس معها رأيت اكثرهم ممن اعرض عن عبادة الله الى عبادة الطاغوت وعن طاعته و متابعة رسوله صلى الله عليه وسلم الى طاعة الطاغوت و متابعته)[1] .

فهذا وصف شامل لمعنى الطاغوت ولكل ما قد ينصرف اليه قلب العبد من دون الله وبالتالى يصرف اليه شيئا مما هو مستحق لله .

فلا يمكن للعبد ان يكون موحدا و مستمسكا بالعروة الوثقى حتى يكفر بكل ما يعبد من دون الله وهذا امر لا يتم الا باتجاه القلب الى الله محبة ، وخوفا ،وانابة ،وتوكلا ، ودعاء واخلاصا ، وهيبة ، وتعظيما .

هذا ولقد ورد التحذير من الشرك كثيرا فى كتاب الله الكريم والسنة النبوية المطهرة ، قال الله تعالى : ((واعبدوا الله

---

(١) انظر اعلام الموقعين ج ١ ص ٥٠ .

ولا تشركوا به شيئا)) (١) وقال تعالى : ((قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم الا تشركوا به شيئا)) (٢) وقال عليه الصلاة والسلام لمعاذ رضى الله عنه : (حق الله على العباد ان يعبدوه ولا يشركوا به شيئا) ـ رواه البخارى ـ (٣) .

وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : اى الذنب اعظم عند الله قال : (ان تجعل لله ندا وهو خلقك) (٤) فكل ذنب يمكن التجاوز عنه وتقبل فيه الشفاعة ،ما عدا الشرك فقد اخبر الله بأنه لا يغفره .

قال تعالى : ((ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء)) (٥) قال فى تيسير العزيز الحميد : (وانما كان كذلك لأنه اقبح القبح ،واظلم الظلم اذ مضمونه تنقص رب العالمين ، وصرف خالص حقه لغيره ، وعدل غيره به كما قال تعالى : ((ثم الذين كفروا بربهم يعدلون)) .

ولأنه مناقض للمقصود بالخلق والأمر مناف له من كل وجه ،وذلك غاية المعاندة لرب العالمين ،والأستكبار عن طاعته والذل له والأنقياد لأمره الذى لا صلاح للعالم الا بذلك فمتى خلا منه خرب العالم

---

(١) سورة النساء اية :٣٦

(٢) سورة الانعام اية :١٥٢٠

(٣) انظر الفتح (١٣/٣٤٧)

(٤) انظر النووى (٢/٧٩)

(٥) سورة النساء اية : ٤٨٠

وقامت القيامة كما قال صلى الله عليه وسلم (لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله الله) ـ رواه مسلم ... الخ قوله رحمه الله[1]

فواجب المسلم ان يعرف التوحيد من الشرك معرفة تامة ، حتى يستطيع تخليص نفسه ونجاتها ، من الوقوع فيما ينافي ويناقض شهادته بأنه (لا اله الا الله) وان يميز بين الحق والباطل ، والضلال من الهدى ، فأنه متى ما اختلط عليه الأمر واصبح لا يميز بين ما هو من الأسلام وما ليس منه ـ وخاصة فيما يتعلق بهذا الجانب ـ فقد انتقض اسلامه وجهل مقاصد دينه الذى اهم مقاصده على الأطلاق هو توحيد البارى جل وعلا والبراءة من الأشراك به ، فى كل ما من شأنه عبادة لله وقربة .

قال الأمام بن القيم رحمه الله فى كلامه على ما يروى عن امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو قوله : (انما تنقضى عرى الأسلام عروة عروة اذا نشأ فى الأسلام من لا يعرف الجاهلية) قال رحمه الله : وهذا لأنه اذا لم يعرف الشرك وما عليه القرآن وذمه وقع فيه واقره ودعا اليه ، وصوبه وحسنه وهو لا يعرف انه هو الذى كان عليه اهل الجاهلية او نظيره او شر منه او دونه فينقضى عرى الأسلام عن قلبه ويعود المعروف منكرا والمنكر معروفا ، والبدعة سنة والسنة بدعة ، ويكفر الرجل بمحض الأيمان وتجريد التوحيد

---

(١) مسلم ـ انظر النووى ص ١١٥ .

ويبدع بتجريد متابعة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم و مفارقة الأهواء والبدع (1) .

فأغلى ما فى القلب هو التوحيد ، و اثقل ما فى الميزان هو التوحيد ، واجمل ما فى الأديان هو التوحيد ، فأذا ما فقد العبد توحيده فبماذا يقابل ربه ، وعلى اى اساس يدعى انه مسلم؟

انواع الشرك :

درج العلماء على اعتبار الشرك نوعان : شرك اكبر وشرك اصغر، والواقع انه ليس هناك حد دقيق لتمييز الفرق بينهما ،ولكن بالنظر الى ان امور الأسلام الأخرى ليست على درجة واحدة فألا يمان مثلا يزيد وينقص ، وكذا الذنوب كبائر وصغائر ،وكفر دون كفر، نستطيع القول بأن الشرك ليس على مستوى واحد بل هو دركات بعضها شر من بعض ، كذلك بالنظر للواقع ندرك ان من صلى وصام امتثالا لأمر الله وفى الوقت نفسه يحاول لفت انظار الآخرين اليه كى يثنوا عليه ويذكروه بالعمل الصالح ، لا يستوى هو ومن يستغيث بغير الله عند وقوعه فى الشرك ويقدم اليه بعض القربات ويعتقد فيه النفع والضر .

---

(1) انظر مدارج السالكين جـ ١ ص ٣٤٤ .

النوع الأول : الشرك الأكبر:

لذا انقسم الشرك بالله الى شرك اكبر مناف للتوحيد ومخرج من الملة ، ولا يغفره الله الا بالتوبة منه ، و جزاؤه الخلود في النار اذا مات عليه ، كما قال تعالى : ((ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء)) (١) وقال : ((ومن يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة و مأواه النار وما للظالمين من انصار)) (٢) .

قال ابن القيم رحمه الله (وهو ان يتخذ من دون الله ندا يحبه كما يحب الله وهو الشرك الذى تضمن تسوية آلهة المشركين برب العالمين ولهذا قالوا لآلهتهم فى النار (تالله ان كنا لفي ضلال مبين اذ نسويكم برب العالمين) مع اقرارهم بأن الله وحده خالق كل شيء وربه و مليكه وان آلهتهم لا تخلق ولا ترزق ولا تحي ولا تميت وانما كانت هذه التسوية في المحبة ، والتعظيم ،والعبادة كما هو حال اكثر مشركي العالم) (٣)... الخ

هذا وقد اوضح الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ امكان وقوع الشرك الأكبر فى اربعة انواع من العبادة وهي: الدعاء ونية العبد ومقصده الدافع له على العبادة المشهودة .

---

(١) سورة النساء اية : ٤٨ .

(٢) سورة المائدة اية : ٧٢ .

(٣) انظر مدارج السالكين جـ ١ ص ٣٣٩ .

وكذا يكون في الطاعة والأتباع فيما هو معصية لله ورسوله ، كما يكون الشرك في المحبة والتعظيم .

فقال رحمه الله : وهو ـ اى الشرك الأكبر ـ اربعة انواع :

النوع الأول : شرك الدعوة ـ اى الدعاء ـ والدليل قوله تعالى : ((فإذا ركبوا في الفلك دعو الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون))(١) .

النوع الثاني : شرك النية والأرادة والقصد والدليل قوله تعالى : ((من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم اعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون اولئك الذين ليس لهم في الآخرة الا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون))(٢)

النوع الثالث : شرك الطاعة والدليل قوله تعالى : ((اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله والمسيح بن مريم وما امروا الا ليعبدوا الها واحدا لا اله الا هو سبحانه عما يشركون))(٣) وتفسيرها الذى لا اشكال فيه : طاعة العلماء والعباد في المعصية لا دعاؤهم اياهم كما فسرها النبى صلى الله عليه وسلم لعدى بن حاتم لما سأله فقال : (لسنا نعبدهم فذكر له ان عبادتهم طاعتهم في المعصية) .

---

(١) سورة العنكبوت اية : ٦٥

(٢) سورة هود اية : ١٥

(٣) سورة التوبة اية : ٣١

النوع الرابع: شرك المحبة والدليل قوله تعالى : ((ومن الناس من يتخذ من دون الله اندادا يحبونهم كحب الله)) [١] [٢] .

فكل من دعا غير الله واستغاث بغير الله فيما لا يقدر عليه الا الله ، سواء كان ذلك الغير ملكا ، او نبيا ، او شجرا ، او حجرا ، او شيطانا ، أو حيوانا ، فقد اشرك شركا اكبر لا يغفره الله الا بالتوبة منه .

وكل من قصد غير الله او اشرك مع الله غيره فى عبادته او نوى بها عرضا من الدنيا كالمال والوجاهة والمنصب فقد قارف الشرك الأكبر .

وكذا كل من اطاع مخلوقا واتبعه فيما يخالف شرع الله طائعا مختارا راغبا غير كاره فأحل ما حرم الله او حرم ما احله الله او اسقط شيئا مما اوجبه الله فقد عبده من دون الله واشركه مع الله فى الأمر والنهى الذى هو حق الله .

وكل من احب مع الله غيره محبة تدفعه الى تعظيم محبوبه واجلاله وتقديم انواع القربات له فهو مشرك شركا اكبر لا يغفره الله الا بالتوبة منه .

الشرك الأصغر :

اما النوع الثانى : فهو شرك اصغر ، وانما قيل عنه كذلك بالنسبة الى النوع الأكبر المخرج من الملة وهذا النوع فأنه لا يخرج من الملة

---

(١) سورة البقرة اية : ١٦٥

(٢) انظر مجموعة التوحيد ص ٣٤٧ - ٣٤٨ .

ويختلف فى احكامه عن الشرك الأكبر ومن امثلته يسير الرياء فى العبادة وتحسينها امام اعين الخلق ، والحلف بغير الله ، وقول الرجل للرجل ما شاء الله وشئت ، وما شابه ذلك من قول ونيه لا يبلغ ان يكون شركا اكبرا .

قال ابن القيم رحمه الله فى كلامه عن هذا النوع : (واما الشرك الأصغر : فكيسير الرياء والتصنع للخلق ، والحلف بغير الله ، كما ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال : (من حلف بغير الله فقد اشرك) وقول الرجل للرجل : (ما شاء الله وشئت) و (هذا من الله ومنك) و (انا بالله وبك) و (ما لى الا الله وانت) و (انا متوكل على الله وعليك) و (لولا انت لم يكن كذا وكذا) وقد يكون هذا شركا اكبر بحسب نية قائله ومقصده وصح عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لرجل قال له (ما شاء الله وشئت) (اجعلتنى لله ندا) ؟ (قل : ما شاء الله وحده) وهذا اللفظ اخف من غيره من الألفاظ) (1) .

ذلك هو الشرك بنوعيه وتلك بعضا من صفات كل منهما ، غير انه يجب ان لا تكون لفظة (اصغر) محقرة لهذا النوع فى

---

(1) انظر مدارج السالكين جـ ١ ص ٣٤٤ .

فى نظر العبد ، فهو وان كان اصغر بالنسبة لقسميه الا انه معدود من الكبائر بالنسبة لسائر الذنوب لورود النهى الصريح عنه كما تقدم ، بل قد يكون شركا اكبر بما يصحبه من قصد ونية ، فواجب المسلم ان يحذره وعليه ان يتوب منه عند الوقوع فيه ، حفاظا على توحيده واعماله ،ومنعا لاستدراج الشيطان له ووقوعه فى اخطر شرك نصبه للبشرية على الأطلاق .

* * *

(المبحث الثانـــي)

فى بيان ان الشرك اعظم الذنوب عند الله وانه محبط لأعمال العبـــاد

اقتضت حكمة الحليم الخبير جعل معاصى العباد له على مراتب مختلفة بحيث يكون لها اعلى وادنى ، وبالتالى رتب عليها جزاءات .. متفاوتـة ، واعتبر الأشراك به اعظم الذنوب واشنعها على الأطـلاق ، واعمـق ضلال وابعـده عن الهدى ، وجعل جزاءه اشد جزاء وانكـاه وهذا الوصف ـ اى وصف الشرك بأنه اعظم الذنوب ـ ستفاد مما يلى :

أولا :

من اطلاق هذا الوصف عليه فى القرآن الكريم والسنة المطهرة ، قال تعالى فى ذكر وصية لقمان لابنه : ((يا بنى لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم)) [١] .. اى هو اعظم الظلم ـ كما قاله ابن كثير ـ فهـذا الوصف لا يتناول بقية الذنوب ـ غير الشرك ـ بدليل احالته صلى اللـه عليه وسلم اصحابه الذين شق عليهم اشتراط حصول الأمن بالسلامـة من الظلم فى قوله تعالى : ((الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلـم اولئك لهم الأمـن وهـم مهـتدون) [٢] الى الآية ـ التى فى سـورة

---

(١) سورة لقمان اية : ١٣

(٢) سورة الانعام اية : ٣٢

لقمان - للدلالة على ان الظلم المانع من الأمن مطلقا هو الشرك .

بخلاف الذنوب الأخرى ، مما يؤكد ان الذنوب ليست على درجة

واحدة ، وان الشرك هو اعظمها ويستحيل ان يكون معه امن وهداية

، بخلاف بقية الذنوب فأنها وان كانت خطرا على صاحبها غير ان امرها

لا يبلغ الى درجة اليأس والقنوط من رحمة الله .

ومما يزيد هذا الأمر وضوحا ويرفع ما قد يكون من التباس : ما

رواه البخارى ومسلم رحمهما الله عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال :

سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : اى الذنب اعظم عند الله ؟

قال : (ان تجعل لله ندا وهو خلقك) (1) الحديث .

فقد اوضح صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث بما لا يدع مجالا

للشك أن الشرك اعظم ذنب عصى الله به ، واى ذنب اعظم من

اعتقاد العبد فى غير الله قدرة النفع والضر ،ومن ثم يعمد الى حق

من حقوق الله الذى خلقه من العدم واوجده بعد ان لم يكن وبيده ازمة

الأمور كلها ، ويعطى ذلك الحق الى مخلوق من مخلوقات الله لا يملك

لغيره بل ولا لنفسه نفعا ولا ضرا .

والند : هو الشبيه والنظير ، ولا شك ان من فعل ذلك فقد

شبه المخلوق بالخالق ورفعه الى درجة لا يجوز له ان يرتفع اليها

---

(1) انظر الفتح (٨/ ١٦٣) كتاب التفسير

وهذا هو حقيقة الشرك الذى نهى الله ورسوله عنه ورتب عليه من العقاب ما لم يترتب على غيره من الذنوب .

قال المقريزى رحمه الله (١) : (اعلم ان حقيقة الشرك تشبيه الخالق بالمخلوق و تشبيه المخلوق بالخالق ، اما الخالق فأن المشرك شبه المخلوق بالخالق فى خصائص الألهية وهى التفرد بملك الضر والنفع والعطاء والمنع ، فمن علق ذلك بمخلوق فقد شبهه بالخالق تعالى وسوى بين التراب ورب الأرباب ، فأى جور وذنب اعظم من هذا ؟

ثم قال رحمه الله : واعلم ان من خصائص الالهية الكمال المطلق من جميع الوجوه الذى لا تحصى عليه بوجه من الوجوه وذلك يوجب ان تكون العبادة له وحده عقلا و شرعا وفطرة فمن جعل ذلك لغيره فقد شبه الغير بمن لا شبيه له ، ولشدة قبحه وتضمنه غاية الظلم ، اخبر من كتب على نفسه الرحمة انه لا يغفره ابدا ، فمن خصائص الالهية للعبودية التى لا تقوم الا على ساق الحب والذل فمن اعطاهما لغيره فقد شبهه بالله تعالى فى خالص حقه ، وقبح هذا مستقر فى العقول والفطر لكن لما غيرت الشياطين فطر اكثر الخلق واجتالتهم عن دينهم وامرتهم ان يشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، فهموا عن قبح الشرك حتى ظنوه حسنا ، ومن خصائص الألهية السجود فمن سجد لغيره فقد شبهه به ومنها التوكل فمن توكل على غيره فقد شبهه به ، ومنها الحلف بأسمه فمن حلف بغيره فقد شبهه به ومنها

---

(١) هو تقى الدين ابو العباس احمد بن على المعروف بأبن المقريزى ولد بالقاهرة سنة ٧٦٩ هـ اشتغل بالعلوم التى كانت معروفة فى عصره وولى حسبة القاهرة توفى سنة ٨٤٥ هـ من مصنفاته المواعظ والاعتبار المعروف بالخطط ، و مجمع الفوائد ، و تجريد التوحيد المقيد ، وغيرهما .
- انظر معجم المؤلفين ٢/ ١١ والأعلام ١/ ١٧٧

حلق الرأس [1] الى غير ذلك [2] .

الدليل الثاني : على كون الشرك اعظم الذنوب:

هو ما يستفاد من النصوص الدالة على عظم العقاب المترتب على هذا الذنب العظيم مما يدل على ان الشرك اعظم الذنوب وان من اشرك بالله فقد ظلم نفسه ظلما مبينا و جنى جناية لا يغفرها الله الا بالتوبة قال تعالى : ((ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء)) [3] .

وقال جل شأنه : ((انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من انصار)) [4] وروى الامام البخاري رحمه الله عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (من مات وهو يدعو لله ندا دخل النار) [5] كما روى مسلم عن جابر رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (من لقى الله لا يشرك به شيئا دخل الجنة ، ومن لقيه يشرك به دخل النار) [6] .

---

(١) يقصد به حلق الرأس عند القبورومقامات الأولياء تعظيما لأهلها وتشبيها بمناسك الحج .

(٢) انظر : تجريد التوحيد المفيد لتقى الدين احمد بن علي المقريزى ص ١٨ .

(٣) سورة النساء اية : ٤٨ .

(٤) سورة المائدة اية : ٧٢ .

(٥) الفتح (٨/ ١٧٦) كتاب التفسير

(٦) النووى (٢/ ٩٣)

فتبين من هذه النصوص وغيرها كثير ان الأشراك مع الله في اى نوع من انواع العبادة ، اعظم الذنوب عند الله حيث افادت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ان الله لا يغفره لمن مات عليه ، وحكم على صاحبه بدخول النار وحرمانه من دخول الجنة اما الذنوب الأخرى فانها مهما عظمت فهي داخلة تحت مشيئة الله ولا تمنع صاحبها من دخول الجنة اما ابتداء برحمة الله وفضله ،واما بعد دخوله النار بحكمة الله وعدله .

قال الأمام النووى رحمه الله : واما حكمه صلى الله عليه وسلم على من مات بشرك بدخول النار ومن مات غير مشرك بدخول الجنة فقد اجمع عليه المسلمون ، فأما دخول المشرك النار فهو على عمومه فيدخلها ويخلد فيها ولا فرق فيه بين الكتابى واليهودى والنصرانى وبين عبدة الأوثان وسائر الكفرة ولا فرق عند اهل الحق بين الكافر عنادا وغيره وبين من خالف ملة الأسلام وبين من انتسب اليها ثم حكم بكفره ، بجحد ما يكفر بجحده وغير ذلك .

واما دخول من مات غير مشرك الجنة فهو مقطوع له به لكن ان لم يكن صاحب كبيرة مات مصرا عليها ودخل الجنة اولا ، وان كان صاحب كبيرة مات مصرا عليها فهو تحت المشيئة فأن عفى عنه دخل اولا والا عذب ثم اخرج من النار وخلد فى الجنة والله اعلم [1] .

---

(١) انظر شرح النووى جـ ٢ ص ٩٧ .

وبهذا يتضح لنا تظافر النصوص الشرعية لفظا ومعنى على اعتبار الشرك اعظم الذنوب عند الله لأنه صرف لخالص حق الله لغيره وعدل غيره به ، مما يجدر بالمسلم ان يخافه وان يحذر كبيره وصغيره ، فكبيره اعظم جرم عصى الله به على هذه الأرض وجزاؤه الطرد من رحمة الله والخلود في النار ،وصغيره كبيرة من كبائر الذنوب والأصل في جزاء صاحبها دخول النار الا ان يشمله الله بعفوه ومغفرته .

* *

الشرك محبط لأعمال العباد

لقد دل الكتاب والسنة على ان الشرك اذا خالط العمل احبطه وافسده وحرم صاحبه من الثواب .

قال الله تعالى : ((ولقد اوحى اليك والى الذين من قبلك لئن اشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين)) (١) .

قال ابن جرير رحمه الله فى تفسير هذه الاية : يقول تعالى ((لئن اشركت بالله شيئا يا محمد ليبطلن عملك ولا تنال به ثوابا ، ولا تدرك جزاء الا جزاء من اشرك بالله فاحذر ان تشرك بالله شيئا فتكون من الهالكين بالأشراك بالله ان اشركت به شيئا (٢))) .

ولا شك ان هذا تحذير للأمة من الوقوع فى الشرك ، وبيان لبعض ما يترتب عليه ، وهو اهدار العمل الذى وقع فيه الاشراك وعدم قبوله ، اما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد حماه الله من الشرك قبل البعثة وبعدها فلم يقارف شيئا مما كان عليه اهل الجاهلية ، واعده الله اعدادا خاصا لتحمل الرسالة وتبليغها الى البشر كافة .

هذا وقد اخرج مسلم فى صحيحه عن ابى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى :

---

(١) سورة الزمر اية : ٦٥ .

(٢) تفسير الطبرى ج ٢٤ ص٢٤ .

((انا اغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا اشرك فيه معى غيرى تركته وشركه)) (١) .

فالله تبارك وتعالى اغنى من كل غنى واغير من كل غيور وليس شأنه شأن الذين يأخذون نصيبهم من الشيء المشترك بينهم وبين غيرهم ، فلا يقبل من الأعمال الا ما كان خالصا مخلصا ليس لأحد فيه نصيب فمن نذر او ذبح تقربا لله ولفلان ، او قام بأى نوع من انواع العبادة المفروضة او القرب المشروعة وقد خالج نيته حب السمعة والمراءاة للخلق ،وكذا من عمل عملا ظاهره الدفاع عن الاسلام ونشر الدعوة مثل طلب العلم والكتابة و الخطابة ، وكجهاد الأعداء وهو يريد عرضا من الدنيا كالمال والوجاهة والمنصب وثناء الخلق عليه ، فكل ذلك، وما كان على نمطه سعى ضائع لا يقبله الله ولا يثيب عليه .

قال ابن رجب رحمه الله : (واعلم ان العمل لغير الله اقسام فتارة يكون رياء محضا بحيث لا يراد به سوى مرئيات المخلوقين لغرض دنيوى وهذا الرياء المحض لا يكاد يصدر عن مؤمن فى فرض الصلاة والصيام ، وقد يصدر فى الصدقة الواجبة والحج وغيرهما من الأعمال الظاهرة والتى يتعدى نفعها فأن الأخلاص فيها عزيز ، وهذا العمل لا يشك مسلم انه حابط وان صاحبه يستحق المقت من الله والعقوبة ، و تارة يكون العمل لله ويشاركه الرياء فأن شاركه

---

(١) انظر النووى — رواه مسلم .

من اصله : فالنصوص الصحيحة تدل على بطلانه ايضا و حبوطه .. الخ كلامه .. ثم اورد رحمه الله حديث شداد بن اوس عند احمد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (من صلى يرائي فقد اشرك ، ومن صام يرائي فقد اشرك ، ومن تصدق يرائي فقد اشرك فأن الله عز وجل يقول : ((انا خير قسيم لمن اشرك بي شيئا ، فأن جدة عمله قليلة وكثيرة لشريكه الذى اشرك به انا عنه غني)) (١) .

فهذا مما يوجب على العبد الحذر من الأشراك بالله في انواع العبادة ، والقرب المشروعة كي يخلص اعتقاده من ادران الشرك واضراره ويسلم عمله من الفساد والضياع .

وذلك لأن فتك الشرك بالأعمال كفتك السرطان بالأبدان ، فالسرطان شر الأمراض واخطرها على الجسم فبقدر تمكنه منه ترتفع درجة اليأس من صاحبه ، وهكذا الشرك فأنه اعظم الذنوب و بقدر ما تكون نسبته في العمل يكون الأحباط اعم واشمل .

فهو بلاء خطير وشر مستطير لا ينبغي للمسلم ان يستهين شيء منه فقد حذر صلى الله عليه وسلم امته حتى من يسيره و خافه عليهم اشد من خوفه عليهم من الدجال الذى هو شر غائب ينتظر ، روى الأمام احمد عن ابي سعيد الخدري رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (الا اخبركم بما هو اخوف عليكم عندي من المسيح

---

(١) انظر جامع العلوم والحكم ص ١٣ .
— رواه احمد انظر الفتح الرباني (١٩/ ٢٢٢)

الدجال ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : الشرك الخفي يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل [1] .

وقال صلى الله عليه وسلم ان اخوف ما اخاف عليكم الشرك الأصغر قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال الرياء ، يقول الله تعالى (يوم القيامة اذا جازى الناس بأعمالهم اذهبوا الى الذين كنتم تراؤن في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء) [2] .

قال في فتح المجيد: قوله : ((اخوف ما اخاف عليكم الشرك الأصغر) هذا من شفقته صلى الله عليه وسلم بأمته ورحمته ورأفته بهم ، فلا خير الا دلهم عليه وامرهم به ولا شر الا بينه لهم واخبرهم به ونهاهم عنه ، كما قال صلى الله عليه وسلم فيما صح عنه : (ما بعث الله من نبي الا كان حقا عليه ان يدل امته على خير ما يعلمه لهم ـ الحديث) فاذا كان الشرك الأصغر مخوفا على اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع كمال علمهم وقوة ايمانهم فكيف لا يخافه و ما فوقه من هو دونهم في العلم والأيمان بمراتب ؟ خصوصا اذا عرف ان أكثر علماء الأمصار اليوم لا يعرفون من التوحيد الا ما اقر به المشركون ، و ما عرفوا معنى الالاهية التي نفتها كلمة الأخلاص عن كل ما سوى الله) [3] .

---

(١) رواه احمد انظر الفتح الرباني (١٩/ ٢٢٣)

(٢) رواه احمد

(٣) انظر فتح المجيد ص ٦٣ .

فعلى المسلم اذا ان يعلم ان خلوص عمله و تنقيته من كل ما يشوبه وكذا المتابعة شرط لصحته وقبوله عند الله والثواب عليه كما قال تعالى : ((و ما امروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين)) وقال : ((ليبلوكم ايكم احسن عملا)) (١)

وقد مر معنا قول الفضيل بن عياض رحمه الله : ان العمل اذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل ، واذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا ، فالخالص ما كان لله والصواب ما كان على السنة .

* * *

(١) سورة الملك اية : ٢

(المبحث الثالث)

فى بيان اسباب انحراف العرب عن ملة ابراهيم عليه السلام : وذكر اشهر معبوداتهم من دون الله

بعث الله رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم وقد انحرف العرب عن ملة التوحيد - دين ابراهيم عليه السلام - واتخذوا آلهة متعددة و متنوعة - كغيرهم من امم الشرك والضلال - و نود هنا - وبأيجاز - معرفة اسباب ذلك الأنحراف ، واشهر معبودات العرب ، وكيف كانت عباداتهم لها ولأى شئ كانوا يعبدونها تلك العبادة ويقصدونها بأنواع القربات والطاعات الأمر الذى بموجبه اصبحوا مشركين قد حرم الله على من مات منهم وتلك حاله ، دخول الجنة واخبر ان جهنم مقره و مآله خالدا فيها أبد الآبدين .

إن اول من انحرف بالعرب عن ملة التوحيد الى متاهات الشرك والضلال وغير دين اسماعيل عليه السلام ، وجاء بالأوثان (١) ونصبها

---

(١) الأوثان جمع وثن قال فى القاموس : هو الصنم .

والصواب ان كل ما عبد من دون الله يطلق عليه وثن لقوله صلى الله عليه وسلم : (اللهم لا تجعل قبرى وثنا يعبد) .

للعرب وسيب السائبة ،وبحر البحيرة ،ووصل الوصيلة ،وحمى الحامى :[1]

عمرو بن لحى الأزدى الذى قاتل جرهما فتغلب عليهم واجلاهم عن مكة

---

(١) الكلام فى معنى البحيرة واخواتها كثير و مختلف فيه : قال ابن هشام :
البحيرة عند العرب : الناقة تشق اذنها فلا يركب ظهرها ولا ينتفع منها بشئ و تهمل لآلهتهم .

والسائبة : هى التى ينذر الرجل ان يسيبها ان برئ من مرضه او اصاب امرا يطلبه فأذا اساب ناقة او جملا من ابله لبعض الهتهم لا ينتفع منها بشئ .

والوصيلة : هى التى تلد امها اثنين فى كل بطن فتلدها امها ومعها ذكر فى بطن فيقولون وصلت اخاها فيسيب اخوها فلا ينتفع به .

والحامى : فحل الأبل اذا نتج له عشر اناث متتابعات ليس بينهن ذكر حمى ظهره فلا يركب ولا ينتفع منه بغير الضراب
ـ انظر السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ٨٩ .

كما اورد الأمام ابن جرير فى تفسير هذه المسميات عدة معان منها ما قاله سعيد بن المسيب رحمه الله :

من ان السائبة : التى كانت تسيب فلا يحمل عليها شئ .

والبحيرة : التى يمنع درها للطواغيت فلا يحلبها احد .

و الوصيلة : : الناقة البكر تبكر اول انتاج الأبل بأنثى ثم تثنى بعد بأنثى وكانوا يسمونها للطواغيت ويدعونها الوصيلة ان وصلت احداهما بألاخرى .

والحامى : فحل الأبل يضرب العشر من الأبل فاذا نقص ضرابه يدعونه للطواغيت و اعفوه من الحمل فلا يحملوا عليه شيئا و سموه الحامى ،وقد اورد الأمام البخارى مثاله عن سعيد بن المسيب

====

و تولى حجابة البيت بعدهم ، ثم انه مرض مرضا شديدا فقيل له ان بالبلقاء من الشام ماء جار يستشفى بها المرضى فأتاها فاستحم بها فبرأ ووجد اهلها يعبدون الأصنام فقال ما هذه ؟ قالوا : تستسقى بها المطر و تستنصر بها على العدو فسألهم ان يعطوه منها ففعلوا فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة [(١)] .

=== ايضا فى تفسير البحيرة وسائر الأربعة المذكورة (انظر الفتح جـ٨ ص ٢٨٣ .

ثم قال ابن جرير : اما كيفية عمل القوم فى ذلك فما لا علم لنا به وقد وردت الأخبار بوصف عملهم ذلك على ما قد حكينا وغير ضائر الجهل بذلك اذا كان المراد من علمه الوصول الى حقيقته وهو ان القوم كانوا محرمين من انعامهم على انفسهم ما لم يحرمه الله اتباعا منهم خطوات الشيطان فوبخهم الله تعالى بذلك واخبرهم ان كل ذلك حلال ، فالحرام من كل شئ عندنا ما حرم الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم بنص او دليل والحلال منه ما احله الله ورسوله كذلك.

(انظر التفسير جـ ٧ ص ٩٢ .

(١) انظر كتاب الأصنام لأبى المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبى صـ ٨ .

واغاثة اللهفان جـ ٢ ص ٢٠٧ .

والسيرة النبوية لابن هشام جـ ١ ص ٧٦ – ٧٧ .

روى الأمام البخارى فى صحيحه عن ابى هريرة رضى الله عنه قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (رأيت عمرو بن عامر بن لحى × الخزاعى يجر قصبه فى النار وكان اول من سيب السوائب[1]) كما اورد ابن جرير فى تفسيره عن ابى هريرة ايضا يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأكثم بن الجون الخزاعى يا اكثم رأيت عمرو بن × لحى بن قمعة بن خندف يجر قصبه فى النار .... الخ الحديث .

وفيه : (وانه كان اول من غير دين اسماعيل ، ونصب الأوثان ، وسيب السوائب فيهم)[2]

* * *

---

(١) انظر الفتح جـ ٦ ص ٥٤٧ كتاب المناقب باب قصة خزاعة .

(٢) انظر التفسير جـ ٧ ص ٨٨ .

اشهر آلهة العرب ومعبوداتهم من دون الله

ثم اتخذ العرب الأصنام فكان اقدمها مناة (١) وكان منصوبا بقديد بين مكة والمدينة وكانت الأوس والخزرج ومن ينزل المدينة ومكة وما قارب من المواضع يعظمونه ويذبحون ويهدون له ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا رضى الله عنه فهدمها عام الفتح وهو فى طريقه صلى الله عليه وسلم الى مكة سنة ثمان من الهجرة ومن آلهتهم اللات (٢) بالطائف وكانت صخرة مربعة وكان يهودى يلت عندها السويق وكان سدنتها من ثقيف وكانت قريش وجميع العرب تعظمها فلما اسلمت ثقيف بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم المغيرة بن شعبة فهدمها وحرقها بالنار .

ومن معبوداتهم العزى (٣) وهى شيطانة تأتى ثلاث سمرات ببطن نخلة عن يمين المتجه من مكة الى العراق وكانت اعظم الأصنام

---

(١) سميت بذلك لكثرة ما يراق عندها من دماء النحائر والنذور التى يهديها لها المشركون .

(٢) قيل هو مشتق من اسم الله ، وقيل (اللاتّ) بتشديد التاء ، رجل كان يلت السويق للحجاج فلما مات عكفوا على قبره وعلى هذا قراءة ابن عباس .

(٣) قيل اشتق من اسمها العزيز و هى شيطانه كما ذكر .

×

عند قريش فكانوا يزورونها ويهدون لها ويتقربون عندها .. فلما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة بعث خالد بن الوليد فقتلها وقطع السمرات الثلاث وقتل سادتها دبية بن حرمى الشيبانى .

وكانت لقريش اصنام فى جوف الكعبة وحولها مثل : هبل (١) واساف (٢) ، ونائلة (٣) فكانوا يذبحون وينحرون عندها ، وفى يوم احد قال ابو سفيان : اعل هبل ، فرد عليه المسلمون بأمر الرسول الله اعلى واجل .

كما كان من اصنام العرب المشهورة ذو الخلصة وكانت مروة بيضا منقوش عليها كهيئة التاج وكانت بين مكة واليمن وكانت العرب المجاورة تعظمها وتهدى لها فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم جرير بن عبد الله البجلى فهدمها واحرقها بالنار ، وهى التى قال عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا تقوم الساعة حتى تضطرب اليات نساء دوس على ذى الخلصة) قال البخارى وذو الخلصة طاغية دوس التى كانوا يعبدونها فى الجاهلية .

---

(١) اسم لأعظم اصنام قريش التى كانت فى جوف الكعبة واذا ضربهم اتوه فاستقسموا عنده بالقداح كما فعل عبد المطلب مع ابنه عبد الله والد النبى صلى الله عليه وسلم .

(٢) ،(٣) هما اسمان لرجل وامرأة من جرهم زنيا فى جوف الكعبة فسخهما الله حجرين فوضعا عند الكعبة ليتعظ بهما الناس فلما طال الزمن عبدا من دون الله فكانوا يذبحون وينحرون عندها .. والله اعلم .

وقال فى الفتح :(المراد بقوله : حتى تضطرب اليات نساء دوس) انهن يركبن الدواب من الأماكن البعيدة الى الصنم ، او يتزاحمن بحيث تضرب عجيزة بعضهن الأخرى عند الطواف حول الصنم المذكور)(١)

وانتشرت الآلهة المزعومة حتى عمت الأسواق والمنتديات ودخلت كل دار من دور مكة الا ما شاء الله ، ولما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ، وجد حول البيت ثلاثمائة وستين صنما فجعل يطعنها فى وجوهها ويقول : (جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا) وهى تتساقط على روءسها ثم امر بها فأخرجت من المسجد وحرقت(٢) .

كما ورث العرب ايضا الأوثان التى كانت فى قوم نوح ونشروها فى جزيرتهم وعبدوها من دون الله روى الأمام البخارى فى صحيحه عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : (صارت الأوثان التى كانت فى قوم نوح فى العرب بعد : اما ود فكانت لكلب بدومة الجندل ،واما سواع فكانت لهذيل ،واما يغوث فكانت لمراد ثم لبنى غطيف بالجرف عند سبأ ،واما يعوق فكانت لهمدان ، واما نسر فكانت لحمير لآل ذى الكلاع . . . الخ كلامه(٣) وذكر ابن جرير مثله عن قتادة عند تأويل

---

(١) انظر الفتح جـ ١٣ ص ٧٦ كتاب الفتن باب تغير الزمان حتى يعبد الأوثان) .

(٢) انظر اغاثة اللهفان جـ ٢ ص ٢٠٧ - ٢١٧ بتصرف ،وانظر السيرة النبوية لابن هشام جـ ١ ص ٧٦-٧٧ .

(٣) انظر الفتح جـ ٨ ص ٦٦٧ من كتاب التفسير .

قوله تعالى : ((ولا تذرن ودا ،ولا سواعا ، ولا يغوث ويعوق ونسرا))[١]

وبهذا الاستعراض السريع لمعبودات المشركين تتضح امامنا الصورة الى حد كبير ، وندرك كيف كانت حالة العرب قبل وعند مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث استهوتهم الشياطين فاحدثوا .. لأنفسهم معبودات متعددة قد صرفوا لها من انواع العبادة ما هو حق لله على عباده ، فانحرفوا بذلك عن ملة التوحيد والغاية التى خلقوا من اجلها الى متاهات الشرك والضلال .

وبعد هذا الأستعراض نود معرفة الغاية التي اتخذ لأجلها المشركون القدامى تلك الآلهة والمعبودات المزعومة فضلوا واضلوا من سار على نهجهم وسلك سبيلهم من بعدهم .

* * *

---

(١) سورة نوح ـ اية : ٢٣ .

ـ انظر التفسير جـ ٢٩ ص ٩٩ وكتاب الأصنام للكلبى ص ٥٤ .

(المبحث الرابـــع)

في سبب اتخاذ المشركين القدامى معبودات من دون الله وبيان ضعف الشركاء وعجزهــم

تلك كانت اهم آلهة العرب ومعبوداتهم من دون الله ، ونريـــد تحت هذا العنوان ان نقف على الغاية التي اتخذ المشركون القدامـــى لأجلها الأصنام والأوثان وتقربوا اليها بأنواع العبادات وشـــتى القربــات .

الواقع ان مشركي العرب الذين بعث فيهم رسول الله صلى اللـــه عليه وسلم لم يكونوا يعتقدون ان آلهتهم ومعبوداتهم من دون الله تخلـــق وتحـــي وتميت وترزق بل كانوا يعتقدون ويعترفون بأن الذي يفعـــل ذلك كله ويقدر عليه هو الله تبارك وتعالى ، اما آلهتهم فهي احقـــر واعجـــز من ان تخلق او تملك في هذا الكون ذرة .

فهذا كتاب الله تبارك وتعالى يصف حالهم وينبئ عن واقعهم حيث يقول عنهم ((ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ؟ ليقولـــن اللــــه)) [1] . وقال ايضا : ((ولئن سألتهم من خلقهم ؟ ليقولـــن اللـــه)) [2] وقال جل ذكره : ((قل من يرزقكم من السماء والأرض ؟ امن يملك السمع والأبصار ومن يخـــرج الحـــي من الميت ، ويخـــرج الميت مـــن الحـــي ، ومن يدبر الأمـــر ؟ فسيقولـــون

(١) سورة الزمر اية : ٣٢ .

(٢) سورة الزخرف اية : ٨٨ .

الله قل افلا تتقون) [1] الى غير ذلك من الآيات الواردة في هذا المعنى فقد كانوا يقرون ان كل ذلك لله وحده ومع هذا لم يكونوا بذلك الأقرار مسلمين كما قال الله عنهم : ((وما يؤمن اكثرهم بالله الا وهم مشركون)) [2] .

روى الأمام ابن جرير عند تأويله هذه الآية عن مجاهد قوله : (ايمانهم قولهم : الله خالقنا ويرزقنا و يميتنا فهذا ايمان مع شرك عبادتهم غيره ، وعن قتادة ايضا قوله في ايمانهم هذا : انك لست تلقى احدا منهم الا انبأك ان الله ربه وهو الذى خلقه ورزقه ، وهو مشرك في عبادته [3] .

فتبين مما ذكر ان الكفار الذين كانوا في عصر النبي صلى الله عليه وسلم لم يكونوا يعدلون آلهتهم بالله فيما يتعلق بأمور الربوبية ، بل كانوا يقرون بأنهم مخلوقون لله كسائر مخلوقاته ، فما كان شركهم الا ندائات لآلهتهم ونذور بقصد روبها لها وقرابين يقربونها بأسمائهم واتخاذهم لها شفعاء ووكلاء [4] .

ومن تفسير كلمة التوحيد : لشيخ الأسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله قوله : واذا اردت ان تعرف ذلك معرفة تامة فذلك بأمرين :

---

(١) سورة يونس آية : ٣٢ .

(٢) سورة يوسف آية : ١٠٦ .

(٣) انظر التفسير ج ١٣ ص ٧٨ .

(٤) انظر رسالة التوحيد للدهلوى ص ٣٢ " بتصرف " .

الأولـــــ :

ان تعرف ان الكفار الذين قاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتلهم واباح اموالهم واستحل نساءهم : كانوا مقرين لله سبحانه بتوحيد الربوبية وهو انه : لا يخلق ولا يرزق ولا يحي ولا يميت ولا يدبر الأمور الا الله وحده .

الثانـــي :

وهو الذى كفرهم واحل دماءهم واموالهم وهو انهم لم يشهدوا بتوحيد الألوهية وهو انه لا يدعى ولا يرجى الا الله وحده لا شريك له (١) .

وكما قص علينا القرآن الكريم شأن المشركين السابقين انهم لم يكونوا يشركون معبوداتهم فى شأن الربوبية : فقد اخبرنا كذلك عن الغاية والمقصد الذى من اجله كانوا يعبدونها ويتقربون اليها بأنواع القربات ، الا وهو اعتقادهم انها تقربهم من الله وتشفع لهم عنده حيث اخبر الله عن واقعهم بقوله : ((ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله)) (٢) وقد رد الله عليهم اعتقادهم هذا وابطله كما قال تعالى : ((أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل اولو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون قل لله الشفاعة جميعا له ملك السموات والأرض ثم اليه ترجعون)) (٣) فمنهم يزعمون

---

(١) انظر مجموعة التوحيد ص ٢٥١ .
(٢) سورة يونس اية : ١٨ .
(٣) سورة الزمر اية : ٤٣-٤٤ .

انها تقربهم من الله وتعلى مكانتهم عنده كما حكى الله عنهم بقولـــه :

((والذين اتخذوا من دونه اولياء ما نعبدهم الا ليقربونا الى اللـــه زلفـــى)) (١) .

واليك هذا الكلام الجميل للامام ابن كثير رحمه الله فى ســياق تفسيره لهذه الآيات :

حيث قال : (اى انما يحملهم على عبادتهم لهم انهم عمدوا الـــى اصنام اتخذواها على صور الملائكة المقربين فى زعمهم فعبدوا تلـــك الصـــور تنزيلا لذلك منزلة عبادتهم الملائكة ليشفعوا لهم عند اللـــه تعالى فى نصرهم ورزقهم وما ينوبهم من امور الدنيا فأما المعاد فكانـــوا جاحدين له - كافرين به ولهذا كانوا يقولون فى تلبيتهم اذا حجوا فـــى جاهليتهم لبيك لا شريك لك الا شريكا هو لك تملكه و ما ملك وهـــذه الشبهة - والكلام له رحمه الله - هى التى اعتمدها المشركون فى قديـــم الدهـــر وحديثـــه وجاءتهم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم اجمعـــين بردها والنهى عنها والدعوة الى افراد العبادة للّـه وحده لا شريـــك له وان هذا شىء اخترعه المشركون من عند أنفسهم لم يأذن الله فيه ولا رضى به بـــل ابغضه ونهى عنه قال تعالى : ((ولقد بعثنا فى كل امة رســولا انعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت)) وقوله : ((وما ارسلنا من قبلك مـــن رسول الا نوحى اليه انه لا اله الا انا فاعبدون)) (٢) .

---

(١) ســورة الزمــر اية : ٣ .

(٢) انظر التفسير جـ ٤ ص ٤٥ .

فقد بين ان غاية المشركين القدامى ومقصدهم من اتخاذ آلهة من دون الله انما هو لزعمهم وظنهم انها تشفع لهم عند الله وتقربهم منه منزلة وقربة فسبب هذا الزعم و ما ترتب عليه كانوا مشركين واستبيحت دماؤهم واموالهم ومع الأسف الشديد فقد تناقلت الأجيال ذلك الزعم و تلك الشبهة كما نوه عن ذلك ابن كثير بقوله : (وهذه الشبهة هي التى اعتمدها المشركون فى قديم الدهر وحديثه) .

فيقدمون للأولياء والصالحين واصحاب القبور والطواغيت انواع القربات والطاعات التى لا تجوز الا لله ويقولون : نحن لا نعبدهم وانما نحترمهم ونقدرهم ونتخذهم وسائط بيننا وبين الله ويجادلون على ذلك ويكابرون ويصدون عن الحق ويصدون ، ومن كانت تلك حاله فهو فى عداد المشركين ومن مات وتلك صفته فمآله مآلهم وجزاؤه جزاؤهم .

والله الهادى الى سواء السبيل .

*　　*

بيان ضعف الشركاء وعجزهم

فواجب المسلم اعتقاد ان الله وحده هو المالك المتصرف فى هذا الكون ، فكما انه لا خالق ولا رازق ولا محى ولا مميت الا الله ،فكذلك جلب المنافع ودفع البلايا والأغاثة فى الشداد وقضاء الحوائج والأغاثة فى سائر الأمور التى يعجز عنها المخلوق ولا يكون سببا لجلبها : كلها من خصائص الله لا يشاركه فيها احد من خلقه ، لا نبى مرسل ولا ملك مقرب ولا عبد من عباد الله الصالحين ، او شيطان او شجر او حجر او غير ذلك .

كما قال تعالى : ((ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك))(١)

فهذا نهى له صلى الله عليه وسلم ولأتباعه من ان يدعوا من دونه تعالى ما لا يملك لهم نفعا ولا ضرا وهو كل ما سوى الله فأنهم لا ينفعون ولا يضرون ولا يملكون لسائليهم شيئا .

ولذا فقد اوصى صلى الله عليه وسلم ان يتوجه العبد بسؤاله وطلب العون الى الله وحده واخبر ان الأمة لو اجتمعت لنفع احد ومضرته لا تملك له شيئا من ذلك الا فى حدود ما جعله الله سببا على يد احد من خلقه .

فعن عبد الله ابن عباس رضى الله عنهما قال : كنت خلف النبى صلى الله عليه وسلم يوما . فقال لى : يا غلام انى اعلمك كلمات : (احفظ

---

(١) سورة يونس اية : ١٠٧ .

الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، اذا سألت فسأل
الله واذا استعنت فاستعن بالله واعلم ان الأمة لو اجتمعت على
ان ينفعوك بشيء لم ينفعوك الا بشيء قد كتبه الله تعالى
لك وان اجتمعوا على ان يضروك بشيء لم يضروك الا بشيء
قد كتبه الله تعالى عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف(١) .

قال ابن رجب رحمه الله في تعليقه على هذا الحديث العظيم
: واعلم ان سؤال الله عز وجل دون خلقه هو المتعين لأن السؤال
فيه اظهار الذل من السائل والمسكنة والحاجة والأفتقار وفيه الأعتراف
بقدرة المسئول على رفع هذا الضر ونيل المطلوب وجلب
المنافع ودرء المضار ، ولا يصلح الذل والأفتقار الا لله وحده لأنه
حقيقة العبادة . . الى ان قال رحمه الله : واعلم ان مدار جميع هذه
الوصية على هذا الأصل وما ذكر قبله وبعده فهو متفرع عليه وراجع
اليه فأن العبد اذا علم انه لن يصيبه الا ما كتب الله له من خير وشر
ونفع وضر وان اجتهاد الخلق كلهم على خلاف المقدور غير مفيد البتة
علم حينئذ ان الله وحده هو الضار النافع المعطي المانع فأوجب
ذلك للعبد توحيد ربه عز وجل وافراده بالطاعة وحفظ حدوده ، فأن
المعبود انما يقصد بعبادته جلب المنافع ودفع المضار ولهذا ذم الله
من يعبد مالا ينفع ولا يضر ولا يغني عن عابده شيئا فمن يعلم انه لا ينفع

---

(١) رواه الترمذي وقال " حديث حسن صحيح " .

ولا يضر ولا يعطى ولا ينفع غير الله أوجب له ذلك افراده بالخوف والرجاء والمحبة والسئوال والتضرع والدعاء وتقديم طاعته على طاعة الخلق جميعا) ... الخ (١) .

فمن اثبت لغير الله كائنا ما كان تصرفا وقرب اليه القرابين والنذور واستغاث به فى دفع نازلة او جلب منفعة فهو مشرك سواء اعتقد انه يقدر على ذلك بنفسه او ان الله وهبه هذه القدرة وهذا التصرف لأنه زعم فى غير الله مالا يستطيعه الا الله وصرف لغير الله ما لا يستحقه الا الله ... فرسول الله صلى الله عليه وسلم مع عظم قدره وعلو منزلته عند الله لا يملك لأقرب الخلق اليه بل ولا لنفسه من دون الله نفعا ولا ضرا فقد امره الله ان يقول للناس: ((قل انى لا املك لكم ضرا ولا رشدا قل انى لن يجيرنى من الله احد ولن اجد من دونه ملتحدا (٢)))

روى الأمام مسلم فى صحيحه عن ابى هريرة رضى الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية : ((وانذر عشيرتك الأقربين)) دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا فاجتمعوا فعم وخص فقال : يا بنى كعب بن لؤى انقذوا انفسكم من النار ... الحديث وفيه يا بنى عبد المطلب انقذوا انفسكم من النار ، يا فاطمة ، انقذى نفسك من النار فأنى لا املك لكم من الله شيئا غير ان لكم رحما سأبلها ببلالها (٣)) قال الأمام النووى

---

(١) انظر جامع العلوم والحكم ص ١٦٨ .

(٢) سورة الجن اية : ٢٢ .

(٣) اى سأصلها ولا اقطعها .

رحمه الله : معناه لا تتكلوا على قرابتى فأنى لا اقدر على دفع مكروه يريده الله تعالى بكم)[1] .

فأذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مع علو منزلته وقربه من الله لا يستطيع ان يملك لفاطمة - وهى بضعة منه - من الله شيئا فكيف بمن هو دونه بمراتب ؟ ايكون فى مقدوره ما لا يكون فى مقدور صفوة الخلق واكرمهم على الله ؟

واليك هذا الكلام الذى ينشرح له صدر المؤمن لأنه يخاطب العقل ويبرز الحقيقة والواقع قاله الأمام الشوكانى رحمه الله فى معرض كلامه على قوله صلى الله عليه وسلم: لا تتخذوا قبرى عيدا) قال : اى موسما يجتمعون فيه كما صار بفعله كثير من عباد القبور يجعلون لمن يعتقدونه من الأموات اوقاتا معلومة يجتمعون فيها عند قبورهم ينسكون لها المناسك ويعكفون عليها كما يعرف ذلك كل احد من الناس من افعال هؤلاء .. المخذولين الذين تركوا عبادة الله الذى خلقهم ورزقهم ثم يميتهم و يحييهم و عبدوا عبدا من عباد الله صار تحت اطباق الثرى لا يقدر على ان يجلب لنفسه نفعا ولا يدفع عنها ضرا كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما امره الله ان يقول : (لا املك لنفسى نفعا ولا ضرا) فانظر والكلام له رحمه الله كيف قال سيد البشر وصفوة الله من خلقه بأمر ربه انه لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا وكذلك قال فيما صح عنه : (يا فاطمة بنت محمد

---

(١) النووى جـ ٣ ص ٨٠ وانظر التفسير لابن جرير .

لا اغنى عنك من الله شيئا) فاذا كان هذا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نفسه وفى اخص قرابته به واحبهم اليه فما ظنك بسائر الأموات الذين لم يكونوا انبياء معصومين ولا رسلا مرسلين بل غاية ما عند احدهم انه فرد من افراد هذه الأمة المحمدية وواحد من اهل هذه الملة الأسلامية فهو اعجز واعجز من ان ينفع او ان يرفع عنها ضرا وكيف لا يعجز عن شيء عجز عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم واخبر به امته كما اخبر الله عنه وامره ان يقول للناس بأنه لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا وانه لا يغنى عن اخص قرابته من الله شيئا ، فياعجبا كيف يطمع من له ادنى نصيب من علم او اقل حظ من عرفان ان ينفعه او يضره فرد من افراد امة هذا النبى الذى يقول عن نفسه هذه المقالة والحال انه فرد من التابعين له المقتدين بشرعه ، فهل سمعت اذناك - ارشدك الله - بضلال عقل اكبر من هذا الضلال الذى وقع فيه عباد اهل القبور ؟ انا لله وانا اليه راجعون (١) .

ولقد اخبر تبارك وتعالى ان ما يدعوه المشركون من دونه خلق لله وعباد امثال عابديها لا تجلب لهم نفعا ولا تدفع عنهم ضرا ، كما قال تعالى : ((ان الذين تدعون من دون الله عباد امثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم ان كنتم صادقين)) (٢) قال ابن جرير رحمه الله فى تأويل هذه الآية :

---

(١) انظر رسالة شرح الصدور بتحريم رفع القبور ص ٨-٩ - الرسائل السلفية فى احياء سنة خير البرية صلى الله عليه وسلم .

(٢) سورة الأعراف اية : ١٩٤ .

(يقول جل ثناؤه لهؤلاء المشركين من عبدة الأوثان موبخهم على عبادتهم مالا يضرهم ولا ينفعهم من الأصنام ان الذين تدعون ايها المشركون آلهة من دون الله وتعبدونها شركا منكم وكفرا بالله هم املاك لربهم كما انتم مماليك فأن كنتم صادقين انها تضر وتنفع وانها تستوجب منكم العبادة لنفعها اياكم فليستجيبوا لكم لأنها لا تسمع دعاءكم فايقنوا انها لا تنفع ولا تضر لأن الضر والنفع انما يكونان ممن اذا سئل سمع مسألة سائل) (١) .

وليس لأحد مع الله نصيب فى الخلق والملك ، ولا تأثير له فى هذا الوجود برأى او مشورة ، ومن ثم فليس له من الأمر شيء يبرر اشراكه مع الله فى طلب النفع او دفع الضر ، ولهذا قطع الله على من يعدلون به غيره فى هذا الباب كل ما يمكن ان يتخيلوه سببا مبررا لانحرافهم وضلالهم ، فقال جل شأنه :

((قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات والأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير ، ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن اذن له)) (٢) .

قال ابن كثير رحمه الله : يبين تبارك وتعالى انه الاله الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لا نظير له ولا شريك له بل هو المستقل بالأمر وحده من غير مشارك ولا منازع ولا معارض من الآلهة التى عبدت

---

(١) انظر تفسير الأمام الطبرى ج ٩ ص ١٥١ .

(٢) سورة سبأ آية : ٢٢ ـ ٢٣ .

من دونه فلا يملكون شيئا استقلالا ولا على سبيل الشركة وليس للـه من هذه الأنداد من ظهير يستظهر به في الأمور بل الخلق كلهم فقراء اليه عبيد لديه ، ولعظمته وجلاله لا يجترئ احد ان يشفع عنده تعالى في شيء الا بعد اذنه له في الشفاعة كما قال تعالى :

((من ذا الذي يشفع عنده الا بأذنه)) وقوله ((ولا يشفعون الا لمن ارتضى)) ثم قال رحمه الله ولهذا ثبت في الصحيحين من غير وجه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو سيد ولد آدم واكبر شفيع عند اللـه تعالى : انه حين يقوم المقام المحمود يشفع في الخلق كلهم لفصل القضاء قال : (فاسجد لله تعالى فيدعني ما شاء الله ان يدعني ويفتح على بمحامد لا احصيها الآن ثم يقال : (يا محمد ارفع رأسك وقل تسمع وسل تعطه واشفع تشفع) الحديث[(١)] .

فالمدعو من دون الله مجرد من ايه مزية تعطى لسائله الحق في اشراكه مع الله في هذا النوع من انواع العبادة فهو لا يملك في هذا الكون ادنى قدر معين وليس له فيه نصيب مشاع وشفاعته ووساطته في غيره مرهونة بأذن الله له ورضاه عن المشفوع فيه ، كما قال تعالى : ((من ذا الذي يشفع عنده الا بأذنه))[(٢)] وقوله : ((ولا يشفعون الا لمن ارتضى))[(٣)] فبهذا وبمنطق العقل السليم ندرك ان من

---

(١) انظر تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٥٣٦ .. والنووي (٣ / ٦٢)
(٢) سورة البقرة اية : ٢٥٥
(٣) سورة الانبياء اية : ٢٨ .

لا يملك في هذا الوجود مثقال ذرة لا يمكن ان يكون له شيء من الأمر ولا يمكن ان يملك لسائله نفعا او يدفع عنه ضرا .

قال في تيسير العزيز الحميد تعليقا على قوله تعالى : ((ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك)) .. الاية

قال رحمه الله : وفي الآية تنبيه على ان المدعو لا بد ان يكون مالكا للنفع والضر حتى يعطي من دعاه او يبطش بمن عصاه ، وليس ذلك الا لله وحده فتعين ان يكون هو المدعو دون ما سواه [1] .

فمن طلب الغوث والعون من غير الله فيما لا يقدر عليه غير الله فقد استعان بغير معين واستجار بغير مجير ، وكان كما قيل : من استغاث بغير الله كمثل غريق استنجد بغريق او كسجين استنجد بسجين مثله ، فهو يلهث خلف السراب الخادع والأماني الكاذبة ، لأنه استعان بمخلوق ضعيف مثله قد ارم جسده وخالط الثرى ولا يعلم من احوال عالمنا شيئا . وقد ضرب الله مثلا للمدعو من دونه ببيت العنكبوت في ضعفه وعدم غناه وللداعي في تمسكه بذلك المدعو بالعنكبوت التي اتخذت اضعف اسباب الوقاية والمنعة وهو بيتها الذي لا يستر من حر ولا يمنع من قر فقال تعالى : ((مثل الذين اتخذوا من دون الله اولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وان اوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون)) [2]

(١) انظر تفسير العزيز الحميد ص ٢٣٧ .

(٢) سورة العنكبوت اية : ٤١ .

قال ابن كثير رحمه الله :(هذا مثل ضربه الله للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله يرجون نصرهم ورزقهم ويمسكون بهم في الشدائد فهم في ذلك كبيت العنكبوت في ضعفه ووهنه فليس في ايدى هؤلاء من آلهتهم الا كمن يتمسك ببيت العنكبوت فأنه لا يجدى عنه شيئا .

فأنهم لو علموا هذا الحال لما اتخذوا من دون الله اولياء ،وهذا بخلاف المسلم المؤمن قلبه لله وهو مع ذلك يحسن العمل في اتباع الشرع فأنه متمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها لقوتها وثباتها) (١)

فجميع ما يعبد من دون الله من آلهة مزعومة لو اجتمعوا على خلق ذباب واحد ما قدروا على ذلك بل هم عاجزون عن مقاومته والأنتصار منه لو سلبهم شيئا لضعفهم وقلة حيلتهم ، كما قال تعالى :

((يا ايها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب)) (٢)

و روى الأمام البخارى عن ابى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (قال الله عز وجل : و من اظلم ممن ذهب يخلق كخلقي فليخلقوا ذرة (٣) او ليخلقوا حبة او شعيرة (٤)) والمقصود

---

(١) انظر تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٤١٤ .

(٢) سورة الحج اية : ٧٣ .

(٣) النملة او الهباء .

(٤) انظر الفتح جـ ١٣ صـ ٥٣٤ كتاب التوحيد ـ وانظر التفسير لابن كثير .

بذلك، هو التعجيز ،و التهكم والسخرية بهم اذ ليس فى مقدور احد خلق شئ من ذلك هذا وقد ذكر الأمام ابن جرير قولين فى معنى قوله تعالى : (ضعف الطالب والمطلوب) فقيل المراد بالطالب الآلهة والمطلوب الذباب وهو قول ابن عباس رضى الله عنه ، وقيل الطالب الداعى من بنى آدم من الصنم حاجته والمطلوب اليه الصنم ان يعطى سائله من بنى آدم ما سأله ضعف عن ذلك وعجز واختار ابن جرير القول الأول لأن ذلك فى سياق الخبر عن الآلهة والذباب و تابعه فى ذلك ابن كثير رحمه الله والظاهر ان القولين داخلان تحت لفظ الآية وعلى كل سواء كان المعبود من دون الله فى هذه الآية هو الطالب - على القول الأول - او مطلوب على القول الثانى - فقد اخبر الله بضعفه وعدم مقدرته على نفع سائله ، وذلك توبيخا لمن يشرك مخلوقا ضعيفا مع خالقه وخالق الكون كله ومالكه ، اذ كيف يجوز عقلا اشراك المخلوق مع خالقه والمملوك مع سيده فيجعل له نصيب من الأمر يصرف له بموجبه قدرا من العبادة ولذا فقد لفت المولى الأنظار الى هذه المسألة التى لا يقبلها الخلق على انفسهم يجعلون لله ما يشتهون فقال تعالى : ((ضرب لكم مثلا من انفسكم هل لكم مما ملكت ايمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم انفسكم))(١) قال المقريزى رحمه الله : اى اذا كان احدكم يأنف ان يكون مملوكه

---

(١) سورة الروم اية : ٢٨

شريكه في رزقه فكيف تجعلون لي من عبيدي شركاء فيما انا منفرد به وهو الالهية التي لا تنبغي لغيري ولا تصلح لسواي ،فمن زعم ذلك فما قدرني حق قدري ولا عظمني حق عظمتي)[1] .

نعم ما قدر الله حق قدره ولا عظمه حق عظمته من توجه بمسألته الى مخلوق ضعيف ذليل واعرض عن القوى القادر العزيز الذى خلقه ورزقه وضمن له الأجابة بشروطها المعروفة في الشرع كما قال تعالى : ((واذا سألك عبادى عنى فأنى قريب اجيب دعوة الداعى اذا دعانى فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون))[2] .

وقال تعالى : ((اليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه ومن يضلل الله فما له من هاد))[3] .

وقد اخبر سبحانه بأن الألتجاء اليه والأعتماد عليه وحده دون ما سواه شرط في صحة ايمان العبد ـ كما قال تعالى : ((وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين))[4] .

اللهم بك آمنا وعليك توكلنا ولا حول ولا قوة لنا الا بك .

* * *

---

(١) انظر تجريد التوحيد المفيد ص ٢٠ .

(٢) سورة البقرة اية : ١٨٦

(٣) سورة الزمر اية ٣٦ .

(٤) سورة المائدة : ٢٣

(المبحث الخامس)

فى ذكر نماذج للأعمال الشركيـــــــة
لدى بعض المنتسبين للأســــــــلام

انني اعرف ان هذا الموضوع حساس جدا اذ لا يروق لكثير من الناس الكلام فيه ولكنه الواقع المر الذى يجب ان نعترف به وان حاول بعـــض المنتسبين للعلم وبعض الذين يهتمون بالتجمع الأسلامى فحســـب ان يتجاهلوه و يعتذروا عن مظاهر الشرك فى العالم الأسلامـــى بأعذار بعيدة عن الحقيقة والواقع لا تبرر هذا الأنحراف الخطـــير فى معتقدات بعض المسلمين واعمالهم .

و نحن نعرض نماذج مما يفعله ويقدمه بعض المنتسبين للأســـلام من انواع القربـــات والطاعات لغير الله ـ من بعض مخلوقاته ـ وبنفـــس الأسلوب الذى كان يفعله المشركون القدامى ولنفس الغاية التى كانـــوا يقصدون ، كـى نرى وبطريقة المقارنة و الموازنة هل تنسحب عليهـــم صفات المشركين القدامى ؟ وبالتالى ينطبق عليهم نفس الوصف الـــذى اصدره بحقهم رب العالمين ؟

لقد وقع الجم الغفير ممن ينتسبون للأسلام فيما وقع فيه المشركون السالفون بصرفهم جل العبادات للقبور المقدسة لديهم ، كالنحـــر لها والطواف حولها ،والأستغاثة بأصحابها ، والتبرك بترابها ، والتقدم

لأصحابها بالشكاوى ، وانواع المطالب ، وحمل المرضى اليهم من اماكن بعيدة بقصد الشفاء مع التزلف بتقديم القرابين المستطاعة ويهتفون بأسمائهم فى كل مكان ويتوجهون اليهم بكل مطلب و يعرضون عن الله كأنه لا يعلم بحاجاتهم او لا يقدر على اجابة دعواتهم او كأنه وكل هؤلاء الموتى بقضاء حوائج السائلين واجابة المضطرين من دونه .

كقولهم يا رسول الله اغثنى يا رسول الله خذ لى حقى من فلان الظالم واذا نزلت بأحدهم ضائقة هتف بأهل ثامرة والشيخ عقبة ومن ذلك قولهم : ياهل بدر وانتم سيادى ، دخليكم من كل الاعادى و تضرعهم عند قبور الصحابة وآل البيت وقبور الأولياء والصالحين المنتشرة فى كل مكان من بقاع الأرض .

وانا لا اقول ذلك اعتباطا او زعما ازعمه بلا دليل يدل عليه فأنه بعد انقضاء القرون المفضلة كثرت البدع والخرافات والرجوع الى الوثنية الأولى وفشى هذا الداء الموروث و انتشر بين المسلمين فى قديم الزمان وحديثه حتى لم يكد يسلم منه جيل من اجيالهم ولا وطن من اوطانهم . . كما يتضح ذلك من مجموعة النقول التى سوف اوردها لبعض العلماء الدعاة الذين عايشوا هذا الأمر وكابدوه ونالهم من القبوريين ما نالهم من اذا وظلم بسبب نصحهم اياهم وانكارهم عليهم وهى كما اوضحت فى عنوان هذا البحث انما هى امثلة ونماذج فقط ولا تعنى الاستقطاب والحصر والأحاطة .

قال الأمام ابن القيم رحمه الله :

وترى احدهم قد اتخذ ذكر آلهه ومعبوده من دون الله على لسانه ديدنا له ان قام وان قعد وان عثر وان مرض وان استوحش ، ويزعم انه باب حاجته الى الله وشفيعه عنده ووسيلته اليه ، وهكذا كان عباد الأصنام سواء ، وهذا القدر هو الذى قام بقلوبهم وتوارثه المشركون بحسب اختلاف آلهتهم كما قال تعالى : ((والذين اتخذوا من دونه اولياء ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى)) والذى فى قلوب هؤلاء المشركين وسلفهم ان آلهتهم تشفع لهم عند الله وهذا عين الشرك فترى المشرك يكذب حاله وعمله قوله فيقول : لا نحبهم كحب الله ولا نسويهم بالله ثم يغضب لهم ولحرماتهم اذا انتهكت اعظم مما يغضب لله ـ ثم يقول رحمه الله ـ رأينا والله هذا منهم عيانا ورمونا بعداوتهم ولم تكن حجتهم الا ان قالوا كما قال اخوانهم ـ عاب آلهتنا ـ فقال هؤلاء : تنقص مشايخنا وابواب حوائجنا الى الله ولعمر الله ان كان اولئك قد خلو فقد ورثهم من هو مثلهم او شر منهم او دونهم وتناول القرآن لهم كتناوله لأولئك ، ولكن الأمر كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : (انما تنقض عرى الأسلام عروة عروة اذا نشأ فى الأسلام من لا يعرف الجاهلية) وهذا لأنه اذا لم يعرف الجاهلية والشرك وما عابه القرآن وذمه وقع فيه واقره ودعا اليه وصوبه وحسنه (١)

---

(١) انظر مدارج السالكين جـ ١ ص ٣٣٩ ـ ٣٤٤ ـ بتصرف .

وقال داعية التوحيد والمجاهد الكبير الأمام محمد بن اسماعيل اليمنى الصنعانى رحمه الله : وهو يوضح و يبين ما كان عليه القوم اوضح بيان واجلاء : لكل قوم رجل ينادونه ويعاملونه معاملة المشركين لأصنامهم و يطوفون بهم طواف الحجاج ببيت الله الحرام ويستلمونهم استلامهم لأركان البيت ويخاطبونهم بالكلمات الكفرية ، فأهل العراق والهند يدعون عبد القادر الجيلانى واهل التهائم لهم فى كل بلد ميت يهتفون باسمه يقولون يا زيلعى يا بن العجيل ،واهل مكة واهل الطائف يابن عباس واهل مصر يا رفاعى ،يا بدوى ، والسادة البكرية واهل الجبال يا ابا طير واهل اليمن يابن علوان وفى كل قرية اموات يهتفون بهم وينادونهم ويرجونهم لجلب الخير ودفع الضر وهذا هو بعينه ـ والكلام له رحمه الله ـ فعل المشركين فى الأصنام كما قلنا فى الابيات النجدية (١)

اعادوا بها معنى سواع ومثله ∴ يغوث ، وود ، بئس ذلك من ودى

وقد هتفوا عند الشدائد بأسمها ∴ كما يهتف المضطر بالصمد الفردى

وكم نحروا فى سوحها من نحيرة ∴ اهلت لغير الله جهلا على عمد

و كم طائف حول القبور مقبلا ∴ و يلتمس الأركان منهن بالأيدى .. الخ

ثم قال رحمه الله فأن قلت اقيصر هؤلاء الذين يعتقدون فى القبور والأولياء والفسقة والخلعاء مشركين كالذين يعتقدون فى الأصنام؟

---

(١) من قصيدة مدح فيها الشيخ محمد بن عبد الوهاب واشاد فيها بدعوته رحمهما الله جميعا .

قلت نعم قد حصل منهم ما حصل من اولئك وساووهم فى ذلك ،بل زادوا فى الأعتقاد والأنقياد والأستعباد فلا فرق بينهم (١) الخ كلامه رحمه الله .

ونقل صاحب كتاب صرع الشرك والخرافة من الرسالة الخيرية لمؤلفها عبد الرحمن بن خير الدين (٢) الشريف ،نقل الأبيات التالية وهى غاية فى الشرك والضلال والخروج عن تعاليم الاسلام ؛ حيث يقول قبحه الله مخاطبا معبوديه من اصحاب القبور ؛

الا يا سادتى انتم رجالى ∴ هلموا وانظروا قد ضاق حالى

هم السادات ارباب المطايا ∴ ملوك العالمين على التوالى

هم الخلفاء للتصريف دوما ∴ بذى الدنيا لهم هم عوالى

وفى الأخرى مريدهم بعز ∴ ينال الخير مع رتب الكمال

اذا ما قال تابعهم اغيثوا ∴ عبيدكم اتو بكل حال

ابا المسلمين يا درعى وحصنى ∴ اغثنى انه قد ضاق حالى

دسوقى يا ابا العينين ادرك ∴ معنّى لاشذا من سوء حال

اهل اجنح لغيركم وانتم .. ملوك الارض بل انتم رجالى

وهل يخفاكم حالى فحاشا .. بأن يرضيكم ذلى وآلى

ثم قال ـ اى صاحب كتاب صرع الشرك والخرافة معقبا على هذه

---

(١) انظر تطهير الاعتقاد ص ٣٢ـ ٣٥ بتصرف .

(٢) من شيوخ الطريقة الخلونية وهذه الطريقة منتشرة بفلسطين والأردن ويعرف اتباعها بالدراويش ولهم زوايا و تكايا يتجمعون فيها .

الكفريات : وبعد فهذا لون من الوان استغاثة الصوفية الضالين الذين التجوءوا بها الى اشياخهم وسادتهم المقبورين ، ونسوا الله رب العالمين الذى لا يجوز ان تصرف هذه العبادات ـ الأستغاثة والدعاء ، وقضاء الحوائج لغير وجهه الكريم[(١)] .

وقال الشيخ محمد الغزالى فى سياق وصفه وتنديده بما رآه من اعمال الشرك والضلال التى شاهدها من بعض المنتسبين للأسلام عند مشهد ما يسمى بأحمد البدوى يقول : لقد اهتمت حكومة انجلترا فى سبيل مكافحة الشيوعية بالحالة الدينية فى مصر ،فكان مما طمأنها على ايمان المصريين ان ثلاثة ملايين مسلم زاروا ضريح احمد البدوى بطنطا هذا العام ،والذين زاروا الضريح ليسوا مجهولين لدى فطالما اوفدت رسميا لوعظهم فكنت اشهد من اعمالهم ما يستدعى الجلد بالسياط لا ما يستدعى الزجر بالكلام ، وكثرتهم الساحقة لا تعرف عن فضائل الأسلام وانظمته وآدابه شيئا ، وحسبك من معرفة حالهم انهم جاءوا الضريح المذكور للوفاء بالنذور والأبتهال بالدعاء ،الى ان قال : ان المسلمين لما طال عليهم الأمر نسوا الحق والمرء قد يعذر اذا ذهل عن شأن تافه او فاته استصحاب شىء هين اما ان يذهل عن كيانه وايمانه فهنا الطامة .. الخ كلامه[(٢)]

---

(١) انظر مصرع الشرك والخرافة ص ٤٩٨ ـ ٤٩٩ .

(٢) انظر عقيدة المسلم ص ٦٤ ـ ٦٦ .

وقال فى موضع آخر حول بدعة بناء المساجد على القبور وافتتان الناس بها قال : ومع كثرة الدلائل التى انتصبت فى الأسلام دون الوقوع فى هذا المحظور فقد اقبل المسلمون على بناء المساجد فوق قبور الصالحين و تنافسوا فى تشييد الأضرحة حتى اصبحت تبن على اسماء لا مسميات لها ، بل قد بنيت على الواح الخشب وحشث الحيوانات ومع ذلك فهى مزارات مشهورة معمورة تقصد لتفريج الكرب وشفاء المرضى و تهوين الصعاب [(١)] .

وقال الشيخ محمود شكرى الآلوسى : وقلت يوما لرجل يستغيث بشدة ببعض الأموات وينادى يا فلان اغثنى فقلت له قل يا الله فقد قال سبحانه : ((واذا سألك عبادى عنى فأنى قريب اجيب دعوة الداع اذا دعان)) فغضب وبلغنى انه قال : ان فلان منكر على الأولياء وسمعت عن بعضهم انه قال : الولى اسرع اجابة من الله وهذا من الكفر بمكان [(٢)] .

و مما تناقله الناس فى هذا الباب ايضا : ان رجلا سأل صديقا له فقال كيف رأيت الجمع لزيارة الشيخ ؟ فقال الرجل لم ار اكثر منه الا فى عرفات الا انى لم ارهم سجدوا لله سجدة ولا صلوا مدة ثلاثة ايام فريضة فقال الأخر ـ بكل جرأة ووقاحة ـ قد تحملها عنهم الشيخ .

---

(١) انظر عقيدة المسلم ج ٦٨ .

(٢) انظر غاية الأمانى فى الرد على النبهانى ج٢ ص ٣١٤ـ ٣١٥ .

وسافر رجلان من مكة الى الطائف واحدهما يزعم انه من اهل العلم فقال رفيقه ببديهه الفطرة : اهل الطائف لا يعرفون الله وانما يعرفون ابن عباس فأجابه بأن معرفتهم لابن عباس كافيه لأنه يعرف الله .

وقيل ان رجلا كان ببعض المشاهد بمكة فقال لمن عنده اريد الذهاب للطواف فقال له بعض كبرائهم مقامك هذا اكرم اى بجوار المشهد او الضريح [1] .

وامثال هذه الشركيات والضلالات كثير جدا فقد تعلق كثير من الخلق وفتنوا بقبور بعض الصحابة وآل البيت المتناثرة في الأرض فقصدوها بأغلى انواع العبادة كالاستغاثة والدعاء فعبدوها من دون الله فمن ذلك قبر على وقبر ابنه الحسين رضى الله عنهما بالعراق وقبر ابى عبيدة رضى الله عنه بالشام ، وما يسمى بقبر الحسين والسيدة زينب والسيدة نفيسه بمصر وقبر زيد بن الخطاب وقبر ضرار بن الأزور رضى الله عنهما بنجد .

الى غير ذلك من قبور الأولياء الصالحين وغيرهم .. وليس يخفى ما يصدر من تصرفات كثير من الحجاج وغيرهم وهم يهتفون باسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ويدعونه ويستغيثون به وما يصدر منهم كذلك عند قبور آل البيت وقبور الشهداء من منكرات بعيدة عن تعاليم الأسلام

---

(١) انظر صرح الشرك والخرافة ص ١٢ ٥ .

كل البعد ، رغم ما يقدم لهم من نصائح وارشادات وتحذيرات ورغم منع وازالة كل ما يمكن ازالته من الوسائل التي تساعد على انتشار الخرافات والبدع والشركيات بين الحجاج وغيرهم من المسلمين .

فواجب العلماء والحكام المسلمين مكافحة هذا الشر بتبصير المسلمين بأمور دينهم وعدم تشجيع العامة على ممارسة البدع والخرافات والشركيات المناهضة للدين ، فأن ذلك اول واجب تفرضهم عليهم مسئولياتهم نحو شعوبهم .

* * *

اعتقادات،واقوال واعمال شركية يجب على المسلم اجتنابهـــا

لقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم امته وحذرها ، عن كـــل ما من شأنه التفات القلب ـ ولو كان شيئا يسيرا ـ عن الله عز وجـــل لتكون اعمال المسلم وجميع تصرفاته خالصة لله تعالى كما قال جل شأنـــه :

((وما امروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين)) [1] .

فمن ذلك بعض الأعمال التى نهى عنها الأسلام واعتبرها شركـــا يجب على المسلم اجتنابه :

أولا :

الحلف بغير الله عز وجل ، ولقد سبق الكلام عليه بأختصـــار كنموذج للشرك الأصغر ولكن لا مانع من البسط فيه بعض الشـــئ نظرا لوقوع كثير من المسلمين فى هذا الأمر ولتعدد انواع المحلـــوف بـه ،فلقد نهى صلى الله عليه وسلم عن الحلف بغير الله واعتبر ذلـــك شركـا مهما كانت درجة المحلوف به ومنزلته ونوعه ، وسواء اكان المحلوف به حيا او ميتا قريبا ام بعيدا ،لما فى ذلك من تعظيم لذات المحلـــوف بـه ورفع لمنزلتـــه .

ولقد تقرر فى شرع الله وتوحيده ان التعظيم حق لله ونـــوع من انواع العبادة التى لا يجوز ان يصرف منها شئ لغير الله ومـــن

---

(١) سورة البينـــة اية : ٥ .

ذلك الحلف بغيره تعالى :

فعن عبد الله ابن عمر رضى الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ادرك عمر بن الخطاب يسير فى ركب يحلف بأبيه فقال : (ان الله ينهاكم ان تحلفوا بآبائكم فمن كان حالفا فليحلف بالله او ليصمت)(١) قال فى الفتح قال العلماء : السر فى النهى من الحلف بغير الله ان الحلف بالشئ يقتضى تعظيمه والعظمة فى الحقيقة انما هى لله وحده (٢) .

وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم ما يدل على ان الحلف بغير الله كفرا او شركا مناف للتوحيد فعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (من حلف بغير الله فقد كفر او اشرك)(٣) فقوله صلى الله عليه وسلم (بغير الله) شامل لكل محلوف به غير الله سواء اكان ملكا مقربا ، او نبيا مرسلا ، او وليا من الأولياء ، او شيطانا او شجرا او حجرا فالحلف نوع من انواع التعظيم والتعظيم من اجل انواع العبادة ، والعبادة لا يجوز صرف شئ منها لغير الله ، ومن صرف منها شيئا لغير الله فقد اشرك مع الله فى هذه العبادة فعلى المسلم اذا اراد ان يحلف ان يحلف بالله او ليصمت (كما امر رسول الله صلى الله عليه وسلم) حتى لا يدخل فى عداد المشركين .

---

(١) رواه البخارى ـ انظر كتاب الأيمان والنذور : باب لا تحلفوا بآبائكم ، الفتح جـ ١١ ص ٥٣٠ .

(٢) الفتح جـ ١١ ص ٥٣١ .

(٣) رواه الترمذى وحسنه . انظر تحفة الاحوذى (٥/ ١٢٥)

ولقد امر صلى الله عليه وسلم من حلف بشيء من معظمات الجاهلية التي ابطلها الأسلام امره ان يجدد توحيده بقول : (لا اله الا الله) فعن ابي هريرة رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : من حلف فقال في حلفه باللات والعزى فليقل : (لا اله الا الله) ومن قال لصاحبه تعال اقامرك فليتصدق) (١) فأمره صلى الله عليه وسلم الحالف بذلك بقوله : (لا اله الا الله) : لكونه تعاطى صورة تعظيم الصنم حيث حلف به وهذا مضاهاة للكفار في حلفهم فأمر بتجديد كلمة التوحيد .

تنبيه :

هذا وليس في قوله صلى الله عليه وسلم في قصة الأعرابي الذي سأله عن امور الأسلام فأخبره صلى الله عليه وسلم ... الحديث وفيه فقال صلى الله عليه وسلم : (افلح وابيه ان صدق) (٢)

ليس في ذلك حجة للحالفين بغير الله ، فقد أجاب العلماء بأن ذلك كان مستعملا ثم ورد النهي عنه في الاسلام .

قال الشيخ سليمان بن عبد الله حفيد الشيخ محمد بن عبد الوهاب

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأيمان والنذور باب: لا يحلف باللات والعزى ولا بالطواغيت) - الفتح جـ ١١ ص ٥٣٦ .

(٢) انظر النووي (١/ ١٦٨) - رواه مسلم

رحمهم الله : (وهذا الجواب هو الحق ويؤده ان ذلك كان مستعملا شائعا حتى ورد النهي عن ذلك كما في حديث ابن عمر ان النبي صلى الله عليه وسلم ادرك عمر يسير في ركب يحلف بأبيه فقال : (الا ان الله ينهاكم ان تحلفوا بآبائكم من كان حالفا فليحلف بالله او ليصمت) وعنه ايضا قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كان حالفا فلا يحلف الا بالله) . . وكانت قريش تحلف بآبائها فقال : (ولا تحلفوا بآبائكم) فما ورد فيه ذكر الحلف بغير الله فهو جار على العادة قبل النهي لأن ذلك هو الأصل حتى ورد النهي عن ذلك) (١) .

وعلى هذا فيكون الحلف بغير الله قسما من اقسام الشرك كما ورد في قوله صلى الله عليه وسلم (من حلف بغير الله فقد كفر او اشرك) غير انه لا يصل الى درجة الشرك الأكبر كما مر معنا في قول ابن عباس وغيره من العلماء ، لكن على المسلم ان يخافه ويحذره فهو مصيدة من مصايد الشيطان ، فقد يرتفع بنية الحالف الى درجة الشرك الأكبر اذا كان للمحلوف به سيطرة وهيمنة على قلب الحالف بحيث يعتقد ان المحلوف به قادر على الأنتقام منه فيما لو كان كاذبا او غير ذلك من انواع القدرة والتعظيم ، وهذا ليس خاصا بهذه المسألة بل كل ما هو معدود من الشرك الأصغر قد يرتفع الى درجة الشرك الأكبر بما يصحبه من قصد ونية .

---

(١) تيسير العزيز الحميد (٥٩٢ - ٥٩٣) .

قال الأمام ابن القيم رحمه الله : (اما الشرك الأصغر فكيسير الرياء والتصنع للخلق والحلف بغير الله ،كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : (من حلف بغير الله فقد اشرك) وقول الرجل (ما شاء الله وشئت) و (هذا من الله ومنك) و (انا بالله وبك) و (ما لي الا الله وانت) و (انا متوكل على الله وعليك) و (لولا انت لم يكن كذا وكذا) ثم قال رحمه الله : وقد يكون هذا شركا اكبر بحسب قائله ومقصده)[1] .

تنبيه :

وليس ايضا فيما ورد في القران من القسم بغير الله حجة للحالف بغير الله فأن في ذلك جوابين :ـ

احدهما : ان فيه محذوف والتقدير : ورب الشمس ، ورب الليل ، ونحو ذلك .

والثاني : ان ذلك يختص بالله فأذا اراد تعظيم شيء من مخلوقاته اقسم به لبيان عظمته واهميته ،وليس للمخلوق ان يقسم بغير الله كما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم في الأحاديث السالفة الذكر .

* * *

---

(١) مدارج السالكين جـ ١ ص ٣٤٤ .

ثانيا : تعليق التمائم ونحوها اتقاء العين وحسد الحاسدين :

يقوم كثير من المسلمين اليوم بتعليق التمائم [1] والودع [2] على الأطفال اتقاء العين ولبس الحلقة والخيط لدفع المرض او رفعه ، وتعليق الخيوط والأحذية ونحو ذلك على الدواب والمنازل ، والمزارع ، والسيارات اتقاء العين وحسد الحاسدين ولا شك ان هذه الأمور من موروثات الجاهلية الأولى التى نهى عنها الأسلام وابطلها لما فيها من تعلق القلب بغير الله واعتقاد النفع والضر فيما سواه ،ولما فيها من مضاهات للجاهلية واتخاذ اسباب لم يأذن الله فيها ولا رسوله صلى الله عليه وسلم .

فدفع الضر وكشف البلاء والحماية من المهلكات وانواع المصائب عن النفس والمال والأهل والولد انما هو فى مقدور الله وحده وليس شىء من ذلك فى مقدور احد سواه كما قال تعالى : ((قل افرأيتم ما تدعون من دون الله ان ارادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره ؟ او ارادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته ؟ قل حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون)) [3] .

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن رحمه الله معلقا على معنى هذه الآية الكريمة : (هذه الآية وامثالها تبطل تعلق القلب بغير الله ، فى

---

(١) التمائم : جمع تميمه وهى خرزات يعلقها البعض على الأطفال والدواب اتقاء العين وهى من اعمال الجاهلية .

(٢) الودع : شىء يخرج من البحر يشبه الصدف كانوا يتقون به العين ايضا .

(٣) سورة الزمر آية : ٣٨ .

جلب نفع او دفع ضر ،وان ذلك شرك بالله ، وفي الآية بيان ان الله تعالى وسم اهل الشرك بدعوة غير الله والرغبة اليه من دون الله ، والتوحيد ضد ذلك وهو الا يدعى الا الله ولا يرغب الا اليه ولا يتوكل الا عليه ،وكذا جميع انواع العبادة لا يصلح منها شيء لغير الله كما دل على ذلك الكتاب والسنة واجماع سلف الأمة وائمتها)[١] .

وقد اخبر صلى الله عليه وسلم ان تعليق هذه الأشياء ونحوها والتعلق بها : شرك مناف للتوحيد . . فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :
(ان الرقى[٢] والتمائم ، والتولة[٣] : شرك)[٤] ومن حديث عطية بن عامر: (من تعلق تميمة فقد اشرك)[٥] .

ولقد دعا صلى الله عليه وسلم على من تعلق بتميمة او ودعة بأن لا يتم الله له مقصده والا يجعله في دعة من امره وسكون فقال صلى الله عليه وسلم : (من تعلق تميمة فلا اتم الله له ، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له)[٦] .

---

(١) انظر فتح المجيد : ٩٥ .
(٢) الرقى : هي العزائم والمقصود بها هنا الشركية .
(٣) نوع من السحر يزعمون انه يحبب المرأة الى زوجها والرجل الى امرأته .
(٤) رواه الأمام احمد وابو داود انظر الفتح الرباني ١٧/ ١٨٦
(٥) رواه الأمام احمد .انظر الفتح الرباني (١٧/ ١٨٧)
(٦) رواه الأمام احمد .انظر الفتح الرباني (١٧/ ١٨٧)

فهذه الأشياء لا تزيد متعلقها الا مرضا وبلاء لعدم فائدتها ،ولتأثيرها السيء على نفسيته وعقيدته ،ولم يجعلها الله سببا من الأسباب المشروعة لدفع البلاء او رفعه ،ولقد انكر صلى الله عليه وسلم على من تعلق شيئا من ذلك وامره بنزعه واخبره بأن ذلك لا يزيده الا مرضا على مرضه بسبب اعتقاده الفاسد ، فعن عمران بن حصين رضى الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلا فى يده حلقة من صفر فقال : ما هذه ؟ قال : من الواهنة[1] فقال انزعها فأنها لا تزيدك الا وهنا ، فأنك لو مت وهى عليك ما افلحت ابدا)[2] ودخل حذيفة رضى الله عنه على رجل يعوده فى مرضه فرأى فى يده خيطا فقال ما هذا فقال الرجل شيء رقى لى فيه ، فقطعه حذيفة رضى الله عنه وقال له : (لو مت وهو عليك ما صليت عليك) ثم تلا قوله تعالى : ((وما يؤمن اكثرهم بالله الا وهم مشركون)) .

فاستدل حذيفة رضى الله عنه بالآية على ان هذا شرك ففيه حجة الأستدلال على الشرك الأصغر بما انزله الله فى الشرك الأكبر لشمول الآية له ودخوله فى مسمى الشرك)[3] .

فواجب المسلم اجتناب الأمور الشركية ، والأعتماد على الله وحده

---

(١) الواهنة : مرض يأخذ بالمنكب او اليد .

(٢) رواه الامام احمد .- انظر الفتح الربانى ١٧/ ١٨٧)

(٣) انظر فتح المجيد : (٩٦-١٠٠) .

و محاولة دفع المكروه او رفعه بما ورد فى القرآن الكريم بهذا الخصوص والأدعية المأثورة والأخذ بالأسباب المادية المشروعة وان يعتمد على اللـه فى حصول مقصده فهو وحده صاحب القدرة المطلقة والمشيئة النافذه .

تنبيـــــه :

النهى الوارد فى التميمة صريح فيما يعلق من غير القرآن ، اما اذا كان المعلق من القرآن واسماء الله وصفاته فقد اختلف فى جـــواز تعليقه فقالت طائفـة بالجواز و حملوا النهى على ما كان فيه شـــرك وبه قالت عائشة ام المؤمنين رضى الله عنها ورواية عن احمد .

وقالت طائفة بعدم الجواز منهم ابن مسعود وابن عباس وجماعـــة من التابعين ورواية عن احمد .. هذا وقد ذكر الشيخ محمد بن عبـــد الوهاب رحمه الله القولين ولم يعقب عليهما حيث اورد حديث ابن مسعود قال : (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (ان الرقى ، والتمائم والتولـة شرك) .. فقال رحمه الله : (التمائم) شىء يعلق علـــى الأولاد من العين ، ولكن اذا كان المعلق من القرآن : فرخص فيه بعـض السلف وبعضهم لم يرخص فيه ويجعله من المنهى عنه ، منهم ابن مسعود رضى الله عنه . (١)

هذا وقد رجح الشيخ عبد الرحمن حسن القول بعدم الجواز لعموم النهى ولا مخصص لعموم ، وسدا للذريعة فأنه يفضى الى تعليق مـــا

---

(١) انظر كتاب التوحيد مع شرحه فتح المجيد ص ١٠٣ .

ليس كذلك ...... الخ كلامه ... والله اعلم .

ثالثا : التبرك ببعض المخلوقات وطلب الشفاء منها او عندها :

لقد درج كثير من الناس على التبرك ببعض الأشجار والأحجار، او العيون الجارية او المواقع، و تعظيمها وطلب الشفاء منها او عندها ، ولقد نهى صلى الله عليه وسلم عن ذلك ،واخبر ان التعلق به شرك لما فيه من صرف القلب عن الله فمن ابى واقد الليثى رضى الله عنه قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى حنين (١) ونحن حدثاء عهد (٢) بكفر وللمشركين سدرة يعكفون (٣) عندها و ينوطون (٤) بها اسلحتهم ، يقال لها ذات انواط (٥) ، فمررنا بسدرة فقلنا يا رسول الله اجعل لنا ذات انواط كما لهم ذات انواط ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "(الله اكبر (٦) انها السنن قلتم والذى نفسى بيده كما قالت بنوا اسرائيل لموسى (اجعل لنا الها كما لهم آلهة قال انكم قوم تجهلون) ، لتركبن سنن من كان قبلكم) (٨) .

---

(١) وادى مشهور حدثت فيه موقعة عظيمة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وهوازن بعد فتح مكة سنة ٨ للهجرة قال تعالى (لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين ..) الآية .

(٢) أى قريب عهدنا بالكفر.

(٣) العكوف: الاقامة على الشيء .

(٤) أى يعلقونها عليها للبركة .

(٥) ظنوا ان ذلك محبوب الى الله مقرب منه .

(٦) تعجب من قولهم وتعظيم لله عن هذا الشرك .

(٧) أى الطرق .

(٨) رواه الترمذى وصححه .

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن : ففى هذا بيان ان عبادتهم لها بالتعظيم ، والعكوف ،والتبرك وبهذه الأمور الثلاثة عبدت الأشجار ونحوها . . وقد شبه صلى الله عليه وسلم مقالتهم هذه وتقول بنى اسرائيل لموسى (بجامع ان كلا منهم طلب ان يجعل له ما يألهه ويعبده من دون الله وان اختلف اللفظ فالمعنى واحد فتغيير الاسم لا يغير الحقيقة ، ثم قال رحمه الله ففيه الخوف من الشرك وان الأنسان قد يستحسن شيئا يظن انه يقربه الى الله وهو ابعد ما يبعده من رحمة الله ،ويقربه من سخطه ، ولا يعرف هذا على الحقيقة الا من عرف ما وقع فى هذه الأزمان من كثير من العلماء والعباد مع أرباب القبور من الغلو فيها وصرف جل العبادة لها و يحسبون انهم على شىء وهو الذنب الذى لا يغفره الله .

وفى هذه الجملة من الفوائد - والكلام له رحمه الله - ان ما يفعله من يعتقد فى الأشجار والقبور والأحجار من التبرك بها والعكوف عندها والذبح لها هو الشرك ،ولا يغتر بالعوام والطغام ولا يستبعد كون الشرك يقع فى هذه الأمة ،فاذا كان بعض الصحابة ظنوا ذلك حسنا وطلبوه من النبى صلى الله عليه وسلم حتى بين لهم ان ذلك كقول بنى اسرائيل : (اجعل لنا الها كما لهم آلهة) فكيف لا يخفى على من هو دونهم فى العلم والفضل بأضعاف مضاعفة مع غلبة الجهل وبعد العهد بآثار النبوة ؟ بل خفى عليهم عظائم الشرك فى الألوهية ،والربوبية ،فأكثروا

فعله واتخذوه قربة (١) .

قلت : ومن ذلك ما نشاهده اليوم من بعض الجهلة والمخدوعين من التبرك بأشخاص وآثار من يظن انهم من عباد الله الأتقياء الصالحين من تقبيل ايديهم ، والتمسح بهم ، وحمل نعالهم ، وتعمد الشرب بعدهم من اناء واحد وتقليدهم فى تصرفاتهم ، والألحاح عليهم بطلب الدعاء منهم ، وكيل المديح لهم واطلاق شتى الفاظ الأستعطاف .. والتبجيل عليهم مثل قولهم : يا سيدنا ، يا مولانا يا حبيب الله ، يا ولى الله ، والقيام لمقدمه والأنحناء له الى آخر التصرفات التى من شأنها اضعاف شخصية المسلم وان لا اله لغير الله ، فأن هذا التصرف ممنوع وغير جائز لأنه تعظيم لغير الله ، ولأن فعله والأستمرار عليه سوف يؤدى بصاحبه الى الوقوع فى الألفاظ والأعمال الشركية ، المنافية للتوحيد .

فلم ار فى حياتى انسانا اشتهر بهذه التصرفات وراولع بتقديمها الا وهو ضعيف فى عقيدته بل قد يفعل الشرك الصريح باسم احترام العلماء والصلحاء وتقديرهم رجاء النيل من بركاتهم .

اما ادعاء بعض المتأخرين جواز ذلك قياسا على فعل الصحابة رضى الله عنهم مع النبى صلى الله عليه وسلم ، فهذه دعوى مردودة وقياس باطل لأمور :

---

(١) فتح المجيد : (١١٢-١١٦) .

١) ان النبى صلى الله عليه وسلم : لا يقاس عليه غيره ، بدليل ان الصحابة رضى الله عنهم لم يكونوا يفعلون مع الخلفاء الراشدين المهديين ما كانوا يفعلونه مع النبى صلى الله عليه وسلم .

٢) ان الصحابة رضى الله عنه لم يكونوا يتجاوزون بالنبى صلى الله عليه وسلم حده وقدره .

٣) كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينبههم على الأخطاء التى تحدث من هذا القبيل وينهى عنها ويحذر منها .

- قال فى فتح المجيد : واما ادعاء بعض المتأخرين من انه يجوز التبرك بآثار الصالحين فممنوع من وجوه :

منها ان السابقين الأولين من الصحابة ومن بعدهم لم يكونوا يفعلون ذلك مع غير النبى صلى الله عليه وسلم ، لا فى حياته ولا بعد موته ولو كان خيرا لسبقونا اليه ، وافضل الصحابة ابو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى رضى الله عنهم ، وقد شهد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيمن شهد له بالجنة ، وما فعله احد من الصحابة والتابعين مع احد من هؤلاء السادة ولا فعله التابعون مع ساداتهم فى العلم والدين وهم الأسوة ، فلا يجوز ان يقاس على النبى صلى الله عليه وسلم احد من الأمة وللنبى صلى الله عليه وسلم فى حال الحياة خصائص كثيرة لا يصلح ان يشاركه فيها غيره ، ومنها ان فى المنع عن ذلك سدا لذريعة الشرك كما لا يخفى) (١)

---

(١) انظر فتح المجيد (١١٤ - ١١٥) .

رابعا : التطيير (١) والتشاؤم من بعض المخلوقات :

ومن الأمور الشركية ما اعتاده بعض الناس من التطير والتشاؤم ببعض الطيور ، والحيوانات ، والألوان والأمكنة ، والأزمنة .

وقد كان اهل الجاهلية يتطيرون بالطير والظباء وغيرهما فاذا اراد احدهم سفرا اوقضاء امر من الامور : عاف الطير وزجره فما ولاهم ميامنه قالوا : عنه سانح واستبشروا به خيرا ومضوا لحاجتهم وما ولاهم مياسره قالوا عنه بارح فتشاءموا منه ورجعوا عن حاجتهم .

فلما جاء الاسلام نفى هذه العادة الجاهلية وابطلها ، واخبر انها لا تجلب نفعا ولا تدفع ضرا ، وان ذلك كله بيد الله وتحت مشيئته .

قال ابن عباس رضى الله عنه فى معنى قوله تعالى : ((الا انما طائرهم عند الله ولكن اكثرهم لا يعلمون)) (٢)

اى طائرهم ما قضى عليهم وقدر لهم وفى رواية شئومهم عند الله ومن قبله .

اى انما جاءهم الشئون من قبله بكفرهم وتكذيبهم آياته ورسله .

غير ان بعض المسلمين قد تناقلوا هذه الأمور الشركية ، وتوارثوها وراجت بينهم بسبب ما مر على المسلمين من عصور الجهل والفوضى فى

---

(١) مظدر تطير يتطير واصله التطير بالسوائح والبوارح من الطير والظبا وغيرهما .

(٢) سورة الاعراف اية ١٣١

- انظر ابن جرير (٩/ ٢٩) .

جل امورهم وبخاصة الامور الدينية والسياسية فجهل الكثير من امـــر التوحيـد وفشى بينهم الشرك على اختلاف درجاته وانواعـه ،ولا زال الكثيرمن الناس يفعل ذلك حتى فى هذا العصر ـ عصر العلم والاختراع ـ فترى البعض يستبشـر ويتشاءم بتصرفات طائر او حيوان قصد بهـــا مصلحته ومنفعته ، ولم يقصد بها ما يدور فى خلد ذلك الشخص الـذى لعبت به الوساوس والظنون وذهبت به كل مذهب كما يتشاءم من منظر بعض الأشخاص ،والألوان ،والأمكنة ، فاذا ما رأى شيئا من ذلك يكرهه احجم عن حاجته وقد يمضى اذا كان مضطرا على مضض .

ومن ابتلوا بهذه الوساوس الشيطانية من يمتنع عن السفر او الزواج .. او عقد صفة تجارية كبيرة فى شهر صفر لشدة تشاؤمه به .. وكل ذلك من امر الجاهلية و اوهامها .. . فأبطل صلى الله عليه وسلم هذا الأعتقـــاد الجاهلى ونفى ان يكون لهذه الأشياء وغيرها تأثير فى امور العباد فمـــا هى الا مخلوقات لله مربوبة له لا تقدم ولا تؤخر فى اقدار الله شـيئا

فعن ابى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

(لا عدوى (١) ، ولا طيرة ، ولا هامة (٢) ، ولا صفر (٣)) (٤)

فعلى المسلم ان يستمسك بعروة التوحيد ويعتصم بحبله المتـــين

---

(١) يقال اعداه الداء يعد به اعداء اذا اصابه مثل ما بصاحب الداء .

(٢) طير من طيور الليل وهى البومة كانوا يتشاءمون بها اذا وقعت على بيت احدهم .

(٣) هو الشهر المعروف وقيل هو داء معدى يكون فى البطن يصيب الناس والماشية .

(٤) رواه البخارى ومسلم . انظر النووى (١٤/ ٢١٣)

.. ويتوكل على الله فى كل اموره وكافة شئونه ويقطع عنه هواجس التطير بالأعتماد على خالقه ومولاه ،ويستذكر قوله تعالى : ((ما اصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى انفسكم الا فى كتاب من قبل ان تبراها ان ذلك على الله يسير) (١) ويعلم ان ما اخطأه لم يكن ليصيبه وما اصابه لم يكن ليخطئه ،فاذا ما رأى او سمع ما يستحسنه وترتاح اليه نفسه استبشر خيرا دون ان يكون لذلك تأثير فى تصرفاته وحركاته الظاهرية ،واذا ما رأى او سمع شيئا يكرهه فعليه ان يمضى لشأنه ولا يثنيه ذلك عن قصده ووجهته ،وان يدعو بهذا الدعاء الذى ارشد اليه النبى صلى الله عليه وسلم : فعن عطية بن عامر رضى الله عنه قال : ذكرت الطيرة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : (احسنها الفأل (٢) ولا ترد مسلما ،فاذا رأى احدكم ما يكرهه فليقل : اللهم لا يأتى بالحسنات الا انت ، ولا يدفع السيئات الا انت ،ولا حول ولا قوة الا بك) (٣)

هذا هو شأن المسلم الموحد ، لا ترده الطيرة عن حاجته ويؤمن ويعتقد بأن الحسن والمكروه لا يقع الا بقدرة الله وارادته فيستعين به ويستلهم منه الحول والقوة .

هذا وقد اخبر صلى الله عليه وسلم بأن حقيقة الطيرة هى ما امضى الانسان فى حاجته اورده عنها ، اما ما يحدث من ذلك فى النفس وما

---

(١) سورة الحديد اية ٢٢

(٢) هو الكلمة الطيبة يسمعها الانسان وترتاح اليها نفسه

(٣) رواه مسلم انظر النووى (١٤/ ٢١٩)

يخطر على البال فلا يؤاخذ عليه العبد ولا يعتبر طيرة ، فعن الفضل بن عباس رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (انما الطيرة ما امضاك او ردك) (١) .

فعلى المسلم ان يعتمد على خالقه وبارئه فى كافة شئونه كى يكون موحدا سليم القلب والخاطر وان لا يفتح على نفسه باب الوسوسة والاضطراب باسترساله وراء الاوهام فيضعف يقينه و تتكدر حياته ويصبح نهبا للهواجس الشيطانية .

يقول الشيخ سليمان بن عبد الله : (ولما كانت الطيرة بابا من الشرك منافيا للتوحيد او لكماله لأنها من القاء الشيطان و تخويفه ووسوسته ذكره المصنف — اى الشيخ محمد بن عبد الوهاب — فى كتاب التوحيد تحذيرا منها وارشادا الى كمال التوحيد بالتوكل على الله .

— واعلم — والكلام له رحمه الله — ان من كان قلبه قابلا لها كانت اليه اسرع من السيل الى منحدره وتفتحت له ابواب الوساوس فيما يسمعه ويراه ويعطاه ، ويفتح له الشيطان فيها من المناسبات البعيدة والقريبة فى اللفظ والمعنى ما يفسد عليه دينه ويكدر عليه عيشه فالواجب على العبد التوكل على الله و متابعة رسوله صلى الله عليه وسلم وان يمضى لشأنه لا يرده شىء من الطيرة عن حاجته فيدخل فى الشرك (٢) .

---

(١) رواه الامام احمد انظر الفتح الربانى (١٧/ ١٩٩)

(٢) تيسير العزيز الحميد ص ٤٢١ .

تنبيهــان :

التنبيه الأول :

اشكل على العلماء قوله صلى الله عليه وسلم : (لا عدوى ولا طيرة) مع قوله صلى الله عليه وسلم (وفر من المجذوم فرارك من الأسد) وقولـه : (لا يورد ممرض على مصح) ونهيه عن الدخول الى ارض الطاعون او الخروج منها) فردت طائفة حديث (لا عدوى) واخذوا بأحاديث الأجتناب ، وقالوا ان ابا هريرة رجع عنه واحاديث الأجتناب اكثر فالمصير اليها اولى .

ورجحت طائفة حديث (لا عدوى) وردوا احاديث الأجتناب واعلوا بالشذوذ حديث : (وفر من المجذوم)(وان عائشة رضى الله عنها انكرته وقالت : (ولكنه قال : " لا عدوى" وقال : " فمن اعدى الأول") وقالت طائفة : المخاطب بقوله : (لا عدوى) قوى الأيمان واليقين والتوكل . والمراد بأحاديث الاثبات ضعيف الأيمان والتوكل .

والواقع ان هذه الأقوال الثلاثة لا تسلم من مآخذ : اما القول بأن ابا هريرة راوى حديث (لا عدوى) رجع عنه ... فأن هذا لا يضر لأن الحديث قد رواه جماعة من الصحابة منهم انس بن مالك ، وجابر بن عبد الله ، وابن عمر وغيرهم فنسيان ابى هريرة لا يضر .

واما اعلال (فر من المجذوم) فلا يضر لأن احاديث الأجتناب

الأخرى ثابتة .

وأما القول بأن الخطاب يختلف باختلاف المخاطبين من جهة قوة الايمان وضعفه فهو قول يصعب تصوره فقوله صلى الله عليه وسلم : (لاعدوى) تعني ان تكون هذه الأشياء المذكورة معدية فكيف يقال بأنها تخص بعض الناس دون البعض الآخر ؟

وقالت طائفة : ان قوله : (لا عدوى) نفي لما كان اهل الجاهلية يعتقدونه من اضافة الفعل لغير الله تعالى وان هذه الأمراض تعدى بطبعها ، اما مخالطة الصحيح للمريض فقد يجعلها الله سببا لحدوث المرض وانتقاله للصحيح .

ولعل هذا القول انسب الأقوال في المسألة ، لأن فيه جمع بين الأحاديث وهو جمع معقول يشهد له الواقع الملموس .

وقد رجحه الشيخ سليمان بن عبد الله وذكر انه قول جماعة من العلماء ، حيث قال - بعد ان ذكر الأقوال الثلاثة المتقدمة - قلت: واحسن من هذا كله ما قاله البيهقي ، وتبعه ابن الصلاح وابن القيم وابن مفلح وغيرهم ان قوله : (لا عدوى) على الوجه الذى كانوا يعتقدونه في الجاهلية من اضافة الفعل لغير الله تعالى وان هذه الأمراض تعدى بطبعها والا فقد يجعل الله بمشيئته مخالطة الصحيح من به شيء من هذه العيوب سببا لحدوث ذلك[1] .

---

(١) راجع تيسير العزيز الحميد (٤٢٤=٤٢٦) .

فقوله صلى الله عليه وسلم : (لا عدوى) و قوله للأعرابي : (فمن اعدى الأول) اشارة الى ان هذه الأشياء لا تمدى بطبعها و الى ان كل شيء بقضاء الله وقدره ، ويكون المراد بأحاديث التحذير اجتناب الأسباب التي خلقها الله وجعلها اسبابا للهلاك والأذى ، والعبد مأمور باتقاء اسباب الشر بأن لا يلقى نفسه في الماء او النار او الهدم مثلا فهذه اسباب الهلاك فكذلك مقاربة المجذوم و قدومه بلد الطاعون و مخالطة الصحيح للمريض قد يجعلها الله سببا لأنتقال المرض وحدوث العدوى ، وكل ذلك بقضاء الله وقدره فهو خالق الأسباب و مسبباتها .

التنبيه الثاني :

جاءت احاديث ظن البعض انها تدل على جواز الطيرة ، منها قوله عليه الصلاة والسلام لا عدوى ولا طيرة والشؤم في ثلاث في المرأة ، والدابة ، والدار) وفي حديث آخر ان كان ففي الفرس والمرأة ، والمسكن)(1)

فقالت طائفة : هذا مستثنى من الطيرة فاذا كره الرجل شيئا من هذه المذكورات فليفارقه فأنه مشؤم .

وقالت طائفة : لم يجزم النبي صلى الله عليه وسلم بالشؤم في هذه الثلاث بل علقه على الشرط .. . وهو قوله (ان كان)

وقالت طائفة : شؤم هذه الثلاثة انما يلحق من تشاءم بها ، اما

---

(1) رواها البخاري انظر الفتح (٦ / ٦٠)

من توكل على الله ولم يتشاءم ولم يتطير لم تكن مشئومة عليه ويدل عليه حديث انس (الطيرة على من تطير)(1)

وقال الأمام ابن القيم رحمه الله : اخباره صلى الله عليه وسلم بالشؤم فى هذه الثلاثة ليس فيه اثبات الطيرة التى نفاها الله وانما غايته ان الله سبحانه قد يخلق اعيانا منها مشئومة على من قاربها وسكنها واعيانا مباركة لا يلحق من قاربها منها شئوم ولا شر كما يعطى سبحانه الوالدين ولدا مباركا يريان الخير على وجهه ويعطى غيرهما ولدا مشئوما يريان الشر على وجهه وكذلك ما يعطاه العبد من ولاية او غيرها ،فكذلك الدار والمرأة والفرس والله سبحانه و تعالى خالق الخير والشر والسعود والنحوس(2) ... كلامه رحمه الله - وقال فى تيسير العزيز الحميد مؤيدا هذا القول : قلت : ولهذا يشرع لم استفاد زوجة او امة او دابة ان يسأل الله من خيرها وخير ما جبلت عليه ويستعيذ من شرها وشر ما جبلت عليه ، وكذلك لمن سكن دارا أن يفعل كذلك ،واكثر ما يقع التطير فى هذه الثلاثة ولذلك خصت بالذكر(3) .. والله اعلم !

---

(1) يراجع فى ذلك مفتاح دارالسعادة (٢/٢٥٥-٢٥٦) فقد ذكر الأمام ابن القيم الاقوال هناك بالتفصيل .

(2) انظر مفتاح دار السعادة (٢/٢٥٧).

(3) تيسير العزيز الحميد (٤٢٨-٤٣٠) بتصرف .

خامسا : اتيان الكهان ، والعرافين وتصديقهم فيما يقولون :

فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن اتيان ادعياء علم الغيب مثل الكهنة ، والعرافين والدجاجلة والمشعوذين ، وتصديقهم فيما يخبرون به من الأمور الغيبية .. والتنبوء بما يحدث فى المستقبل ، والكشف عما فى الضمائر و معرفة مكان الضالة والمسروق وسارقه ، مع الأدعاء بأن ذلك كرامة من الله وهبة وخصوصية منه فيصدقهم الجهال والمخدوعون ويفتتنون بهم .

فاعتبر صلى الله عليه وسلم ذلك كفرا بما انزله الله عليه من الهدى والنور ، فعن ابى هريرة رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال : (من اتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما انزل على محمد صلى الله عليه وسلم) (١) .

والكاهن : هو الذى يأخذ عن مسترق السمع فيخبر عن المغيبات فى المستقبل ، وقيل هو الذى يخبر عما فى الضمير ، واكثر ما يقع فى هذه الأمة ما يخبر به الجن اولياءهم من الأنس عن الأشياء الغائبة بما يقع فى الأرض من الأخبار فيظنه الجاهل كشفا اوكرامة) (٢) .

و مما يدل على شناعة هذا الأعتقاد وعظم جرم فاعله قوله صلى الله عليه وسلم : (من اتى عرافا فسأله عن شىء فصدقه لم تقبل

---

(١) رواه لاحمد ا.ز الفتح الربانى ١٦/ ١٣٣)

(٢) فتح المجيد (٢٥٢ - ٢٥٤) .

له صلاة اربعين يوما)[1] .

فالعراف هو الذى يدعى معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق وسارقه و مكان الضالة ونحو ذلك وقيل هو الذى يدعى علم الغيب بأى شكل من الأشكال .

قال شيخ الأسلام ابن تيمية : العراف : اسم للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم كمن يتكلم فى معرفة الأمور بهذه الطرق او كمن يدعى علم الغيب او يدعى الكشف)[2] .

فعلى المسلم الحذر من الوقوع فى شراك الكهنة والعرافين وسائر المشتغلين بالأخبار عن المغيبات ولا يغتر بما يحدث احيانا على ايديهم من الكشف عن بعض الأمور او الشفاء من بعض الأمراض فمنهم غالبا اذكياء ولهم مقدرة وسيطرة على نفسيات الجهال وبعض المرضى ، وقد يشفى المريض بقدر الله فيظن ذلك بسبب ما قدمه له من دواء وغالبا ما يستخدمون الجن فى اعمالهم فيخبرونهم عن بعض احوال المريض ، او قد يكون المرض بسببهم فيتحولون عن المريض مقابل ما يقدمه لهم الكاهن والعراف و المريض ايضا من عبادة ترضيهم .. فيظن ان ذلك كرامة من الله وميزة وخصوصية لذلك الدجال .

والحاصل ان هذا ا باب واسع جدا وقد عم بلاؤه كثيرا من اوطان

(١) رواه مسلم - انظر النووى (١٤ / ٢٢٧)

(٢) انظر فتح المجيد ٢٥٣ .

المسلمين ولن ينجيهم ويعصمهم منه الا معرفة توحيد العبادة معرفة حقيقية ، والأعتماد على الله والتوكل عليه ، والأيمان الجازم بأنه هو وحده الضار النافع ومقدر الأقدار ومنفذها ، وان كل ما سواه ضعيف عاجز مملوك مقهور له ليس في مقدوره التصرف في شيء من ملك الله .

تنبيــــه

قيل ان معنى الكفر هنا كفر دون كفر فلا ينقل عن الملة لقوله صلى الله عليه وسلم (لم تقبل له صلاة اربعين يوما) .

وقيل يتوقف فيه فلا يقال يخرج من الملة ولا لا يخرج عنها .. وهذا المشهور عن الأمام احمد رحمه الله (١)

والله اعلم

(١) انظر فتح المجيد ٢٥٤ .

(المبحث السادس)

مقارنة اعمال عباد القبور والأولياء
بأعمال عباد الأوثان

لعله من خلال تلك الصورة المصغرة لا   سلام

تتكون لدينا القناعة بأنه لا فرق

السابقين حيث شابهو

والعمل (ومن تشبه بقوم

فأن ما يزعمه المستشف

المشركون قديما ، قد كانوا

ولما سئلوا عن سبب دعائهم واس

(هؤلاء شفعاؤنا عند الله) و (ـ

الله زلفى) اى لا نطوف حولهم ولا   ـبهم بالقرابين الا

ليكونوا وسائط بيننا وبين الله لقضاء حوائجنا من جلب نفع او دفع ضر .

وهذا نفس ما يزعمه ويعتقده القبوريون اليوم ، فأذا ما سئلوا عن سبب ما يفعلونه عند قبور الأولياء والصالحين وغيرهم قالوا : نحن لا نعبدهم بل نقر بأنهم عبيد مخلوقون وانما نتوسل ونتقرب بهم الى الله ونطلب

شفاعتهم عنده، واذا ما نظرنا ايضا الى انواع العبادة التى كان يقدمها المشركون القدامى لآلهتهم نجدها تتمثل فى الطواف حولهم وتقديم النذور والذبح لها ودعائها والاستغاثة بها وهذا ايضا هو عين ما يفعله المشركون اليوم من الطواف حول الأضرحة والمشاهد وتقديم النذور لها والذبح عندها ودعاء الموتى والاستغاثة بهم والهتاف بأسمائهم رغم بعد الزمان والمكان ، ومن هذه المقارنة يتضح لنا مدى توافق الغايتين قديما وحديثا وتطابق الأسلوب لدى المشركين فى عبادتهم غير الله فى كل زمان ومكان .

وليس يغنى عن المشركين اليوم انهم ينطقون بالشهادتين ويصلون ويصومون - على افتراض ذلك - ويقرون بالبعث والجزاء ، اعنى انه لا يغنى عن مشرك الاقرار بذلك وفعله ، ما دام انه يعتقد فى غير الله ويقدم له شيئا من انواع العبادة فأما نطق مشرك اليوم بالشهادتين فقد ناقضه وخالفه بأعتقاده ان اصحاب القبور والأوثان تنفع وتضر وبفعله وصرفه ما يجب ان يكون لله - من انواع العبادة - لغير الله اما مسألة اقرارهم لله بالربوبية على الخلق وانه الخالق الرازق : فأنها مسألة مشتركة قد اقر بها المشركون من قبل ، وكون مشركوا اليوم يقرون بها فأن هذا الأقرار وحده لا يغنى عنهم بدليل ان الله لم يقبله من المشركين السابقين منفصلا عن توحيد العبادة ، وانه لمن المناسب جدا ذكر ما قاله بعض العلماء فى هذه المسألة : قال شيخ الأسلام ابن تيمية رحمه الله : (فأما توحيد الربوبية الذى اقر به الخلق وقرره اهل الكلام فلا يكفى

وحده بل هو من الحجة عليهم[1] .

وقال صاحب كتاب مصرع الشرك والخرافة : يقول بعض الناس ان هؤلاء القبوريين يقرون بالخالق ويعملون بشرائع الأسلام ويصلون لله ولا يرضون بلقب الشرك وينفرون منه وغاية ما هنالك انهم يتوسلون بهؤلاء الصالحين فى قبورهم فكيف يمكن ان يقال بأنهم مشركون ؟ ثم قال : فالجواب ان الكفر - والشرك شعب وانواع كما ان الأيمان له شعب فأذا اتى بكثير من شعب الأيمان واتى معه بشئ من شعب الشرك فيقال له مشرك ولو صام وصلى ، فمن اعتقد فى كوكب بأن له تأثيرا او اعتقد فى ملك او رسول بأن بيده نفعا او ضرا فنسميه مشركا لأنه اعتقد فيما لا يجوز اعتقاده الا فى الله ، فإذا نطق العبد بالشهادتين وتلبس بالأعمال المناقضة لشروطها كعمال القبوريين مثلا فأن نطقه بالشهادتين لا يفيده شيئا لأن اعماله الشركية تنافى ذلك وتنقضه كالحدث بعد الوضوء[2] .

ويقول الشيخ محمد الغزالى فى هذا الموضوع ايضا : وليس يغنى فى الدفاع عن اولئك الجهلة من العوام انهم يعرفون الله ويعرفون انه .. وحده مجيب كل سؤال ، وباعث كل فضل وان من دونه لا يملكون من ذلك شيئا ، فأن هذه المعرفة لا تصلح ولا تقبل الا اذا صاحبها افرادا لله بالدعاء ، والتوجه ، والأخلاص ، فأن المشركين القدماء

---

(١) انظر الفتاوى جـ ١ ص ٢٣ .

(٢) انظر ص ٢٩٧ - ٢٩٩ . " بتصرف "

كانوا يعرفون الله كذلك ويقولون انه الخالق الرازق فلم يحسبوا بتلك المعرفة وبهذا القول مؤمنين [١] .

ويقول الشيخ اسماعيل بن عبد الغنى الدهلوى - وبكل صراحة ووضوح فى معرض كلامه حول الموضوع : فمن عامل احدا بما عامل به الكفار آلهتهم وان كان يقر بأنه مخلوق وعبد ، كان هو وابو جهل فى الشرك بمنزلة سواء [٢] . .

ومن خلال هذه النماذج ندرك مدى توافق العلماء واتفاقهم على ان الاقرار بتوحيد الربوبية وحده لا يكفى ،وان من تلفظ بالشهادتين واتى بما يناقضهما بصرف شئ من انواع العبادة لغير الله : ليس موحدا وانما هو مشرك ، و محسوب فى عداد المشركين لا محالة .

---

(١) انظر كتاب عقيدة المسلم ص ٦٦ .

(٢) انظر رسالة التوحيد ص ٣٢ .

: المشركون القدامى يخلصون فى الشـدة :

ولقد اخبر الله فى كتابه المبين ان المشركين القدامى ، كانوا اذا حز بهم امر عظيم وخطب جسيم نسوا اوثانهم ومعبوداتهم من دون الله واخلصوا لله العبادة واتجهوا اليه وحده بالدعاء وطلب العون والخلاص مما هم فيه من شدة وضيق فأذا ما زال عنهم ما هم فيه عادوا الى شركهم والى معبوداتهم واوثانهم .

كما قال تعالى مخبرا عن واقعهم ((وهو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا انهم احيط بهم دعو الله مخلصين له الدين) [1] وقال جل ذكره : ((واذا غشيهم موج كالظلل دعو الله مخلصين له الدين لئن انجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين)) [2] وقال تعالى : ((واذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون الا اياه فلما نجاكم الى البر اعرضتم وكان الأنسان كفورا) [3] وقال : ((فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون)) وقال تعالى : ((قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن انجانا من هذه لنكونن من الشاكرين ، قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم انتم تشركون)) [4]

---

(١) سورة يونس اية : ٢٢ .

(٢) سورة لقمان اية : ٣٢ .

(٣) سورة الأسراء : ٦٧

(٤) سورة الانعام ٦٣-٦٤

فدلت الآيات الكريمة على ان المشركين كانوا فى حال الشدة لا يدعون غير الله ولا يتلفتون الى احد سواه وذلك لعلمهم ان معبوداتهم من دون الله لا تغنى عنهم فى حال الشدة من الله شيئا .

وفى قصة حادثة الفيل ما يؤكد هذا المعنى ويدل عليه حيث يذكر اصحاب السير ان عبد المطلب بن هاشم زعيم مكة آن ذاك وسيدها ذهب لمقابلة ابرهة قائد حملة الفيل وسأله ان يرد عليه ابله التى استولى عليها جيشه فقال له ابرهة : كيف تكلمنى فى مئتى بعير اصبتها لك وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمنى فيه ؟ فقال له عبد المطلب : انى انا رب الأبل وان للبيت ربا سيمنعه .. قال ما كان ليمتنع منى ، قال : انت وذاك[1] .

فلم يدر بخلد عبد المطلب او احد زعماء المشركين وسادات مكة الذهاب الى الأوثان والأصنام والتقدم اليها ببعض امور الطاعة والعبادة وطلب نصرتها ودفع ذلك الجيش الهائل الذى لا عهد ولا قبل لهم به وصد ذلك الطاغية الذى جاء لهدم البيت وتدمير مكة بأسرها بل قال عبد المطلب لقومه : والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة ، هذا بيت الله الحرام وبيت خليله - عليه السلام - او كما قال : فأن يمنعه منه فهو بيته وحرمه وان يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه) فتفرق الناس بالشعاب خوفا من وطأت الجيش ،ثم

---

(١) انظر السيرة النبوية لأبن هشام (١/ ٥٠)

قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على ابرهة وجنده فقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة الكعبة :

لا هم [1] ان العبد يمنع رحله فامنع حلالك [2]

لا يغلبن صليبهم ومحالهم غدوا [3] محالك [4]

وانصر على آل الصليب وعابديه اليوم آلك

ان كنت تاركهم وقبلتنا [5] فأمر ما بدالك [6]

..... فهذا الدعاء والابتهال الى الله غاية فى التوحيد والاخلاص مما يؤكد ان القوم كانوا يخلصون لله فى الشدة والملمات العظام ومما يؤكد ايضا ان القوم لم يتخذوا الأصنام والأوثان لهذا الغرض وانما اتخذوها وسائط وشفعاء لهم عند الله .. كما اخبر الله عنهم :- ((ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى)) ومن ذلك ما رواه الترمذى من حديث عمران بن حصين ، قال

---

(١) اصلها اللهم والعرب تحذف الألف واللام منها وتكتفى بما بقى .

(٢) الحلال بالكسر - جمع حلة وهى جماعة البيوت ويريد هنا القوم الحلول بها .

(٣) غدوا : اى غدا وهو اليوم الذى يأتى بعد يومك .

(٤) المحال : القوة والشدة . ومنه قوله تعالى (شديد المحال)

(٥) لعل المقصود كونهم يتوجهون الى الكعبة بالدعاء ويستقبلونها اثناء جلوسهم فى المسجد الحرام .

(٦) انظر السيرة النبوية لابن هشام جـ ١ ص ٤٨ ، ٥٠ ، ٥١ .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى : يا حصين كم تعبد اليوم الهـا ؟ قال ابى : سبعة ستة فى الأرض وواحدا فى السماء ، قال : فأيهم تعد لرغبتك ورهبتك قال الذى فى السماء ، قال : يا حصين اما إنك لو اسلمت علمتك كلمتين تنفعانك قال : فلما اسلم حصين قال يا رسول الله علمنى الكلمتين اللتين وعدتنى فقال قل : اللهم الهمنى رشدى واعذنى من شر نفسى) (١)

ففى ذلك دلالة واضحة على ان المشركين كانوا فى حالة الشدة والخوف وحالة الرغبة واللهفة الى تحصيل امر هام ، انما كانوا يلجؤن الى الله وحده دون من سواه ولما كان يوم فتح مكة المكرمة فر عكرمة بن ابى جهل فركب البحر فأصابتهم عاصفة فقال اصحاب السفينة لركابها اخلصوا فأن آلهتكم لا تغنى عنكم شيئا فقال عكرمة لأن لم ينجنى فى البحر الا الأخلاص ما ينجنى فى البر غيره اللهم ان لك عهدا ان انت عافيتنى مما انا فيه ان آتى محمدا حتى اضع يدى فى يده فلأجدنه عفوا كريما ، فجاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم (٢)

فهذا الموقف الذى مر به عكرمة يضاف الى تلك الدلائل المصرحة والمؤكدة بأن المشركين السابقين كانوا يخلصون فى الشدة والعسر ويشركون فى الرخاء واليسر .

---

(١) انظر سنن الترمذى جـ ٩ باب الدعوات ص ١٥٨ - ١٥٩ .
(٢) انظر الأصابة فى تمييز الصحابة لشهاب الدين العسقلانى جـ ٢ ص ٤٩٧ والبداية والنهاية .

(شرك المتأخرين احيانا اكبر من شرك المتقدمين)

لقد مر معنا آنفا فيما ذكر من الآيات القرآنية ، وبعض الحوادث ما يدل على ان الكفار كانوا يخلصون لله في الشدائد وعظائم الأمور ويشركون في الرخاء ولا يجوز انكار ذلك بحال من الأحوال .

ثم انه وبشيء من الأنصاف وعدم انتحال الأعذار التي لا مبرر لها تجد غالبية المشركين اليوم هم على العكس من ذلك اعني انه اذا ما اعتراهم امر خطير وخطب جسيم لجوءا الى من لا يضرهم ولا ينفعهم ولا يراهم ولا يسمعهم من الأموات والطواغيت وسائر المعبودات المتناثرة في الأرض ،ولا يخطر ببال احدهم التوجه الى من بيده ازمة الأمور الى الله الذي يجيب الدعوات ويفرج الكربات حيث ارشدهم بقوله : ((واذا سألك عبادي عني فأني قريب اجيب دعوة الداع اذا دعان فاليستجيبوا لي واليؤمنوا بي لعلهم يرشدون))(١)

فهم لا يتحولون عن معبوداتهم مهما كان من امر ولا تزيدهم الشدائد الا تعلقا بها ، فأذا ما نزلت بأحدهم نازلة هتف باسم الولي او الشيخ او غير ذلك مما يعتقد فيهم رغم بعد الزمان والمكان واذا كان قريبا من مشهد الولي قرب باسمه قربانا وطاف بقبره وشكا اليه حاله وسأله حاجته وهذا امر لا ينكره الا جاهل بحالهم او مكابر.

---

(١) سورة البقرة : اية : ١٨٦ .

ولهذا قال بعض اهل العلم : ان شرك المتأخرين اشنع من شرك الأقدمين قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب : القاعدة الرابعة اى من قواعد الدين - ان مشركى زماننا اعظم شركا من الأولين ، لأن الأولين كانوا يخلصون فى الشدة ويشركون فى الرخاء ، و مشركوا زماننا شركهم دائم فى الرخاء والشدة والدليل قوله تعالى : ((فأذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين)) (١) (٢) .

وقال الشيخ حسين بن مهدى النعمى : ولطالما شاهدنا عباد ارباب هذه القباب اذا التطمت عليهم امواج البحر العباب سمعت ذكر الزيلعى والحداد وكل يدعو شيخه عند ذلك الأضطراب اذ لكل طريقة لا ينتحى سواها فى المهتف والأنتساب ، ولكل من الجيلانى ، وابن علوان ، والعيدروس ، والحداد ، وغيرهم من آلهة هذه الطوائف طائفة من العباد ..... (٣) الخ كلامه وقال ايضا - فى موضع آخر - ومن عجيب ما اتته العامة من طرائف هذا الباب وغرابة الفاحشة التى يزعم بعضهم انها مجرد توسل وعبارات موهمة ما شاهدناه بالمعاينة مكتوبا على راية مشهد من المشاهد (هذه راية البحر التيار فلان ابن فلان به استغيث و استجير وبه اعوذ من النار) ثم قال ومن هذا النمط قول بعضهم :

---

(١) انظر مجموعة التوحيد ص ٢٥٦ .

(٢) سورة العنكبوت اية : ٦٥

(٣) انظر معارج الألباب فى مناهج الحق والصواب ص ٤٣ .

يا سيدى يا صفى الدين ياسندى ∴ يا عمدتى ويا ذخرى ومفتخرى

انت الملاذ لما اخشى ضرورتـــه ∴ وانت لى ملجأ من حادث الدهر

امدد بمواد اللطف منك ، وكـــن ∴ لى الكفيل بكشف الضر ونيل الوطر

وامنن على بتوفيق وعافيـــــــة ∴ وخير خاتمة مهما انقضى عمـرى

وكف عنا اكف الظالمين اذا ∴ امتدت بسوء وامر موءلم نكـــــر

فأنى عبيدك الراجى لودك مـــا ∴ امله يا صفى السادة الغـــرر

وقد مددت يد الرجوى على ثقـة ∴ منى لنيل الذى املت من وطـرى

ثم قال :

اى الشيخ النعمى رحمه الله ـ فلا ندرى اى معنى اختص بـــــه الخالق بعد هذه المنزلة من كيفية مطلب او تحصيل مأرب و ما ابقـــى هـذا المشرك الخبيث لخالقه من الأمر ، فأن المشركين اهـــل الأوثان ما يوءهلون كل ما عبدوه من دون الله لشئ من هـــذا ولا لما هو اقل منه)(١)

نعم فلأمـــر كما قال الشيخ النعمى رحمة الله عليه ، لا ندرى ماذا ابقى هذا المشرك للخالق من معنى يختص به حيث رفع طاغوته الـى درجة الربوبية والألوهية ، وزعم انه عالم بحاله قادر على امداده وازالـة ما به ثم صرح ـ بكل وقاحة ـ بعبوديته له ـ فهذه امثلة فقط للشـــرك فى هذه الأمـــة .

---

(١) انظر معارج الألباب ص ١٧٢ - ١٧٣ .

، اذ لو اردت الأسترسال فى هذا المجال لطال بى الحال ،ولكـــــن حسبى من ذلك ما اردت واوردت من نماذج من افعال القوم ، واقوالـ العلماء ، وعلى ذلك فقس ، والله الهادى الى سواء السبيل .

* * *

(المبحث السابع)

في بيان اسباب مظاهر الشرك في المسلمين

بعد ان زالت مظاهر الشرك من المواطن التي اكرمها الله بالأسلام ، استمر المسلمون على التوحيد الخالص زمنا ، فلا يعبدون الا الله ولا يهتدون ويقتدون الا بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبذلك سعدوا ايما سعادة وتحررت نفوسهم ، واجسادهم ، واوطانهم من كل سلطان غير سلطان الله الذى خلقهم ورزقهم ثم يميتهم ثم يحييهم ، وكتب لهم العزة والنصرة على كل من عاداهم وعلى كل ارض تطؤها اقدامهم .

ولكن سرعان ما دب فيهم داء الأمم فنسى المسلمون - وبالتدريج- كثيرا من معالم دينهم وكان اهمها الأمور التي تتعلق بتوحيد العبادة ، حتى تحقق فيهم ما اخبر به صلى الله عليه وسلم في قوله : (لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه .... الخ الحديث (1) - وقوله صلى الله عليه وسلم : (لا تقوم الساعة حتى تعبد فئام من امتي الأوثان (2)) وقوله : (لا تقوم الساعة حتى تضطرب اليات نساء دوس على ذى الخلصة (3))

---

(1) رواه البخاري (انظر الفتح) (٢٠٠/١)

(2) رواه احمد - انظر الفتح الرباني (٣١/٢٤)

(3) رواه البخاري في كتاب الفتح انظر الفتح (٧٦/١٣)

فأصبح الشرك فى العبادة ظاهرا فى اعمال كثير من المسلمين وبأشكال مختلفة و متنوعة وبأمكان المتأمل ارجاع ذلك الى مجموعة اسباب اهمها : اربعة وهى :

السبب الأول :

اهمال بعض الحكام لأمور الشريعة عامة وامر العقيدة خاصة :

حيث توالت على المسلمين زعامات متعددة اهمل خلالها - بقصد او بغير قصد - امر اقامة الدين وحراسة عقيدة المسلمين ، فلم يكن هم اولئك الحكام سوى تقوية جانب السلطة والحفاظ على كرسى الحكم ، بل ان بعضهم نشر البدع والخرافات والشركيات فى المسلمين لأغراض عقائدية او سياسية ،كما فعل العبيديون الذى جاءوا ببدعة المولد واشادوا البناء على القبور و اقاموا المشاهد واحدثوا فى دين الله ما لم يكن منه وبطشوا بكل من انكر عليهم .

وكذا العهود المتأخرة الأتراك حيث اصبحت عبادة المسلم فى عهدهم مجموعة من البدع والشركيات - الا من سلم الله - وانتشرت عبادة ارباب القبور وعمت كل بقعة من الأرض وصل سلطانهم اليها ولا زالت آثار ذلك الضلال ماثلة للعيان ولما جاء المستعمر الكافر وهيمن على جل ديار المسلمين غذى ذلك الأنحراف وباركه وقرب رجاله وحارب كل دعوة من شأنها ارجاع المسلمين الى عقيدتهم الصحيحة .

فقيام الحاكم المسلم بحراسة دين المسلمين وعقيدتهم امر واجب

يفرضه عليه دينه ويحتمه عليه مركزه ومسئوليته .

ولقد ظهرت آثار ذلك ونتائجه واضحة جلية من مؤازرة الدولة السعودية - بل وتبنيها - لدعوة الأمام المجدد شيخ الأسلام - محمد بن عبد الوهاب رحمه الله حيث نشرت دعوة التوحيد بالعلم والدعوة والجهاد ، فبعد ان كانت هذه المواطن وغيرها ترزح تحت وطأة الشرك والخرافة والضلال تحولت بفضل الله ثم بفضل دعوة التوحيد المدعومة من السلطة القائمة الى العقيدة الصحيحة وعبادة الله وحده - وما بقى من آثار الماضى فهو خاف غير ظاهر و منكور غير مقر - بل لقد عمت بركة هذه الدعوة اوطان المسلمين وظهرت آثارها فيها رغم ما واجهته و تواجهه من مصاعب وتشكيك ولو ان حكام المسلمين فى هذا العصر اولو هذا الجانب حقه من العناية والأهتمام لأصبح الحال غير الحال ولأبدل الله المسلمين من ذلهم عزا ونصرا ومن خوفهم طمأنينة وامنا ، ومن فقرهم نعمة ورغدا .

السبب الثاني :

جهل عامة المسلمين بأمر التوحيد :

حيث جهل غالبية المسلمين ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من الدعوة الى التوحيد الخالص ، وظنوا ان النطق بالشهادتين كاف فى التوحيد دون النظر فيما تعنيه هذه الشهادة من عبادة الله وحده ، و تجريد المتابعة لرسول الله - صلى الله عليه وسلم ،ودون معرفة

ما يناقضها وينافيها من الأعتقادات والأعمال وحسبوا ان الأقرار لله بالوحدانية وانه الخالق الرازق المحيي المميت هو معنى لا اله الا الله وان الايمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم للناس كافة هو تفسير شهادة ان محمدا رسول الله فعبدوا الله حسب اهوائهم وما تمليه عواطفهم ، وزعموا ان اعمالهم صالحة متبولة عند الله ، والواقع ان العمل لا يكون صالحا مقبولا عند الله ويثاب صاحبه عليه الا اذا توفر فيه شرطان اساسيان : احدهما : ان يكون خالصا لله سالما من اية شائبة من شوائب الشرك .

الثاني : ان يكون مطابقا لهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما جاء عن الفضيل بن عياض رحمه الله في معنى العمل الصالح (1) .

فعبدوا الله على غير هدى ، وحاربوا من اراد نصحهم ورام هدايتهم وقذفوه بشتى الألقاب ، ولم يسلم من شرهم حتى الأموات من العلماء الصالحين والدعاة المخلصين الذين تعرضوا في كتبهم وتآليفهم لمثل اعمالهم وبينوا مناقضتها للأسلام ومنافاتها للتوحيد .

السبب الثالث : تعظيم اصحاب القبور والبناء عليها :

ثم انه من الأسباب الرئيسية في هذا الموضوع - اذا لم يكن اعظمها - تعظيم قبور الموتى الذين يظن فيهم الصلاح والتقوى ، وتشييد

---

(1) قد مر معنا في اكثر من موضع .

البناء عليها والعناية بها حتى فتن الناس بهم و تدرج بهم الحال الى ما هم عليه اليوم .

ولا غرابة فى ذلك فتعظيم القبور و الغلو فى الصالحين اول اسباب انحراف البشرية عن ملة التوحيد الى الوثنية والشرك كما فى قصة قوم نوح عليه السلام .

لذا نجد الرسول صلى الله عليه وسلم يحذر امته وينهاها عن تعظيم اصحاب القبور والبناء عليها .

فعن عائشة وابن عباس رضى الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما حضرته الوفاة جعل يلقى على وجهه طرف خميصة له فاذ افتم كشفها عن وجهه وهو يقول : لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور انبيائهم مساجد) تقول عائشة : يحذر مثل الذى صنعوا (١) .. متفق عليه رواه البخارى ومسلم ..

وعنها رضى الله عنها قالت : لما كان مرض النبى صلى الله عليه وسلم تذاكر بعض نسائه كنيسة بأرض الحبشة يقال لها مارية - وقد كانت ام حبيبة وام سلمة قد اتتا ارض الحبشة - فذكرن من حسنها وتصاويرها قالت : فرفع النبى صلى الله عليه وسلم رأسه فقال : (اولئك اذا كان فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا ثم صوروا تلك الصور ، اولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة .. متفق عليه (٢) .

فهذا دليل على تحريم بناء المساجد على القبور لما فيه من مشابهة اليهود

---

(١) انظر الفتح (١/ ٥٣٢) كتاب الصلاة والنووى (٥/ ١٣)

(٢) انظر الفتح (٣/ ٢٠٨) كتاب الجنائز .

والنصارى وافتتان الناس بأصحابها اذ لا يؤمن مع مرور الزمن أن يزداد اعتقاد الجهلة فيهم وتعظيمهم والغلو فيهم حتى تشرك مع الله في العبادة . خاصة اذا علمنا أن سبب انصراف البشرية وانحرافها عن التوحيد بدأ بتعظيم قبور الصالحين وانتهى بعبادتهم من دون الله ، لذا ينهى صلى الله عليه وسلم امته عن كل الوسائل التى يخشى أن تكون ذريعة - ولو بعد حين - لوقوع الناس فى الشرك الذى هو أكبر الكبائر والذنب الذى لا يغفر ، وكما نهى صلى الله عليه وسلم عن البناء على القبور فقد نهى أيضا عن شد الرحال اليها واتخاذها أعيادا والحلف بأصحابها اذ كل ذلك يؤدى الى الغلو فيهم وعبادتهم من دون الله لا سيما عند انطفاء العلم وكثرة الجهل وقلة الناصحين . (١)

ولما خالف كثير من المسلمين نهيه وهديه صلى الله عليه وسلم وشيدوا المساجد والمشاهد على قبور الأولياء والصالحين وغيرهم : وقع ما كان يخشاه صلى الله عليه وسلم على امته فعظم أصحاب القبور وغلا الناس فيهم وهتفوا بأسمائهم واستغاثوا بهم عند الشدائد ، وقدموا لهم النذور وكثيرا من الطاعات والقربات فمن ثم وقعوا فى الشرك الذى هو أكبر ذنب عصى الله به قديما وحديثا لذا كان تعظيم أصحاب القبور من أكبر أسباب انحراف المسلمين عن التوحيد كما كان أول أسباب انحراف البشرية عن التوحيد الى الوثنية . ومن الهدى الى الضلال .

---

(١) انظر كتاب تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد للشيخ ناصر الدين الألبانى ص ١٥٤ بتصرف .

السبب الرابع : الغلــو فى الأشخاص ومن يدعى لهم الولايـة :-

وان من اسباب فشو الشرك فى المسلمين الغلو فى بعض العلماء والأشخــاص الذين يدعى لهم الولاية والصلاح والتقوى - بحق أو بغير حق - فألـفت الكتب فى كراماتهم و اضفيت عليهم هالات التعظيم والتقديس ونسجت مــن حولهم القصص الخيـاليـة التى تتحدث عن كراماتهم ودلائل ولايتهم ؛

ولقد كان منشأ هذه الطامة قديما ، وربما يعتبر عدو الله ابن سبأ أول من تولى كبرها بفتحه باب الغلو على المسلمـين - يقصد الكيد لهم ولدينهم يقوله كما أن عيسى عليه السلام سوف يرجع فكذلك محمد صلى الله عليه وسلم سوف يرجع ، وزعم ان عليا رضى الله عنه لم يمت وانما صعد الى السماء فهو مختف بالسحاب وان الرعد صوته والبرق سوطه وسوف ينزل الى الأرض يوما من الأيام ويملـؤها عدلا كما ملئت جورا وتخضع له مشارق الأرض ومغاربها . فأخذ الشيعة بعد ذلك يغذون هذا المذهب - مذهب الغلو فـــى الأشخاص ويطلقـونه على أئمتهم بمزاعم مختلفـة ، بادعاهم العصمه لهم وأنهم هم وحدهم على الحق ومن عداهم ضلال ، وان أهل البيت مظلومون ظلمهم الناس بعدم جعل الخلافة فيهم متوارثـة ، ونحن نشاهد منهم أيام الحج عند قبر النبى صلى الله عليه وسلم وقبور آل البيت العجب العجاب من كـثرة عويلـهم عند القبور واتمسح بهـا وتقبيلها والتمرغ بترابـها والتهام ما تيســر منـه .

واذا ما اذن للصـلاة ولوهاربين وأبوا أن يصلوا مع المسلمـين . وتابعـهم الناس فى ذلك - أى فى الغلـو فى الأشخاص - عن حسن نية أو سوء نية

لذا نجد هذا المكر من أقوى اسلحة الصوفية الذين يحرصون على الولاية في الدنيا لمحاولة السيطرة على قلوب الناس ومشاعرهم وجلبهم الى مذهبهم الفاسد . ففي العصور المتأخرة بلغ الغلو في الأولياء الى اعتقاد عصمتهم وطهارة الولي وقدرته على التصرف في حياته وبعد مماته ، وانه لا يجوز الأنكار عليه ولو أتى شنع المنكرات واقترف أبشع الفواحش .

فهم يقولون باستطاعة الولي السير على الماء والطيران في الهواء وابراء المرضى وطي المسافات بلمح البصر وعلم الغيب والتواجد في وقت واحد في أكثر من مكان .الى غير ذلك من المزاعم التي ملأت أذهان الناس بذكر خوارق الأولياء وكراماتهم ومن ذلك قول أحد زعمائهم : ربما كنت أطلب حجرا استنجي به فلم أجد فتناولت شيئا من الهواء فكانت جوهرا فاستنجي به فأطرحه .(١) وقال أحدهم ربما أتوضأ للصلاة ، فيسيل الماء بين يدى قضبان ذهب وفضة .(٢)

وقيل كان صوفي على جبل بمنى فقال : لوان وليا من أولياء الله تعالى أمر هذا الجبل أن يميد لماد ، قال فتحرك الجبل فقال : اسكن لم أردك بهذا فسكن الجبل (٣) ومن ذلك غلوهم في شخص الرسول صلى الله عليه وسلم فزعموا أنه لولاه صلى الله عليه وسلم ما ظهرت شمس ولا قمر ولا نجوم ولا بحار ولا أشجار ولا مدر جبال .

---

١ ، ٢ ، ٣ انظر كتاب التصوف بين الحق والخلق لمحمد فهر شفقة ص٩٧ عن الرسالة القشيرية .

فيقول ابن نباته المصرى :

لولاه ما كان ارض ولا أفق . . . ولا زمان ولا خلق ولا جبل

ولا مناسك فيها للهدى شهب . . . ولا ديار بها للوحى تنزيل

وهذا البصيرى ينسب للرسول صلى الله عليه وسلم كل شئ من خصائص الآلهية حتى علم اللوح والقلم الذى استأثر الله بعلمه .

فيقول :

فأن من وجودك الدنيا وضرمتها . . . ومن علومك علم اللوح والقلم

ويقول أحدهم عن نفسه :

ولو أنى اذا لقيت سرى

على بحر لعاد البحر رملا .

ولو أنى اذا لقيت سرى

على صخر لعاد الصخر سهلا

ومن ذلك ما يفعله سدنة القبور من تزيين المشاهد وكسوتها ورش ترابها بالعطور وغرس الزهور حولها ، ثم التحدث عن المنامات العجيبة وانه رأى الولى فى المنام فقال له كذا وكذا من امور الدجل والشعوذة التى تستهوى العامة وتسيطر على قلوب الجهلة والسفهاء .

ففى اعتقادى ان هذه الأسباب الأربعة وهى :- اهمال بعض الحكام والعلماء لهذا الجانب ، وجهل عامة المسلمين بأمر التوحيد ، وتعظيم أصحاب القبور والبناء عليها ، والغلو فى الأشخاص ، هى أهم أسباب انحراف المسلمين عن التوحيد وانتشار الشرك فى بلاد الاسلام . ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم .

الفصل السابع

(الفصـــل الســـابع)

فى التعريف بالوسيلة وما يجب ان يكون عليه المسلم فى هـذا البـــــاب

وفيـه تمهـيد ومبحثان :-

اولا : تمهيد فى المعنى اللغوى والشرعى للوسيلة .

ثانيا : بحث فى انواع التوسل المشـروع .

ثالثا : بحث : لا يتوسل الى الله الا بما شرعه لعباده

* * *

تمهيد فى المعنى اللغوى والشرعى للوسيلة

لا شك ان للمسلم مطالب ورغبات وانه لشديد الحرص على تحقيقها والظفر بها ، فمن مطالبه ما يتعلق بهذه الحياة ، ومنها : (وهو الجزء الأكبر والأهم لدى المؤمن) ما يتعلق بالحياة الآخرة .

فهو فى هذه الحياة يسعى جاهدا لسعة فى الرزق ، والعافية فى الجسم ويود ان تكون له زوجة وذرية صالحة ، وينشد السعادة والهناء له والأهل بيته .

اما بالنسبة للحياة الآخرة فهو حريص كذلك اشد الحرص على نيل منزلة القرب من مولاه والفوز برضاه ، والخلود فى جنته والتلذذ بنعيمها ، والنجاة من ناره واليم عذابها .

وهو فى هذه وتلك يعلم ان رغباته وتطلعاته لا يقدر على تحقيقها الا الله الذى بيده ازمة الأمور ، وله القدرة المطلقة والمشيئة النافذة .

لذا فانه يلجأ اليه بشتى الوسائل وانواع القرب لنيل مآربه وتحقيق مطالبه

وان من حكمة الله ورحمته بعبده المؤمن ان شرع له انواعا من الوسائل والقرب ورغبة فيها ، ليفوز برضى مولاه ويظفر بمآربه العاجلة والآجلة .

فقال تعالى :

((يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة وجاهدوا فى سبيله لعلكم تفلحون))

---

(١) سورة المائدة اية : ٣٥ .

والوسيلة فى اللغة : القربة التى يتوصل بها الى نيل محبوب او دفع مكروه .

قال ابن جرير رحمه الله فى تفسيره ، والوسيلة : هى الفعلية من قول القائل : توسلت الى فلان بكذا بمعنى تقربت اليه [١] .

وقال فى القاموس : والوسيلة المنزلة عند الملك ، والدرجة ، والقربة

ووسل الى الله تعالى توسيلا عمل عملا تقرب به اليه كتوسل .

اما اقوال العلماء فى المعنى الشرعى للوسيلة فموداها : التقرب الى الله تعالى بالعمل الصالح لنيل رضاه والقرب منه ولحصول منفعة او دفع مضرة .

كما قال الامام ابن جرير فى تفسيره لمعنى قوله تعالى : ((وابتغوا اليه الوسيلة)) واطلبوا القربة اليه بالعمل بما يرضيه [٢] .

ونقل ابن كثير رحمه الله عن قتادة فى معنى : (وابتغوا اليه الوسيلة) اى تقربوا اليه بطاعته والعمل بما يرضيه ونقل عن ابن عباس رضى الله عنهما وغيره : انها القربة .

ثم قال رحمه الله : وهذا الذى قاله هؤلاء الأئمة لا خلاف بين المفسرين فيه [٣] .

وقال الراغب الأصفهانى فى مفردات القران : (وحقيقة الوسيلة الى

---

(١) انظر جـ ٦ ص ٢٢٦ .

(٢) انظر جـ ٦ ص ٢٢٦ .

(٣) انظر جـ ٢ ص ٥٢ - ٥٣ .

الى الله تعالى : مراعاة سبيله بالعلم والعبادة وتحرى مكارم الشريعة)

فلا خلاف اذا بين المسلمين فى عصورهم المتقدمة من ان المقصود بالوسيلة التى رغب الله عباده بابتغائها اليه انها التقرب اليه بالعلم والعبادة والاخلاص فى العمل والسير فى ذلك على هدى رسوله صلى الله عليه وسلم غيرانه لما تفشى الجهل بين المسلمين و بعدوا عن حقائق دينهم ، جهل الكثير منهم الحقيقة الشرعية لمعنى الوسيلة التى ارشد الله الى ابتغائها اليه ، كما جهلوا الكثير من حقائق الشرع وخاصة ما يتعلق منها بتوحيد العبادة فاشتبه عليهم وجه الحق فى هذه المسألة ، فتصرفوا فى هذا المعنى وفق اهوائهم وعواطفهم فاخرجوه عن مفهومه فى الكتاب والسنة و فهم السلف الصالح الى متاهات البدع .. والضلالات قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله : (لفظ الوسيلة والتوسل فيه اجمال واشتباه يجب ان تعرف معانيه ،ويعطى كل ذى حق حقه ، فيعرف ما ورد به الكتاب والسنة من ذلك ومعناه ،و ما كان يتكلم به الصحابة ويفعلونه ومعنى ذلك ، ويعرف ما احدثه المحدثون فى هذا اللفظ ومعناه فأن كثيرا من اضطراب الناس فى هذا الباب هو بسبب ما وقع من الأجمال والاشتراك فى الألفاظ ومعانيها حتى تجد اكثرهم لا يعرف فى هذا الباب فصل الخطاب .

الى ان قال رحمه الله : فالوسيلة التى امر الله ان تبتغى اليه واخبر عن ملائكته وانبيائه بانهم ليبتغونها اليه هى ما يتقرب به اليه من الواجبات والمستحبات ، فهذه الوسيلة التى امر الله المؤمنين بابتغائها تتناول كل

واجب ومستحب ، فالواجب والمستحب : هو ما شرعه الرسول فأمر به امر ايجاب واستحباب واصل ذلك الأيمان بما جاء به الرسول ، فجماع الوسيلة التي امر الله الخلق بابتغائها : هو التوسل اليه باتباع ما جاء به الرسول ، لا وسيلة لأحد الى الله الا ذلك)[1] .

فيتضح من قوله رحمه الله : (فيعرف ما ورد به الكتاب والسنة من ذلك ومعناه) وقوله : (ويعرف ما احدثه المحدثون في هذا اللفظ ومعناه) يتضح من ذلك ومن الواقع من افعال الخلق : ان التوسل ينقسم الى مشروع وممنوع .

* * *

---

(١) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ص ٤٨ .

(المبحث الأول)

في انواع التوسل المشروع

ويشمل ما يلي :-

أ - التوسل بالأيمان بالله ، والأيمان برسوله صلى الله عليه وسلم ، وبكل ما امر الله بالأيمان به : فقد اثنى الله على المتوسلين اليه بذلك .

فقال تعالى : (قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار) الى قوله (الذين يقولون ربنا اننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار)[١] وقولهم : (ربنا اننا سمعنا منادياً ينادي للأيمان ان آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار) وقوله : (فاستجاب لهم ربهم)[٢]

وكذلك التوسل بالأيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم : كأن يقول العبد اللهم اني اسألك بأيماني برسولك محمد صلى الله عليه وسلم ان تعطيني كذا او تدفع عني كذا ، وكذا التوسل باتباعه صلى الله عليه وسلم وطاعته فيما جاء به من توحيد الله ، وعبادته واخلاص العمل له ، عن اقتناع ومحبة ورضى فأن هذا من اعظم الوسائل الى الله واشرفها لأنه طاعة لله وعبادة لازمة للعبد وتوسله وتقربه به واجب لا يسقط عن المسلم بحال من الأحوال[٣] .

---

(١) سورة آل عمران ١٥-١٦ .

(٢) سورة آل عمران ١٩٣- ١٩٥ .

(٣) انظر كلام شيخ الأسلام في هذا المعنى : قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ص ٥ .

ب ـ التوسل الى الله بعبادته وطاعته :

وكذا التوسل الى الله تعالى بعبادته وطاعته فأنه من اعظم القربات التى يحبها الله من عبده ويثيبه عليها ففى الحديث القدسى الذى رواه البخارى عن ابى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله قال : (من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب الى عبدى بشىء احب الى مما افترضته عليه وما يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى احبه فأذا احببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها وان سألنى لاعطينه ، ولأن استعاذ بى لاعيذنه)[1] .. .. الخ الحديث .

فيستفاد منه ان اداء الفرائض احب الأعمال الى الله ، وان العبد اذا ادى الفرائض وداوم على اتيان النوافل من صلاة وصيام وغيرهما افضى به ذلك الى محبة الله تعالى ولا يكون التقرب بالنوافل الا بعد اداء الفرائض وقوله : كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به) الخ .. معناه توفيق الله للعبد فى الأعمال التى يباشرها بهذه الأعضاء بأن يحفظ جوارحه عليه ويعصمه عن مواقعة ما يكره الله من الأصغاء الى ما لا يحل بسمعه ومن النظر الى ما نهى الله عنه ببصره ومن البطش فيما لا يحل له بيده ، ومن السعى الى

---

(١) انظر الفتح جـ ١١ ص ٣٤١ كتاب الرقاق .

الباطـل برجلـــه .

وفى قوله : (وان سألنى لأعطينه ، ولأن استعاذ بى لأعيذنـــه)

دليل على ان من اتى بما وجب عليه وتقرب بالنوافل لم يرد دعاؤه لوجود

هـــذا الوعد الصادق المؤكد بالقســـم (١) .

جـ : التوسل بالأستغفار ، والتسبيح والدعاء :

وهذا من افضل ما يتوسل به العبد الى ربه .. فقد اثنى الله علـى

المستغفرين من ذنوبهم التائبين اليه ، كما فى قوله تعالى : (والذيــن

اذا فعلوا فاحشة او ظلموا انفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم) (٢)

وقد كان صلى الله عليه وسلم يكثرمن الأستغفار وحث امته عليـــه

وارشدهم الى ملازمته لما فيه من اظهار العبودية لله والأفتقار والـــذل

والخشوع له ، ولا شك ان حاجة الأمة الى الأستغفار والتوبة اشـــــد

من احتياجه صلى الله عليه وسلم لذلك .

روى الأمام مسلم فى صحيحه عن الأغـر المزنى : قال قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم : (يا ايها الناس توبوا الى الله فأنى اتوب فى اليـوم

اليه مائة مـرة) (٣) ، وعنه ايضا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (انـــه

ليغـان على قلبى وانى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة .

قال النووى قال اهل اللغة الغين والغيم بمعنى والمراد هنا مـا

---

(١) انظر الفتح جـ١١ من ص ٣٤٢ - ٣٤٥ .
(٢) سورة آل عمران اية ١٣٥ .
(٣) انظر النووى ١٧/ ٢٤

يتفشى القلب من الفترات والغفلات عن الذكر[١].

ان الأستغفار والتوبة اذا صدرتا من قلب مخلص وبالشروط المعلومة في الشرع لا يتركان للذنوب اثرا ... مهما كثرت او عظمت روى الأمام ابو داود في سننه عن زيد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (من قال استغفرالله الذى لا اله الا هو الحي القيوم واتوب اليه غفرله وان كان فرّ من الزحف[٢])

وكذا ذكر الله تعالى وتهليله وتسبيحه من اعظم قربات العبد الى ربه ، ويضاعف الله به الحسنات ويمحو به السيئات وهو حرز للعبد من الشيطان :

روى مسلم في صحيحه عن ابى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (من قال لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير في يوم مائة مرة ،كانت له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة و محيت عنه مائة سيئة وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى ولم يأت احد افضل مما جاء به الا احد عمل اكثر من ذلك ،ومن قال سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حطت خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر)[٣] .

---

(١) انظر شرح النووى ج ١٧ ص ٢٣-٢٤ .

(٢) انظر مختصر سنن ابى داود للمنذرى ج ٢ ص ١٥١ باب الاستغفار

(٣) انظر النووى ج ١٧ ص ١٧ باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء .

وقد اخبر سبحانه وتعالى : بأنه يذكر عبده الذاكر له على اكمل وجه

وكلما زاد العبد منه تقربا كان تقربه اليه اكثر واسرع : فقد روى مسلم

عن ابى هريرة رضى الله عنه قال : (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

يقول الله عز وجل) : ((انا عند ظن عبدى بى وانا معه حين يذكرنى

ان ذكرنى

في نفسه ذكرته فى نفسى وان ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم ×

وان تقرب منى شبرا تقربت اليه ذراعا وان تقرب الى ذراعا تقربت منه باعا

وان اتانى يمشى اتيته هرولة)) .

قال النووى فى معنى قوله : (انا عند ظن عبدى بى) اى بالغفران

اذا استغفر ، والقبول اذا تاب ، والاجابة اذا دعا والكفاية اذا

طلب ، والرجاء وتأميل العفو . (١)

اما الدعاء : فأنه اقوى وسائل القرب الى الله ، وافضل ما يتقرب

به العبد الى مولاه ولا غرابة فى ذلك فالدعاء يمثل الجانب الأقوى

فى العبادة بل هو مخ العبادة ولبها ، وقد امر الله عباده بدعائه

والألتجاء اليه فى الشدائد ووعدهم الأجابة اذا اكتملت الشروط

وانتفت الموانع قال تعالى : ((وقال ربكم ادعونى استجب لكم ان الذين

يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين)) (٢) .

---

(١) انظر النووى جـ ١٧ ص ٢ باب الحث على ذكر الله تعالى .

الداع اذا دعان)) (٣)

(٢) سورة غافر اية : ٦٠ .

وقال تعالى : (واذا سألك عبادى عنى فأنى قريب اجيب دعوة الداع اذا دعان) (١) .

وقال صلى الله عليه وسلم : (ان الله حى كريم يستحى اذا رفع الرجل اليه يديه ان يردهما صفرا خائبتين (٢) وروى الأمام مسلم عن ابى هريرة رضى الله عنه من حديث الملائكة السيارة الذين يتبعون مجالس الذكر ان الله يسألهم اذا صعدوا الى السماء من اين جئتم ؟ فيقولون جئنا من عند عباد لك فى الأرض يسبحونك ويكبرونك ، ويهللونك ويحمدونك ويسألونك (وذكروا انهم يسألون الله جنته ويستجيرون به من ناره) وفيه فيقول الله عز وجل : (قد غفرت لهم فأعطيتهم ما سألوا واجرتهم مما استجاروا) .... الخ الحديث (٣) .

والآيات القرآنية والاحاديث النبوية ، التى فيها الأمر بدعاء الله وحده وعدم التوجه الى احد سواه كثيرة جدا ، فعلى المسلم التقيد بذلك ليفوز برضى الله ويظفر بسؤله .

د ـ التوسل بدعاء الغير :

كأن يطلب العبد ممن يظن فيه الصلاح والتقوى ، والعلم بالكتاب والسنة ان يدعو الله له بما يريده من امور الدنيا والآخرة .

---

(١) سورة البقرة اية : ١٨٦ .

(٢) رواه ابو داود .. انظر المختصر للمنذرى ٢/١٤٤

(٣) انظر شرح النووى (١٧/١٥) باب فضل مجالس الذكر .

فهذا نوع من انواع التوسل اجازته الشريعة المطهرة وارشدت اليه . . . فعن انس بن مالك رضى الله عنه ان رجلا دخل يوم الجمعة من باب كان وجاه المنبر ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يخطب ، فاستقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم قائما فقال : يا رسول الله هلكت المواشى وانقطعت السبل فادع الله يغيثنا قال : فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه فقال : (اللهم اسقنا اللهم اسقنا) وفى رواية (واغثنا) قال انس: ولا والله ما نرى فى السماء من سحاب ولا قزعة ولا شيئا وما بيننا وبين سلع من بيت ولا دار قال فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس فلما توسطت السماء انتشرت ثم امطرت . . . . الخ الحديث[1] .

وشاهدنا فيه سؤال الصحابة رضى الله عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يدعو الله ان يغيثهم بأنزال المطر فدعا لهم صلى الله عليه وسلم فمطروا بفضل الله ورحمته .

ولما قحط المسلمون وانقطع عنهم الغيث فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه طلب عمر من العباس رضى الله عنهما ان يدعو الله لهم فيسقيهم ، فعن انس رضى الله عنه ، (ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان اذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب فقال اللهم انا كنا نتوسل اليك بنبينا فتسقينا وانا نتوسل اليك بعم نبينا

---

(١) رواه البخارى انظر الفتح جـ٢ ص ٥٠١ كتاب الأستسقاء .

فاسقنا قال : فيسقون)[1] .

وكما بذل صلى الله عليه وسلم الدعاء ، فقد سأله سؤالا عاما من امته وسؤالا خاصة من بعض اصحابه :

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه انه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول : (اذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا على فأنه من صلى على صلاة صلى الله عليه بها عشرا ، ثم سلوا الله لى الوسيلة ، فأنها منزلة فى الجنة لا تنبغى الا لعبد من عباد الله وارجو ان اكون انا هو فمن سأل الله لى الوسيلة حلت له الشفاعة)[2] .

وعن عمرو بن الخطاب رضى الله عنه قال : استأذنت النبى صلى الله عليه وسلم فى العمرة فأذن لى وقال : (لا تنسنا يا اخى من دعائك ، فقال كلمة ،ما يسرنى ان لى بها الدنيا ،) وفى لفظ (اشركنا يا اخى فى دعائك)[3] .

وهكذا تدرك ان دعاء الشخص لشخص آخر احد الوسائل المشروعة حيث فعله النبى صلى الله عليه وسلم ، وطلبه من امته .

كما فعله اصحابه فى حياته وبعد مماته رضى الله عنهم اجمعين .

---

(١) رواه البخارى انظر الفتح (٢ / ٤٩٤) كتاب الأستسقاء .

(٢) رواه مسلم انظر النووى (٤ / ٨٥) .

(٣) رواه ابو داود : انظر مختصر سنن ابى داود (٢ / ١٤٦) باب الدعاء .

هـ ـ التوسل الى الله بعمل ذى بال عمله العبد خالصا لله :

ومن انواع التوسل المشروعة ان يتقرب العبد الى الله ويتوسل اليه بفعل عمل صالح ، او ترك محرم خوفا من الله وطلبا لثوابه ، يتوسل الى الله تعالى بذلك الفعل لقضاء حاجته بحصول نفع او دفع ضر ومن ذلك قصة النفر الثلاثة الذين دخلوا الغار فانحدرت عليهم صخرة عظيمة فسدته ليهم .

فعن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت الى غار فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار ، فقالوا : انه لا ينجيكم من هذه الصخرة الا ان تدعوا الله بصالح اعمالكم ....)(١) الحديث .

حيث توسل الأول ببره لوالديه وعطفه عليهما ورأفته الشديدة بهما .

وتوسل الثانى بعفته عن الزنى بابنة عمه التى احبها حبا شديدا بعد ان قدر عليها واستسلمت له مكرهة تحت وطأة الفاقة ، ولكنها ذكرته بالله عز وجل ، فتذكر قلبه وخشعت جوارحه وتركها

---

(١) رواه البخارى ومسلم .
ـ متفق عليه انظر النووى (١٧/ ٥٤)

بعد قدرته عليها وترك لها المال الذى اعطاها

وتوسل الثالث : بحفاظه على حق اجيره الذى تركه عنده فنما اجرته له وثمرها حتى جاء فأخذها كاملة ولم يترك منها شيئا فكان منها الذهب والفضه ، والبقر والغنم .

فاستجاب الله توسلهم بهذه الأعمال الصالحة ، التى عملوها خالصة لله ففرج كربتهم وانزاحت عنهم الصخرة وخرجوا سالمين .

وهكذا يتضح لنا جليا ان التوسل الى الله والتقرب اليه ، لجلب منفعة او دفع مضرة ، سواء فيما يتعلق بالأمور الدنيوية او الاخروية لا يكون الا بالايمان بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم وبما جاء عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وكذا لا يكون التوسل الا بالاعمال الصالحة او دعاء الاحياء الصالحين كما يكون التوسل بترك محرم تركه العبد خوفا من الله وهيبة لجلاله بعد ان يكون قدر على فعله .

***   **

(المبحث الثاني)

لا يتوسل الى الله الا بما شرعه لعباده

وبعد ان عرفنا انواع التوسلات والقربات المشروعة : فانه من المهم جدا التعرض لبعض ما يفعله كثير من المسلمين مما يتعلق بهذا الباب من الأمور الغير مشروعة .

كالتوسل بالأقوال والأعمال الشركية ، والبدعية ، مثل التوسل بذوات المخلوقين او جاههم فيما لا يقدر عليه الا الله ، وسواء اكانوا احياء ام امواتا ، وسواء كانوا انبياء ام صالحين ام كانوا من عامة المؤمنين .

فانه لا يجوز للمسلم ان يتقرب الى الله ويتوسل اليه بغير ما شرعه الله ورسوله ففيما شرعه الله ورسوله من انواع التوسل والقرب غنية من غيره من التوسلات الشركية والبدعية التي ما انزل الله بها من سلطان ولم يجعلها وسيلة وقربة اليه .

فالنذر والذبح على ارواح الأولياء والصالحين المتوسل بهم الى الله ولقضاء الحاجات واجابة الدعوات ، ليس هو من الوسائل المشروعة بل هو شرك وعمل من اعمال الجاهلية

فالعبد اذا مات انقطع عمله - مهما كانت منزلته ودرجته عند الله - ولم تعد له قدرة على فعل ما كان يفعله في حياته ، واصبح في حاجة الى دعوات الاحياء والى ريع وثواب الأعمال الصالحات ذات المنفعة المستمرة التي عملها في حياته من علم نافع او صدقة اجراها من كسب

حلال ،كما في الحديث : (اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث صدقة جارية ، اوعلم ينتفع به ، او ولد صالح يدعو له)(١) .

وقد اخبر الله تبارك وتعالى بأن الميت لا يسمع دعاء من يدعوه وعلى فرض سماعه لا يمكنه اجابة من دعاه ، وقضاء حوائجه ،ويوم القيامة يتبرأ المدعوون من الداعين ومن افعالهم معهم كما قال تعالى : ((والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ،ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما ستجابوا لكم ،ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولاينبئك مثل خبير))(٢)

وكذلك سؤال الله بجاه النبي او الولي او فلان كقول احدهم:اللهم اني اسألك بجاه نبيك او عبدك فلان ، او بحق فلان عليك ، فهذا و ما شابهه لم يرد ما يدل عليه لا في الكتاب ولا في السنة ولا عن السلف الصالح .

وليس لأحد على الله حق يستحقه بنفسه ، لذا فهو عمل مبتدع و ما كان كذلك فلا يكون وسيلة الى الله .

---

(١) رواه مسلم انظر النووي (١١/ ٨٥)

(٢) سورة فاطر ١٣ - ١٤ .

وقد فهم الصحابة رضى الله عنهم من (لفظ التوسل)بالنبى صلى الله عليه وسلم : انه التقرب الى الله بدعائه وشفاعته فى حال حياته صلى الله عليه وسلم :

قال شيخ الأسلام ابن تيمية رحمه الله : فمن دعا له الرسول وشفع له يتوسل الى الله بشفاعته ودعائه ، كما كان الصحابة يتوسلون الى الله بدعائه وشفاعته وكما يتوسل الناس يوم القيامة الى الله تبارك وتعالى بدعائه وشفاعته صلى الله عليه وسلم تسليما ، ولفظ التوسل فى عرف الصحابة كانوا يستعملونه فى هذا المعنى) (١) .

وقال رحمه الله فى موضع آخر : (واما التوسل بالنبى والتوجه به فى كلام الصحابة فيريدون به التوسل بدعائه وشفاعته) (٢) .

ومما يؤكد ما قاله شيخ الأسلام : انه لما قحط الناس فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه توسلوا بدعاء العباس ، ولم يتوسلوا بالنبى صلى الله عليه وسلم لعلمهم عدم جواز ذلك ـ فعن انس رضى الله عنه : ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان اذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب فقال : اللهم انا كنا نتوسل اليك بنبينا فتسقينا ، وانا نتوسل اليك بعم نبينا فاسقنا قال : فيسقون) (٣)

---

(١) انظر قاعدة جليلة فى التوسل والوسيلة ص ٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٤٩ .

(٣) رواه البخارى فى كتاب الأستسقاء انظرالفتح (٢/ ٤٩٤) .

قال شيخ الأسلام ابن تيمية فى معنى : قوله (توسلنا اليك نبينا)

قال : اى بدعائه وشفاعته لا بذاته ، ولذا عدلوا عن التوسل به الى التوسل بعمه العباس ، ولو كان التوسل هو بذاته لكان هذا اولى من التوسل بالعباس فلما عدلوا عن التوسل به الى التوسل بالعباس علم ان ما يفعل بحياته قد تعذر بموته)(١)

هذا وقد نقل الحافظ ابن حجر فى الفتح عن الزبير بن بكار (فى الأنساب) صفة ما دعا به العباس لما استسقى به الصحابة فقال : (اللهم انه لم ينزل بلاء الا بذنب ، ولم يكشف الا بتوبة ، وقد توجه القوم بى اليك لمكانى من نبيك وهذه ايدينا اليك بالذنوب ، ونواصينا اليك بالتوبة فاسقنا الغيث)(٢)

وهذا واضح فى ان الصحابة لم يتوسلوا بذات العباس ، مع انه حى يرزق ، وانما توسلوا بدعائه فدعا لهم .

فكل ما تقدم ذكره فى هذا الباب وغيره من الأدلة الشرعية وسيرة السلف الصالح يدل دلالة واضحة على انه لا يتقرب الى الله ولا يتوسل اليه الا بعمل مشروع يقوم به العبد ذاته او بدعاء شخص آخر من عباد الله الصالحين اما التوسل بذوات المخلوقين وجاههم

---

(١) قاعدة جليلة فى التوسل والوسيلة ص ٤٩ .

(٢) انظر الفتح (٢/٤٩٧) .

فلا يجوز بسواء اكانوا احياء ام امواتا هذا هو الحق الذى يجب اعتقاده ،ولا عبرة بآراء من هلك فى هذا الباب واعرض عن هدى الكتاب والسنة وما عليه سلف الأمة وخيارها ، وضل ضلالا بعيدا ، وجادل عن الباطل جدالا عنيدا فأنه : (من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا)(1)

وحسبنا الله ونعم الوكيل !

(1) سورة الكهف اية : ١٧ .

الفصل الثامن

(الفصـــل الثامـــــن)

في مشـروعيـة العمل بالأسباب وعدم الاعتماد عليها

وفيـــه مبحثـــان :

المبحث الأول : في الأمر باتخاذ الأسباب المشروعة والـرد علـى من خالف ذلـك .

المبحث الثاني : في بيان ان الاعتماد على الأسباب يفضي الى الشــرك .

* * *

(تمهيـــــــد)

لقد احببت ان اتلو فصل التوسل بهذا الفصل لوجود نوع من التشابه بينهما وهو ان كلا من التوسل و السبب فعل يقصد به المصلحة الذاتيــة بجلب منفعة او دفع مضرة غير ان مقاصد الآخرة في التوسل اظهـــــر ، والأسباب على العكس من ذلك ان الأمور الدنيا فيها اظهر .

ثم ان كثيرا من الناس في هذا الباب على طرفي نقيض فهم فيه بــــين افراط وتفريط حيث تعلق بعضهم بالأسباب واعتمد عليها اعتمادا كبيرا ، وقال بعضهم بتعطيلها وعدم الالتفات اليها ، وكل ذلك مذموم و مخالـــف لما ورد في الشرع من الأمر بأتخاذ الأسباب وعدم الاعتماد عليهــــا في حصول المسببات وفي ذلك مبحثان :

(المبحث الأولــ)

فى الأمر باتخاذ الأسباب المشروعــــة
والـــرد على من خالـــف ذلـــــك

لقد ورد الأمر والتوجيه الى اتخاذ الأسباب المشروعة والموصلــة الى الغايات والمانعة من الضرر واسباب الهلاك ، فى كثير من الآيـــات القرآنيـــة والأحاديث النبويـــة سواء فيما يتعلق بالأمة ككل او الأفـــراد أو الجماعات وفى كافة مجالات الحياة العامة والخاصة ففى مجــــال الجهاد ومدافعـــة اعداء الأســلام امر الله المسلمين بأن يأخذوا حذرهم ويحتاطوا من اعدائهم الكافرين وان لا يغفلوا عن اسلحتهــم ويستهينوا بعدوهم كما قال تعالى : ((واذا كنت فيهم فأقمت لهـــم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا اسلحتهم فأذا سجدوا فليكونوا من ورائكــم)) (١) .. الآية ..

بـل لقد امر الله المؤمنين ببذل الجهد واستفراغ الوسع لأعـــداد العـــدة والقوة المستطاعة واتخاذ كافة الأسباب الممكنة لأرهاب عـــدو الله وعدوهم وللدفاع عن عقيدتهم واوطانهم قال تعالـــى : ((واعـــدوا لهـــم ماستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكـــم وآخـــرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم)) (٢) .

---

(١) ســـورة النســـاء ايـة : ١٠٢ .

(٢) ســـورة الانفــــال ايـة : ٦٠ .

قال الأمام ابن كثير رحمه الله : ثم امر تعالى بأعداد آلات الحرب لمقاتلتهم حسب الطاقة والأمكان والاستطاعة ثم ذكر حديث عقبة بن عامر عند مسلم انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو على المنبر : (واعدوا لهم ما استطعتم من قوة) الا ان القوة الرمي الا ان القوة الرمي (١)) ثم ذكر عن مجاهد في معنى قوله تعالى : ((وآخرين من دونهم)) انهم بنوا قريظة وعن السدى انهم فارس وقال مقاتل بن حبان وعبد الرحمن بن زيد هم المنافقون ثم قال اى ابن كثير : وهذا اشبه الأقوال ويشهد له قوله تعالى : ((ومن حولكم من الأعراب منافقون ومن اهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم (٢)))

ويقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله في تعليقه على هذه الآية :

فالأستعداد بما في الطوق فريضة تصاحب فريضة الجهاد والنص يأمر بأعداد القوة على اختلاف ضنوفها والوانها واسبابها فهي حدود الطاقة الى اقصاها بحيث لا تقعد العصبة المسلمة عن سبب من اسباب القوة يدخل في طاقتها ، والمسلمون مكلفون ان يكونوا اقوياء وان يحشدوا ما يستطيعون من اسباب القوة ليكونوا مرهوبين في الأرض ولتكون كلمة الله هي العليا وليكون الدين كله لله (٣))

---

(١) رواه مسلم واورده ابن جرير في تفسيره (١٠/ ٣٠)

(٢) انظر تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٢٢ .

(٣) انظر تفسير في ظلال القرآن جـ ٤ ص ٤٨ - ٥٠ . بتصرف

ومن الأسباب التي ارشد الله اليها عباده السعي في الأرض وسلوك اسباب الرزق والكسب الحلال كما قال تعالى : ((وهو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور)) (١)

قال ابن جرير رحمه الله : وكلوا من رزق الله الذى اخرج لكم من نواحي الأرض و جوانبها والى الله نشركم من قبوركم (٢) .

ولما تحرج الناس من طلب الرزق بمزاولة البيع والشراء و المكاراه اثناء احرامهم بالحج انزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم قوله جل شأنه : ((ليس عليكم جناح ان تبتغوا فضلا من ربكم)) (٣) قال ابن جرير رحمه الله : ان معنى ابتغاء الفضل من الله : التماس رزق الله بالتجارة وان هذه الاية نزلت في قوم كانوا لا يرون ان يتجروا اذا احرموا يلتمسون البر بذلك فأعلمهم جل ثناؤه ان لا بر في ذلك وان لهم التماس فضله بالبيع والشراء (٤) .

هذا وقد حث صلى الله عليه وسلم امته وارشدها الى العمل والكسب واتخاذ اسباب الرزق الحلال والعيش النظيف روى البخاري في صحيحه عن ابي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لأن يحتطب احدكم حزمة على ظهره خير من ان يسأل احدا فيعطيه او يمنعه) وفي رواية الزبير بن العوام : (لأن يأخذ احدكم احبله) .. الحديث (٥).

---

(١) سورة الملك اية : ١٥ .
(٢) انظر التفسير جـ ٢٩ ص ٧ .
(٣) سورة البقرة اية : ١٩٨ .
(٤) انظر التفسير جـ ٢ ص ٢٨٢
(٥) الفتح (٤/ ٣٠٤) كتاب البيوع .

وروى ايضا عن المقداد بن معديكرب رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (ما اكل احد طعاما قط خيرا من ان يأكل من عمل يده وان نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده)[1] .

فهذه الأحاديث وما كان فى معناها بالأضافة الى كونها حث للعبد على الأرتزاق وتحصيل العيش بكده وعمل يده فهى ايضا ارشاد وتوجيه الى الأخذ بالأسباب التى امر بها الخالق جل شأنه .

وعدم الأتكال على الخلق .. وقد كان صلى الله عليه وسلم - وهو سيد المتوكلين وامام المتقين يعمل بالأسباب ويأخذ بها فى جميع شئون حياته سواء فيما يتعلق بمعاملاته وغزواته او فيما يتعلق برزقه ومعاشه وكذا التداوى مما يعتريه من الامراض حيث كان صلى الله عليه وسلم فى غزواته المباركة يأخذ باسباب الحماية والوقاية واعداد العدة اللازمة للوجهة التى يقصدها ، ذكر اصحاب السير انه صلى الله عليه وسلم دخل مكة عام الفتح فى كتيبته الخضراء فيها المهاجرون والأنصار رضى الله عنهم اجمعين مدججين بالسلاح لا يرى منهم الا الحدق يحيطون برسول الله صلى الله عليه وسلم[2] .

وقد كان صلى الله عليه وسلم يتداوى ما يعتريه من امراض ويأمر الناس بالتداوى روى البخارى فى صحيحه عن ابى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (ما انزل الله داء الا انزل له شفاء[3]

---

(١) الفتح (٤/ ٣٠٣) كتاب البيوع .
(٢) انظر سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٤٠٤ .
(٣) انظر الفتح جـ ١٠ ص ١٣٤ كتاب الطب

وعند مسلم عن جابر رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : (لكل داء دواء فاذا اصيب دواء الداء برأ بأذن الله)(١)

وفى سنن ابى داود ما يرشد صراحة الى التداوى وتلمس اسباب الشفاء فعن اسامة بن شريك رضى الله عنه قال : (اتيت النبى صلى الله عليه وسلم واصحابه كأنما على رؤسهم الطير ،فسلمت ثم قعدت ،فجاء الأعراب من ههنا وههنا فقالوا : (يا رسول الله انتداوى ؟ فقال : تداووا فأن الله عز وجل لم يضع داء الا وضع له دواء غير داء واحد : الهرم(٢) .

قال صاحب الفتح عن هذه الأحاديث وغيرها مما ورد فى هذا المعنى : وفيها كلها اثبات الأسباب وان ذلك لا ينافى التوكل على الله لمن اعتقد انها بأذن الله وبتقديره وانها لا تنجع بذواتها بل بما قدره الله تعالى فيها وان الدواء قد ينقلب داء اذا قدر الله ذلك واليه الأشارة بقوله فى حديث جابر (بأذن الله) فمدار ذلك كله على تقدير الله وارادته .. والتداوى لا ينافى التوكل كما لا ينافيه دفع الجوع والعطش بالأكل والشرب ، وكذلك تجنب المهلكات والدعاء بطلب العافية ودفع المضار وغير ذلك(٣) .

وقال الأمام النووى رحمه الله معلقا على قوله صلى الله عليه وسلم : (لكل داء دواء) .. الحديث : مبينا ان جمهور السلف والخلف يرون

---

(١) انظر النووى جـ ٤ ص ١٩١ ص ١٩١ .
(٢) انظر مختصر سنن ابى داود للحافظ المنذرى جـ ٥ ص ٣٤٦
(٣) انظر الفتح : جـ ١٠ ص ١٣٥ .

استحباب التداوى والعمل بالأسباب لهذه الأدلة و غيرها وان انكار ذلك من الغلو المنهى عنه قال رحمه الله وفى هذا الحديث اشارة الى استحباب الدواء وهو مذهب اصحابنا وجمهور السلف وعامة الخلف وفيها رد على من انكر التداوى من غلاة الصوفية .. وقال كل شىء بقضاء وقدر فلا حاجة الى التداوى وحجة العلماء هذه الأحاديث ويعتقدون ان الله تعالى هو الفاعل وان التداوى هو ايضا من قدر الله وهذا كالأمر بالدعاء ، وكالأمر بقتال الكفار وبالتحصن ومجانبة الألقاء باليد الى التهلكة مع ان الأجل لا يتغير والمقادير لا تتأخر ولا تتقدم عن اوقاتها ولابد من وقوع المقدرات (1) .

ويرى الأمام ابن القيم رحمه الله ان عدم مباشرة الأسباب نقص فى توحيد العبد وضعف فى توكله واعراض عن اوامر الشرع وتعطيل لها .. حيث قال رحمه الله : بل لا يتم حقيقة التوحيد الا بمباشرة الأسباب التى نصبها الله مقتضيات لمسبباتها قدرا وشرعا وان تعطيلها يقدح فى نفس التوكل كما يقدح فى الأمر والحكمة ويضعفه من حيث يظن معطلها ان تركها اقوى فى التوكل ، فأن تركها عجز ينافى التوكل الذى حقيقته اعتماد القلب

---

(1) انظر النووى ج ١٤ ص ١٩١ .

على الله فى حصول ماينفع العبد فى دينه ودنياه ودفع مايضره فى دينه ودنياه ولا يمنع مع هذا الأعتماد من مباشرة الأسباب والا كان معطلا للحكمة والشرع فلا يجعل العبد عجزه توكلا ولا توكله عجزا (١) .

---

(١) انظر زاد المعاد جـ ٣ ص ٦٧ وكتاب الطب النبوى ص ١٥ .

الرد على من قال بتعطيل الأسباب :

ورغم وجود هذه الأدلة الشرعية على مشروعية العمل بالأسباب : فقد قال بعض الناس لا فائدة من عمل الأسباب لأن الأشياء اذا كانت مقدرة فلابد من وقوعها واذا لم تكن مقدرة فلن تقع سواء عمل العبد الأسباب او لم يعملها ، كما ان فعل الأسباب ينافي التوكل وبالتالي هجروا الدعاء واعرضوا عنه وقالوا : لا فائدة منه بل هو من باب التعبد الذي يثيب الله عليه الداعي من غير ان يكون له تأثير في المطلوب ، او هو مجرد علامة نصبها الله امارة على قضاء الحاجات مثل ان يرى الانسان غيما اسودا في ايام الشتاء فأنه علامة على المطر، وهكذا حكم الطاعات مع الثواب والكفر والمعاصي مع العقاب فهي عندهم امارات محضة لوقوع الثواب والعقاب لا انها اسباب له .

بل ان غلاتهم ليقولون : ان التوكل على الله والألتجاء اليه لجلب منفعة او دفع مضرة هو من علل العوام الذين لم يبلغوا درجة الخواص في الكمال ، لأن العبد في نظرهم اذا رفض الأسباب وأخذ بالتوكل صار التوكل بدلا من تلك الأسباب ومن ثم فقد رجع الى الأسباب من حيث لا يدرى اذ ان حقيقة التوكل عندهم هو : تخليص القلب من علة التوكل فالمتوكل من اراح نفسه من النظر في مطالعة السبب سكونا الى ما سبق من القسمة مع استواء الحالين عنده ..

هذا هو ملخص كلامهم واعتقادهم (١)

(١) انظر كتاب طريق الهجرتين وكتاب دار السعادة للامام ابن القيم وانظر شرح الطحاوية . وطريق الهجرتين من ٣٢٦- ٣٣١

ونحن نلاحظ كيف ان العدول عن النصوص الشرعية ويسرها وسهولتها لها
يودى بصاحبه الى متاهات لا نهاية او الى نهاية فاسدة وغير معقولة .

فهم عندما اعرضوا عن الأخذ بالأسباب المشروعة ، ولم يسعهم ما وسع انبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام وهم سفراء الله الى خلقه واعبد الخلص لله واتقاهم له وقدوة الأمم وكذا لم يسعهم ما وسع المسلمين في هذا الباب وخالفوا بذلك الأدلة الشرعية والعقل الصحيح والفطر السلمية ، تدرج بهم الحال الى حرمان انفسهم من الأتصاف بهذه العبادة العظيمة وهى التوكل على الله والأعتماد عليه في جلب ما ينفع دفع ما يضر .

قال الأمام ابن القيم في الرد على قولهم : ان الاشياء مقدرة وعمل الأسباب لا يؤثر في اقدار الله شيئا ... الخ .

قال رحمه الله : وهذا السؤال هو الذى اورد الأعراب على النبى صلى الله عليه وسلم وقد رد عليهم صلى الله عليه وسلم بما يشفى ويكفى ، ففى المسند والسنن عن ابى خزامة قال : قلت يا رسول الله ارأيت رقى نسترقيها ، ودواء نتداوى به وتقاه نتقيها هل ترد من اقدار الله شيئا ؟ فقال : هى من قدر الله . (١)

فأجابهم صلى الله عليه وسلم : ان هذه الأدوية ، والرقى ، والتقى هى من قدر الله فما خرج شئ عن قدره بل يرد قدره بقدره وهذا

---

(١) رواه احمد انظر الفتح الربانى (١٧/ ١٥٧)

وهـذا الرد من قدره فلا سبيل الى الخروج عن قدره بوجه ما وهـذا كـرد قدر الجوع والعطش والحـر والبـرد بأضدادها ،وكـرد قدر العدو بالجهاد ،وكل من قدر الله الدافع والمدفوع والدفع .

الى ان قال رحمه الله : وطرد هذا المذهب يوجب ان لا يباشر الانسان سببا من الأسباب التى تجلب بها منفعة او تدفع بها مضـرة لأن المنفعة والمضرة ان قدرتا وقعتا وان لم تقدرا لم يكن سبيل الـى وقوعهما وفى ذلك خراب الدين والدنيا وفساد العالم وهذا لا يقولـه الا دافع للحق معاند لـه ... الخ كلامه رحمه الله (١) .

وقال رحمه الله فى موضع آخـر فى معرض رده عليهم فى تقييمهـم للدعـاء وقولهم ان الأشتغال به من باب التعبـد الذى يثاب عليـه العبد دون ان يكون له تأثير فى المقدور ، أو هو علامة مجـردة و امارة نصبها الله تعالى على قضاء الحاجات .

قال رحمه الله : والصواب انههنا قسما ثالثا : وهو ان هـذا المقدور قدر بأسباب فمتى اتى العبد بالسبب وقع المقـدور و متى لم يأت بالسبب انتفى المقدور ، وهذا كما قدر الشبع والـرى بالأكل والشرب ، وقدر الولـد بالوطء ، وقدر حصول الزرع بالبـذر وقـدر خروج نفس الحيوان بذبحه ، وكذلك قدر دخول الجنة بالأعمـال ، و دخول النار بالأعمال ، وهذا القسم هو الحق (٢) .

---

(١) انظر زاد المعاد جـ ٣ ص ٦٧ و الطب النبوى ص ١٦ .

(٢) كـتاب الجواب الكافى لمن سأل عن الدواء الشافى صـ ١٥ .

بل لقد تدرج رحمه الله مع القوم الى آخر ما وصلوا اليه في جنوحهم عن جادة الحق والصواب - وهو قولهم : ان كان الله قدر لى السبب فعلته ، وان لم يقدره لم افعله - حيث قال رحمه الله :

فأن قال : فأن قدر لى السبب فعلته ، وان لم يقدر لم اتمكن من فعله : قيل له : هل تقبل هذا الأحتجاج من عبدك وولدك واجيرك اذا لم يطعك وخالف امرك ؟ وكذا من اخذ مالك ،وقذف عرضك وضيع حقوقك ؟ وان لم تقبله فكيف يكون مقبولا منك فى دفع حقوق الله عليك؟[1])

وبهذا يظهر لنا جليا بطلان القول بعدم الأخذ بالأسباب ، لمخالفته للشرع وللفطر البشرية المجبولة على السعى لجلب المنافع ودفع المضار .

* * *

---

(١) انظر زاد المعاد (٦٨/٢) والطب النبوى ص ١٦-١٧ للأمام ابن القيم .

(المبحث الثاني)

في بيان ان الأعتماد على الأسباب يفضي الى الشرك

ليس المقصد الأساسي من الكلام في هذا الموضوع اثبات مشروعية العمل بالأسباب ، فهذا امر قد تواترت عليه الأدلة الشرعية ، وعقول البشر وفطر المخلوقات الحية ، وبه تسير دفة الحياة والقائل بتعطيل الأسباب مغالط لنفسه ومخادع لها ، ولا يمكنه الألتزام بما يزعمه ويدعو اليه . وانما المقصد الأساسي من الكلام في هذا الموضوع هو التنبيه الى ان تعاطي الأسباب سلاح ذو حدين فكما ان العمل بالأسباب امر لا بد منه في امور الدنيا والدين : فأن الأعتماد عليها والتعلق بها نقص في توحيد العبد يفضي به الى الشرك ، وذلك ان الأسباب بذاتها لا تجلب نفعا او دفع ضرا مجردة عن الأرادة الألهية فالله تبارك وتعالى هو المالك لهذا الكون واسبابه ومسبباته ، فأذا نسب العبد حدوث امر من الأمور الى الأسباب فقد نسب اليها ما هو حق لله تعالى ، وهذا نوع من انواع الشرك .

قال شيخ الأسلام ابن تيمية رحمه الله : من جعل الأسباب هي المبدعة فقد اشرك واضاف فعل الله الى غيره وذلك انه ما من سبب من الأسباب الا وهو مفتقر الى سبب آخر في حصول مسببه ولا بد من مانع يمنع مقتضاه اذا لم يدفعه

الا
الله عنه فليس في الوجود شيء واحد يستقل بفعل شيء اذا شاء الله × وحده) (١) .

وشيخ الأسلام في كلامه هذا كأنه يخاطب اهل هذا العصر الذين تجاوزوا بالأسباب حدها واعطوها من الأهتمام ما يخشى معه على ايمان المسلم وتوحيده فالدول ما فتئت تتكلم عن - خلق - الكفاءات ، والأعتماد على سواعد ابناء الأمة ، وتأمين المستقبل للأجيال القادمة ، حتى اصبحت هذه الكلمة تتردد على كل لسان وتقال في كل مناسبة صحيح ان هذه امور مهمة في حياة الأمة ولكن لا يجوز الأفراط في الأهتمام بها واهمال الأسباب الروحية التي هي الأسباب الحقيقية لرفعة الأمة وعلو شأنها فقد دفع الأهتمام بالأسباب ابناء المسلمين الى التهافت على بلاد الكفر بحجة التزود من العلوم والمعارف الأنسانية التي ترفع من شأن الأنسان في هذه الحياة ، ومن ثم يعودون هربا على اوطانهم واممهم واخلاقهم وعقيدتهم الا ما شاء ربك وقليل ما هم .

وهكذا حال كثير ممن يقعون في مشكلة او ضائقة تلمح وتحس من تصرفات احدهم ولـ جته وحركاته ما يوحي بأهتمامه بالأسباب اهتماما يربو على ما اباحه الشرع الحنيف في هذا الباب .

واصبح جانب التوكل على الله نسيا منسيا فهو على حد تعبير بعضهم (حجة العاجز) وقد نهى الله عن هذا الأفراط في الأعتماد على الأسباب

---

(١) الفتاوى جـ ٣ ص ١١٢ - ١١٣ .

وامر بالتوكل عليه وحده دون ما سواه واعتبر التوكل عليه شرطا فى صحة الأيمان كما قال تعالى : ((وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين)) [(١)] .

وهو ايضا صفة من صفات المؤمنين التى تميزهم عن غيرهم كما قال تعالى : ((وعلى الله فليتوكل المؤمنون)) [(٢)] فالله سبحانه وتعالى كاف عبده ولا فعا عنه وناصره ورازقه قال تعالى : ((اليس الله بكاف عبده)) [(٣)] وقال : ((يا ايها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين)) [(٤)] وقال ايضا : ((ومن يتوكل على الله فهو حسبه)) [(٥)] .

ولما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن معه من المسلمين اثر ابى سفيان وقريش بعد انتهاء معركة احد ونزل صلى الله عليه وسلم حمراء الأسد ، وارسل اليه ابو سفيان من يثبطه واصحابه ويتهددهم ويخوفهم عودة ابى سفيان ومن معه لأستئصال ما تبقى من المسلمين : لم يزدهم ذلك التهديد والوعيد الا يقينا الى يقينهم وتصديقا لوعد الله ورسوله وقالوا ثقة بالله وتوكلا عليه ما اخبر الله عنهم بقوله : ((الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل)) اى يكفينا الله ويمنعنا من شرور اعدائنا ونعم المولى لمن وليه وكفله . . وكانت النتيجة ما اخبر الله به بقوله : (فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم) [(٦)] . قال ابن ... انما ... الله تعالى نفسه بذلك

---

(١) سورة المائدة اية : ٢٣ .
(٢) سورة التغابن اية : ١٣ .
(٣) سورة الزمر اية : ٣٦ .
(٤) سورة الأنفال : ٦٤ .
(٥) سورة الطلاق : ٣
(٦) سورة آل عمران اية : ١٧٤-١٧٥

ـ اى بالوكيـل لأن الوكيـل فى كلام العـرب هو المسند اليه القيام بأمر من اسند اليه القيام بأمره فلما كان القوم الذين وصفهم الله بما وصفهم به فى هذه الآيات قد كانوا فوضوا امرهم الى الله ووثقوا به واسندوا ذلك اليه وصف نفسه بقيامه لهم بذلك .. وتفويضهم امرهم اليه بالوكالة ، فقال : ونعم الوكيل الله تعالى لهم (١)

وقد كان صلى الله عليه وسلم يقول فى دعائه : (اللهم لك اسلمت ، وعليك توكلت وبك آمنت واليك انبت وبك خاصمت واليك حاكمت) (٢)

فالتوكل على الله والاعتماد عليه وحده عدة المؤمن فى هذه الحياة ، ولا غنى له عنه بحال من الأحوال فهو من اعظم الأدلة على توحيد العبد واهم اعمال الأسلام .

قال الامام ابن القيم رحمه الله : (التوكل اصل لجميع مقامات الأيمان والأحسان ولجميع اعمال الأسلام ومنزلته منها منزلة الجسد من الرأس ، فكما لا يقوم الرأس الا على البدن فكذلك لا يقوم الأيمان ومقاماته واعماله الا على ساق التوكل (٣) .

وقال رحمه الله تعليقا على قوله تعالى : ((قل هو ربى لا اله الا هو عليه توكلت واليه متاب) (٤) قال : فأن العبد لابد له من غاية مطلوبة ووسيلة موصلة الى تلك الغاية فأشرف غاياته التى لا غاية له اجل منها : عبادة ربه والأنابة اليه ، واعظم وسائله التى لا وسيلة

---

(١) انظر التفسير جـ ص ١٧٨ - ١٧٩ .

(٢) رواه البخارى فى صحيحه عن ابن عباس رضى الله عنه فى كتاب الدعوات انظر الفتح (١١/١١) .

(٣) انظر كتاب طريق الهجرتين ص ٣٣٠

(٤) سورة الرعد اية : ٣٠ .

له غيرها البتة التوكل على الله والأستعانة به ولا سبيل له الى هذه الغاية الا بهذه الوسيلة فهذه اشرف الغايات وتلك اشرف الوسائل [(١)] .

فالتوكل على الله من اعظم اساسيات الدين الأسلامى ومن اشرف انواع العبادة ومن اهم اقسام التوحيد وانواعه وهو الأصل فى الأسباب والارادة وهو المطلوب من العبد وصرفه لغير الله شرك اما الأسباب الأخرى المشروعة فالمباح منها انما هو بقدر الطاقة والحاجة اليه فلا يجوز للعبد ان يقفز بالأسباب على حدود التوكل او يزاحمها ، بل يجب عليه ان يكون فى تعاطيه للاسباب وسطا بين الأفراط والتفريط فيأخذ بالأسباب المشروعة ويحرص على ما ينفعه ويدفع عنه ، وفى الوقت نفسه يعتمد على ربه ومولاه فى قضاء المسببات ونجاح الأسباب فالله هو المالك لهذا الكون والمتصرف فيه وخالق الأسباب ومسبباتها .

قال شيخ الأسلام ابن تيمية رحمه الله : وكل ما فى الوجود من الأسباب فهو خالقه وربه ومليكه واذا كان كذلك فالألتفات الى الاسباب شرك فى التوحيد ومحو الأسباب ان تكون اسبابا نقص فى العقل والأعراض عن الأسباب بالكلية قدح فى الشرع بل العبد يجب ان يكون توكله ودعاؤه وسؤاله ورغبته الى الله سبحانه وتعالى ، والله يقدر له من الأسباب من دعاء الخلق وغيرهم ما شاء [(٢)] .

---

(١) انظر كتاب طريق الهجرتين ص ٣٢٨ .

(٢) انظر الفتاوى جـ ١ ص ٢٧ و ١٣١ .

ولعل التوازن المطلوب بين التوكل واستعمال الأسباب يتضح لنـــا وبصورة واضحة شاملة كاملة مما رسمه وقرره الأمام ابن القيم رحمــه الله فيما يلى من سطور يجدر بنا ان نجعلها خاتمة المطاف ونهايـــة التجوال فى هذا المطلب الدقيق حيث اوضح رحمه الله انه لا يجوز القــدح فى التوحيد بالأعتماد على الأسباب ،ولا تعطيل الأسباب بدعوى المحافظة على التوحيـد ،وان الحق هو ربط احدهما بالآخـر دون تعطيل لحكمـة الله وشرعه او شراك للأسباب فى توحيده حيث قال رحمه الله : المقامات ثلاثة : احدها : تجريد التوحيد واثبات الأسباب وهذا هو الذى جاءت به الشرائع وهو مطابق للواقع فى نفس الأمـر ، والثانى : الشرك فـــى الأسباب بالمعبود كما هو حال المشركين على اختلاف اصنافهم.

والثالث : انكار الأسباب بالكلية محافظة من منكرها على التوحيـــــد فالمنحرفون طرفان مذمومان : اما قادح فى التوحيد بالاسباب ،وامـــا منكـر للأسباب بالتوحيد والحق غير ذلك وهو اثبات التوحيـــــد والأسباب وربط احدهما بالآخـر فالأسباب محل حكمه الدينى والكونـــى والحكمان عليها يجريان بل عليها يترتب الأمر والنهى والثواب والعقـــاب ورضى الرب وسخطه ولعنته وكرامته . . والتوحيد : تجريد الربوبيـــة والألهية عن كل شرك ، فأنكار الأسباب انكار للحكمة ، والشرك بها قـــدح

فى التوحيد واثباتها والتعلق بالرب والتوكل عليه والثقة به والخوف منه والرجاء له وحده هو محض التوحيد ... الخ كلامه رحمه الله (1) .

وبهذا التقسيم الواضح والترجيح لما هو الحق فى هذه المسألة يتعين على المسلم سلوك سبيل الأعتدال فى هذا الباب وذلك بأن يكون وسطا بين الأفراط والتفريط فلا يعتمد على الأسباب فى تحقيق مآربه فأن ذلك شرك ، ولا يدع العمل بالأسباب المشروعة فأن ذلك مجافاة للشرع و منافاة للعقل وللمتطلبات البشرية بل يعمل بالأسباب ويعتمد على مسبب الأسباب وهو الله الذى بيده ملكوت كل شئ سبحانه وتعالى

** * **

---

(1) انظر مفتاح دار السعادة ج ٢ ص ٢٧٠ .

الخاتمة

خاتمة الرسالة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد :

فهذا موجز وملخص شامل لفصول الرسالة لأعطاء فكرة عامة عن موضوع البحث واهم جوانبه :

حيث ذكرت في التمهيد ان التوحيد الذى دعت اليه الرسل ينحصر فى نوعين لا يكمل توحيد العبد وايمانه الا باستكمالها معا ، النوع الأول ما يعبر عنه بتوحيد المعرفة والاثبات ، وهو ما يتعلق بذات الرب سبحانه وتعالى واسماء ه وصفاته وافعاله ، والثانى ما يعبر عنه بتوحيد القصد والطلب وهو عبادة الله وحده لا شريك له وان هذا النوع اهم مهمات الرسل الى اممهم .

كما ذكرت فى الفصل الأول :

ان كلمة (لا اله الا الله) رابطة الرسالات ، وعنوان التوحيد ، فلا يصح اسلام احد الا بمعرفة ما وضعت له ودلت عليه ، وان التقدير الحق لخبر لا هو (بحق) كما قاله العلماء وكما يشهد له الواقع من وجود معبودات متعددة بغير حق كما اشرت الى ورود السنة تدل على ان الله رتب دخول الجنة على الايمان او العمل الصالح .. مع ورود السنة ليس فيها اشتراط ذلك ، ثم ذكرت مذهب اهل السنة ان من مات موحدا دخل الجنة قطعا اما ابتداء واما بعد دخوله النار المدة التى يريدها الله فلا يخلد فى النار احد مات على التوحيد كما لا يدخل الجنة احد مات على الشرك .

كما ذكرت ورود احاديث ظاهرها التعارض فى مدلولاتها فبعض الاحاديث تدل على انه يحرم على النار من قال لا اله الا الله ، مع

ورود أحاديث اخر تدل على انه يخرج من النار من قال لا اله الا الله .

وقد بينت ان في هذه المسألة قولين رئيسيين : احدهما ان .. دخول الجنة ابتداء لمن قال لا اله الا الله بصدق واخلاص وتاب وندم ولم يأت بما يناقضها ولم يرتكب كبيرة تستوجب العقوبة .

الثاني : ان ذلك خاص بمن تاب وندم عند الموت ، ثم ذكرت ان القول الأول هو الارجح .

اما الفصل الثاني فأبرز ما تعرضت له فيه وبايجاز لما يقوله اصحاب نظرية التطور عن اصل الانسان والدين ، وقد اوضحت ان دعواهم لا تستند الى دليل مقنع وانما هي مجرد ظنون واوهام لا تمت الى الحقيقة بصلة .

كما اوضحت في هذا الفصل ايضا ان اسباب انحراف البشرية عن التوحيد بدأ بتعظيم البشر ، وان توحيد العبادة اهم وظائف الرسل ومبدأ دعوة كل رسول الى قومه الامر الذي يؤكد اهمية توحيد العبادة وانه اساس الاسلام .

كما ذكرت في الفصل الثالث : انعبادة الله في الشرع تعني الخضوع له و محبته والالتزام بشرعه ، وان عبادة الله هي الثمرة المرجوة من بعثة الرسل وان شرط قبول الأعمال عند الله الاخلاص لله والمتابعة لرسوله صلى الله عليه وسلم وان المؤمن يعبد ربه رغبة في ثوابه وخوفا من عقابه، وقد ذكرت الرد على من خالف ذلك فقالوا واجب العبد ان يعبد الله تعظما له ولمنزلة القرب منه ، حيث ذكرت انهذا القول مخالف للفطر البشرية ومخالف للشرع والعقل .

كما ذكرت ان من اعرض عن عبادة الله فلابد وان يتخذ معبودات اخرى يذل لها ويخضع •

كما ذكرت فى الفصل الرابع ان الغلو فى الاشخاص بداية انحراف البشرية عن ملة التوحيد وان الغلو فى الاعمال اكبر عوامل الابتداع فى الدين ، وان واجب المسلم الالتزام بشرع الله وهديه •

اما الفصل الخامس : فقد ذكرت فيه ان من مقتضيات التوحيد عدم الابتداع فى الدين كما ذكرت فيه نماذج من البدع القادحة فى التوحيد ، وهى بدع اعتقادية وبدع فعلية فمن البدع الاعتقادية بدعة الكلام فى القدر وبدعة الكلام فى اسماء الله وصفاته ، وبدعة القول بخلق القران اذ ان هذه اشهر البدع الاعتقادية التى ابتلى بها المسلمون من قديم ، وقد ركزت وبصورة اوضح على مذهب السلف فيها •

اما البدع الفعلية فهى كثيرة جدا ، وقد بينت ان واجب المسلم عرض اقواله وافعاله وما ينطوى عليه صدره على ما جاء فى كتاب الله الكريم والسنة النبوية المطهرة

اما الفصل السادس :

فقد تعرضت فيه لذكر الشرك وانواعه والنهى عنه واسباب انحراف العرب عن ملة ابراهيم عليه السلام وذكر نماذج للاعمال الشركية لدى بعض المنتسبين للاسلام كما تحدثت عن الغاية التى اتخذ المشركون من اجلها معبودات من دون الله وقارنت اعمال عباد القبور والأولياء بأعمالهم لمعرفة مدى تطابق الأسلوب والغاية لدى الطرفين وختمت ذلك بذكر اسباب مظاهر الشرك فى المسلمين

وان اهمها اربعة اسباب : احدها اهمال بعض الحكام لأمر العقيدة ولأسباب مختلفة .. الثاني : جهل عامة المسلمين بأمر العقيدة ، الثالث تعظيم اصحاب القبور والبناء عليها ، الرابع الغلو في الاشخاص ومن يدعى لهم الولاية .

الفصل السابع : ذكرت فيه مجموعة من الوسائل المشروعة والتي رغب الله فيها عباده ، مثل الايمان بالله تعالى وبالرسول صلى الله عليه وسلم وطاعته واتباعه ، وبالاستغفار والدعاء كما انه لا يجوز ان يتوسل الى الله الا بما شرع لعباده ، فلا يتوسل بذوات ... المخلوقين ولا بجاههم .

اما الفصل الثامن : فقد تعرضت فيه لمشروعية العمل بالاسباب مع عدم الاعتماد عليها وكيف ان الاعتماد على الاسباب يفضى الى الشرك ، وقد اوضحت ان الكثير من الناس في هذا على طرف نقيض وبين افراط وتفريط ، وان واجب المسلم الاخذ بالاسباب وعدم الاعتماد عليها .

كما ذكرت رد العلماء على من قال بعدم الاخذ بالاسباب .

فهذا موجز لايضاح معالم البحث .

والله الهادى الى سواء السبيل .

فهرس المراجع

فهرس المراجع

اسم المؤلف	اسم الكتاب	م
	القرآن الكريم	١
لابى جعفر محمد بن جرير الطبرى	جامع البيان عن تأويل آى القرآن	٠٢
الامام ابن كثير	تفسير القرآن العظيم	٠٣
القرطبى	الجامع لاحكام القران	٠٤
محمد بن على الشوكانى	فتح القدير	٠٥
للزمخشرى	الكشاف	٠٦
سيد قطب	فى ظلال القرآن	٠٧
للامام محمد بن اسماعيل البخارى	الجامع الصحيح	٠٨
للامام مسلم بن الحجاج القشيرى	صحيح مسلم	٠٩
للامام احمد بن حنبل الشيبانى	المسند	٠١٠
للحافظ المنذرى	مختصر سنن ابى داود	٠١١
للامام الترمذى	جامع الترمذى	٠١٢
لابن حجر العسقلانى	فتح البارى شرح صحيح البخارى	٠١٣
للامام النووى	شرح صحيح مسلم	١٤
لعبد الرحمن الساعاتى	الفتح الربانى شرح مسند الامام احمد	٠١٥
للمباركفورى	تحفة الاحوذى شرح جامع الترمذى	٠١٦
لشيخ الاسلام ابن تيمية	كتاب العبودية	٠١٧
لشيخ الاسلام ابن تيمية	مجموعة الفتاوى	١٨
لشيخ الاسلام ابن تيمية	مجموعة الرسائل والمسائل	٠١٩
لشيخ الاسلام ابن تيمية	الرسالة التدمرية	٠٢٠
للامام ابن قيم الجوزية	اغاثة اللهفان من مصادر الشيطان	٠٢١

م	اسم الكتاب	المؤلف
٢٢	اقتضاء الصراط المستقيم فى مخالفة اصحاب الجحيم	للامام ابن قيم الجوزية
٢٣	مدارك السالكين	للامام ابن قيم الجوزية
٢٤	طريق الهجرتين	للامام ابن قيم الجوزية
٢٥	مفتاح دار السعادة	للامام ابن قيم الجوزية
٢٦	مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة	للامام ابن قيم الجوزية
٢٧	الطب النبوى	للامام ابن قيم الجوزية
٢٨	الجواب الكافى	للامام ابن قيم الجوزية
٢٩	كتاب التوحيد	للشيخ محمد بن عبد الوهاب
٣٠	فتح المجيد شرح كتاب التوحيد	لشيخ عبد الرحمن حسن ال الشيخ
٣١	مسائل الجاهلية	للشيخ محمد بن عبد الوهاب
٣٢	تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد	للشيخ سليمان بن عبد الله ال الشيخ
٣٣	مجموعة التوحيد الجدية	مجموعة رسائل وفتاوى لمجموعة من العلماء
٣٤	العقيدة الطحاوية	للامام ابى جعفر الطحاوى
٣٥	شرح العقيدة الطحاوية	للشيخ على بن ابى العز الحنفى
٣٦	الفقه الاكبر	للامام ابى حنيفة النعمان
٣٧	كتاب التوحيد واثبات صفات الرب	للامام ابن خزيمة
٣٨	كتاب الاعتصام	للامام الشاطبى
٣٩	كتاب تطهير الاعتقاد عن ادران الالحاد	للامام الصنعانى
٤٠	شرح الصدور بتحريم رفع القبور	للامام الشوكانى

م	اسم الكتاب	المؤلف
٤١	منهج ودراسة لآيات الاسماء والصفات	للشيخ محمد الامين الشنقيطى
٤٢	تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد	للشيخ ناصر الدين الالبانى
٤٣	كتاب عقيدة المؤمن	لابى بكر الجزائرى
٤٤	معارج الالباب فى مناهج الحق والصواب	للشيخ حسن بن مهدى النعمى
٤٥	غاية الامانى فى الرد على النبهانى	للشيخ محمود شكرى الالوسى
٤٦	الابداع فى مضار الابتداع	للشيخ على محفوظ
٤٧	السنن والمبتدعات	محمد عبد السلام الشقيرى
٤٨	مصرع الشرك والخرافة	للشيخ خالد محمد على الحاج
٤٩	تجريد التوحيد المفيد	للمقريزى
٥٠	كتاب الخطط	للمقريزى
٥١	كتاب خلق افعال العباد	للامام البخارى
٥٢	عقيدة المسلم	للشيخ محمد الغزالى
٥٣	العبادة فى الاسلام	للشيخ يوسف القرضاوى
٥٤	الكواشف الجلية عن معانى الواسطية	للشيخ عبد العزيز المحمد السلمان
٥٥	التوسل وانواعه	للشيخ ناصر الدين الالبانى
٥٦	رسالة التوحيد	للشيخ اسماعيل الدهلوى
٥٧	الانسان فى ظلال الاديان	للدكتور عمارة نجيب
٥٨	التصوف بين الحق والخلق	محمد فهر شقفة
٥٩	مصرع التصوف	للامام برهان الدين البقاعى
٦٠	هذه هى الصوفية	عبد الرحمن الوكيل
٦١	جامع العلوم والحكم	للامام ابن رجب الحنبلى

المؤلف	اسم الكتاب	
لابن هشام	السيرة النبوية	٠٦٢
لابن كثير	البداية والنهاية	٠٦٣
للكلبي	كتاب الاصنام	٠٦٤
لابن بشر الحنبلي	عنوان المجد في تاريخ نجد	٠٦٥
لابن قاسم	الدرر السنية في الاجوبة النجدية	٠٦٦
للزركلي	الاعلام قاموس تراجم ...	٠٦٧
للراغب الاصفهاني	المفردات في غريب القرآن	٠٦٨
للجوهري	الصحاح	٠٦٩
للفيروز ابادي	القاموس المحيط	٠٧٠

فهرس الاعلام

فهرس الاعلام المترجم لهـــــم

فهرس الموضوعات

* * *

بيان بالصواب والخطأ

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٠	١٤	للاله	الاله
١١	٧	الأستأنه	الاستعانة
١١	١٥	الأله	الاله
٢٠	١	من المبسر	من الخير
٢٤	٢	المتقذيه	المنقذة
٢٤	٦	ما قالة	ما قاله
٢٧	٢	ليس	ليست
٣٠	٧	القول	القبول
٣١	١١	د خوله	د خول
٣٤	١٢	ابى ذكر	أبى ذر
٣٧	١	ومعاذ رديقه	ومعاذ رديفه
٣٨	١٢	لا لستان له	لا استان له
٣٩	٤	اقالب	الغالب
٤٢	١٣	وانما	وانما
٤٧	١	تقديم	تمهيد
٤٨	٦	الـعريف	التعريف
٤٩	١٧	دم	وعدم
٥٢	١٣	لغير معنى	لغير مقصد
٥٤	٥	يا سبها	يناسبها
٥٥	٦	التقدايم	وتتنداعم
٥٦	٢	الكل	لكل
٥٨	١١	فاعرفوا	فانحرفوا
٦١	٤	الموجود	الموجد
٦٣	٨	غرائر	غرائز
٦٤	١٣	يجر	يجرب
٦٧	١٣	عز	عز وجل
٦٨	١٨	جر	جرير
٧١	٦	مهم العبادة	مهم فى العبادة
٧١	١٦	يحى	لحي
٧٢	١	لعبد	لهمد
٧٧	١	براءاء	برء اء
٧٧	١٢	لـ ه	الـه
٨١	١٣	تدرك	ندرك
٨٣	٤	فأذا	فاذا
٨٣	١٥	رضى الله ان	رضى الله عنه

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٨٣	١٢	فأياك	فاياك
٨٥	٩	بخصهم	بعضهم
٨٧	٧	ابيب	أيوب
٨٨	٨	صعيحهما	صحيحهما
٨٨	١٥	فاذا فعلوا	فاذا فعلوا
٩٠	٣	الأمام مسيلم	الامام مسلم
٩٠	٦	ولا تغلوا	ولا تفعلوا
٩٠	٦	تقدروا	ولا تغدروا
٩٣	٦	بجوسع	بجميع
٩٧	١٦	عصم في	عصم مني
١٠١	٧	الأ م مصير	الأمن من مصير
١٠٢	١٠	الصفائر	الصغائر
١٠٢	١٦	من النصوص	بين النصوص
١١٤	٤	بالأقرار بالمعروف	بالأمر بالمعروف
١١٦	٤	هي المنقذ	هي المنفذ
١١٦	١٤	تنظم	تنتظم
١١٦	١٦	عبادة ومزبة	عبادة وقربة
١٢٠	٥	امرا واحدا	امر واحد
١٢١	١٦	يعجزا	يعجز
١٢٨	٥	الصحاب	أصحاب
١٢٨	٧	الأخلاص	الاخلاص
١٣٠	١٦	من صالحات	من الصالحات
١٣٢	١٦	الأصنال	الأصناف
١٣٤	٢	يهتفي	تهتفي
١٣٦	١	الصارقة	الصادقة
١٣٧	٤	قلبها	قلبهما اهلا
١٣٧	١٣	دنيار	دينارا
١٤١	٨	انه ائد	عائدا
١٤٣	٨	لأن	لأنه
١٤٣	١١	الظلن	الظن
١٥١	١٥	المعوى	المعنوى
١٥٢	٧	فأذا	فاذا
١٥٢	١١	ان يكون مراد له	أن يكون له مراد
١٦٨	٤	وينسى العلم	ونسى العلم
١٦٩	٤	وذلك	ومن ذلك
١٧٧	٣	عبدا	عيدا

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٨٠	٧	سننه	سنته
١٨٦	٦	فأنه	فانه
١٩٤	١٠	قوال آخر	وقال آخر
١٩٤	١٨	يحسن فيه	بحسن نية
٢٠٠	١٨	حنبا	حسبنا
٢١٣	٦	وبذا وصف	وبما وصف
٢٢٠	٣	فسروا فيها	فسروا منها
٢٢٠	٦	مجرة	مجردة
٢٢٠	٩	قدير قدرة	قدير بقدرة
٢٢٣	١٣	تغفل	تقبل
٢٢٦	١١	واختلفت	واختفت
٢٤٦	٥	فأنه تعالى	فانه تعالى
٢٤٧	[illegible]	جاؤ	جاؤا
٢٥٠	١٥	اهل البدع	وأهل البدع
٢٥٠	١٢	انما يصرف	انما يعرف
٢٣٧	١٦	فأن مسا كنهم	فان مساكنهم
٢٣٩	٧	لأبتداء	لابتداء
٢٤٢	٦	جات	جاءت
٢٤٢	١٢	المسحية	المسيحية
٢٥٦	٤	تنبيشه	تنبيه
٢٥٩	١١	حللتى	حتى
٢٦٠	٥	الأسلام	الاسلام
٢٥١	[illegible]	الأمام	الامام
٢٥٤	١٧	رلهذا	ولهذا
٢٦٣	٦	فأذا	فاذا
٢٦٤	٦	للفيورين	للمقبوريين
٢٦٤	١٨	الأسلام	الاسلام
٢٦٥	٩	البد	البدع
٢٦٧	١١	وكلل	وكل
٢٦٧	١٣	وصلالة	وصلاة
٢٧٧	١٥	والأستكبار	والاستكبار
٢٧٨	١٣	الأسلام	الاسلام
٢٧٨	١٤	وعليه	وعابه
٢٨٢	٦	والحليف	والحلف
٢٨٨	٩	الأمام	الامام
٢٨٩	٨	الأمام	الامام
٢٨٩	١٧	فأن	فان

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣٠١	٦	اعلى	اعل
٣٠١	٨	بيضا	بيضاء
٣٠٦	١٧	فمنهم	فهم
٣٠٨	٣	فسبب	فبسبب
٣١٧	٥	فأنهم	فانهم
٣١٨	١٥	يجملون	ويجملون
٣٢٠	٣	للأسلام	للاسلام
٣٢١	١٢	فأنه	فانه
٣٢٣	١٣	بأسمها	باسمها
٣٢٣	١٦	فأن	فان
٣٢٤	٢	الأعتقاد	الاعتقاد
٣٢٤	٢	والأنقياد	والانقياد
٣٢٤	٢	والأستعباد	والاستعباد
٣٣١	٢	الأسلام	الاسلام
٣٣٣	١	الأمام	الامام
٣٣٣	١٢	فأذا	فاذا
٣٤٤	٢	بالأعتماد	بالاعتماد
٣٤٤	١٧	ما يحدى	ما يحدث
٣٢٥	٣	الأستغاثة	الاستغاثة
٣٢٥	٦	للأسلام	للاسلام
٣٢٧	٢	بيديهه	بديهة
٣٤٨	٦	المجدوم	المجذوم
٣٤٩	١١	لم استفاد	لمن استفاد
٣٧٥	١٤	ورغبة	ورغبه
٣٥٤	٥	الأستغاثة	الاستغاثة
٣٥٥	٦	الأيمان	الايمان
٣٥٨	٦	حلة الفيل	حملة الفيل
٣٦٦	١٣	الأتراك	للأتراك
٣٦٨	٦	طالحا	صالحا
٣٦٨	١٣	العالمين	العاملين
٣٧١	١٣	بادعاهم	بالدعائهم
٣٧١	٢٠	فية	نية
٣٧٢	٥	شنع	بأشنع
٣٧٢	١٠	مجرا	حجرا
٣٧٢	١٧	جبال	ولا جبال
٣٧٣	٩	لقيت	الفيت
٣٧٦	٣	الفملية	الفحيلة

رقم الصفحة	السطر	الخطـأ	الصواب
٣٠١	٦	اعلى	اعل
٣٠١	٨	بيضا	بيضاء
٣٠٦	١٧	فمنهم	فهم
٣٠٨	٣	فسيب	فبسبب
٣١٧	٥	فأنهم	فانهم
٣١٨	١٥	يجعلون	ويجعلون
٣٢٠	٣	للأسلام	للاسلام
٣٢١	١٢	فأنه	فانه
٣٢٣	١٣	بأسمها	باسمها
٣٢٣	١٦	فأن	فان
٣٢٤	٢	الأعتقاد	الاعتقاد
٣٢٤	٢	والأنقياد	والانقياد
٣٢٤	٢	والأستعباد	والاستعباد
٣٣١	٢	الأسلام	الاسلام
٣٣٣	١	الأمام	الامام
٣٣٣	١٢	فأذا	فاذا
٣٤٤	٢	بالأعتماد	بالاعتماد
٣٤٤	١٧	ما يحدى	ما يحدث
٣٢٥	٣	الأستغاثة	الاستغاثة
٣٢٥	٦	للأسلام	للاسلام
٣٢٧	٢	بيديهه	بديهة
٣٤٨	٦	المجد وم	المجذوم
٣٤٩	١١	لم استفاد	لمن استفاد
٣٧٥	١٤	ورغبة	ورغبه
٣٥٤	٥	الأستغاثة	الاستغاثة
٣٥٥	٦	الأيمان	الايمان
٣٥٨	٦	حلة الفيل	حملة الفيل
٣٦٦	١٣	الأتراك	للأتراك
٣٦٨	٦	طالحا	صالحا
٣٦٨	١٣	العالمين	العاملين
٣٧١	١٣	بادعاهم	بالدعائهم
٣٧١	٢٠	فية	نية
٣٧٢	٥	شنع	بأشنع
٣٧٢	١٠	مجرا	حجرا
٣٧٢	١٧	جـ ال	ولا جبال
٣٧٣	٩	اقيت	الفيت
٣٧٦	٣	الفعلية	الفضيلة

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣٧٨	٢	الأيمان	الايمان
٣٧٩	٢	بالأيمان	بالايمان
٣٧٩	٢	ولأيمان	والايمان
٣٧٩	٧	الأيمان	للايمان
٣٨٩	٤	والبدعة	والبدعية
٣٩٩	١٦	بتداوى ما يقريه	بتداوى مما يحتريه
٤٠٤	١٤	والسن	والسنن
٤١٠	١٢	الأيمان	الايمان